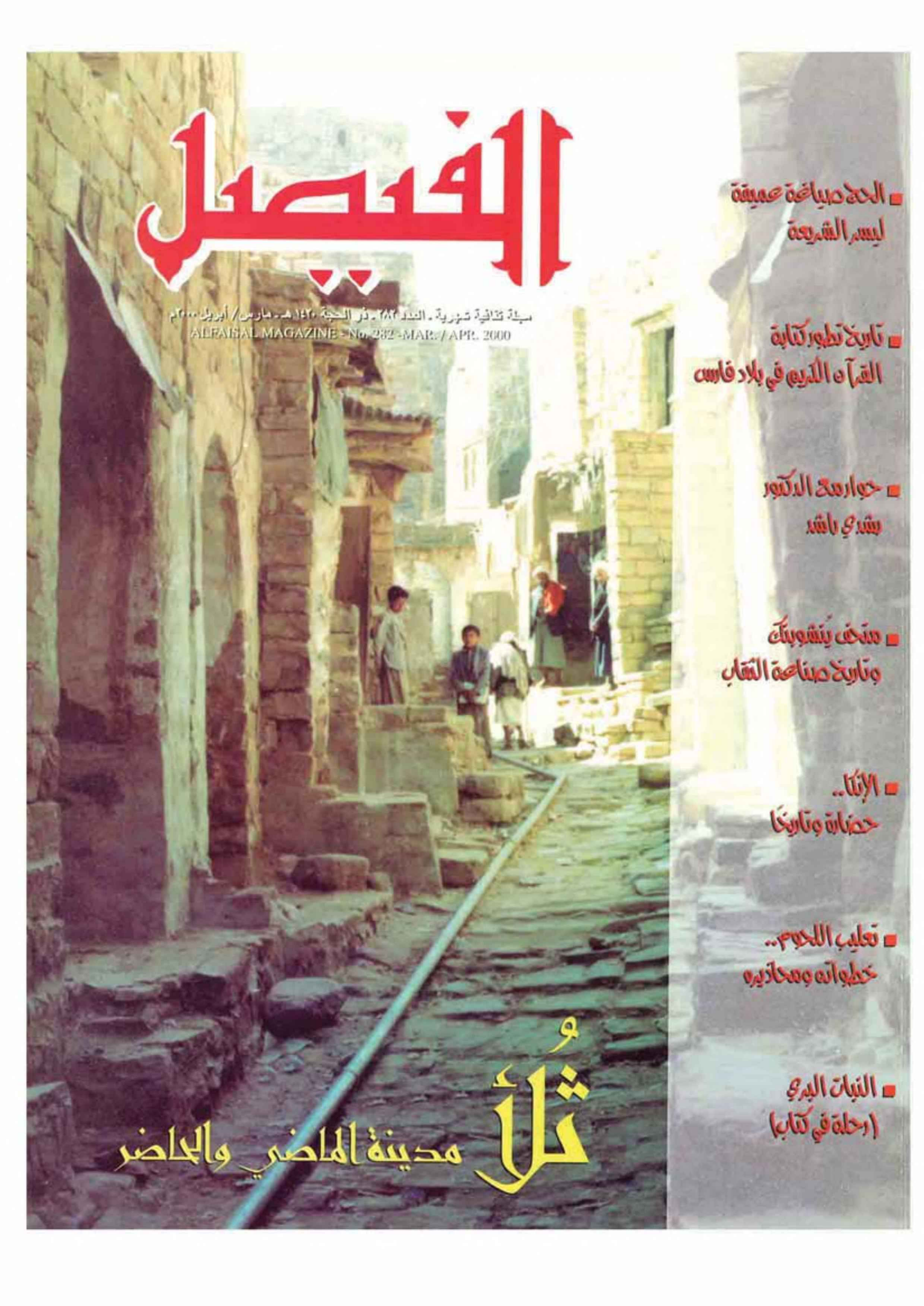

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية . العدد ٢٨٢ . ذو الحجة ١٤٢٠هـ - مارس/ أبريل ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 282 - MAR. / APR. 2000
الحج صياغة عميقة
ليسر الشريعة
تاريخ تطور كتابة
القرآن الكريم في بلاد فارس
حوار مع الدكتور
رشدي راشد
متحف بنشوبنك
وتاريخ صناعة النقاب
الإنكا..
حضارة وتاريخاً
تعليب اللحوم..
خطواته ومحاذيره
النبات البري
(رحلة في كتاب)
ثُلا
مدينة الماضي والحاضر



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أُجيزت من قبل النشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

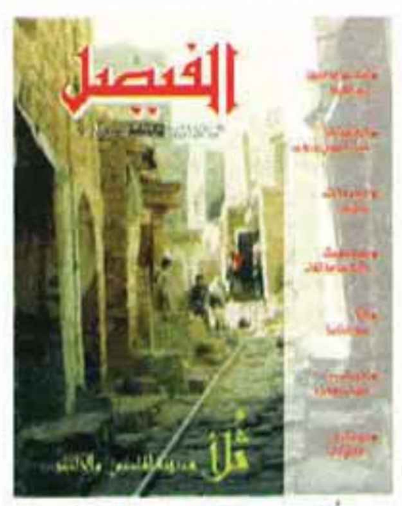
السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٠٠٢٠٢، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٠٠٢١٣، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤٢٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٠٠٢٤٩، المغرب ـ ٢٤٥٧٤٥، CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA MOROCO TEL: فاكس ٣١/٣٢-٤٠٤٠-٠٠٢١٢، باكستان ٥٦٨٣٤٩٤ PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: فاكس ٥٦٨٢٧٠٤-٢١-٩٢-٠٠، الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٠٠٩٦٧، سلطنة عمان ـ المتحدة للخدمة ووسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت:٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٠٠٩٦٨.





ثلا.. مدينة الماضي والحاضر

ثلا مدينة أثرية تقع غرب العاصمة اليمنية صنعاء، يعود تاريخها إلى عهد الدولة السبئية، وكانت تسمى قرية الطلح، وقد حاك الأهالي كثيراً من القصص والحكايات والأساطير حول حصنها الذي صمد في وجه الهجمات والغارات التي استهدفته في فترات متفاوتة. ولكن ما قصة المرأة التي هزمت الساحر وأنقذت دولة؟!!

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

لاتنشروا عن هؤلاء!!

لفت انتباهي وأنا أتصفح العدد ٢٨٠ من مجلة الفيصل، صفحة ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣٢ ذكر أخبار ومعلومات عن شعراء أو كتّاب أو فنانين لا ينسجم اعتقادهم أو أفكارهم أو نوعية نتاجهم مع الخط الملتزم لمجلة الفيصل، فلطالما اعتقدت بأنها مجلة عربية أدبية وفكرية، ملتزمة القيم الدينية للإسلام الحنيف، وما يتفرع عنه من أخلاقيات ومثل عليا، لذلك أستغرب نشر خبر دعائي لشخص ملحد مثلاً، أو إيراد معلومة عن فنان غير ملتزم «ومن هو الملتزم من الفنانين!!؟» فنسبة الفن الحقيقي فيما يقدم من برامج يقال بأنها فنية لا تتعدى نسبة الذهب في تراب المناجم وصخورها. أما ملاحظاتي على الأشخاص المذكورين، فهي ما يلي:

ـ محمود درويش: شاعر غير ملتزم، بل هو في تناقض مع الدين، وهذا أمر معروف لدى المتابعين جميعاً، ولا تشفع له وطنيته «ومن منا ليس وطنياً» أما عن شاعريته فنستطيع العيش دونها، فعدد الشعراء العرب أكثر من الهموم التي تنتظرنا في الألفية الثالثة «أصبح الحديث عنها موضة».

ـ صنع الله إبراهيم ـ القاص السوداني ـ في روايته «شرق» التي ذكرتموها، يبرر ويمنطق وبالتالي يروج الانحراف الأخلاقي لدى السجناء، بحجة الظروف الصعبة، فهو يكاد يجعل المخدرات واللواط «في السجن» بمنزلة القضاء والقدر، ولا أريد أن أسرد جملاً من روايته «اقرؤوا الرواية.. وقوموها».

ـ المغني محمد عبدالوهاب: قد لا يكون ملفه بحجم ملف غيره من الفنانين، لكني أرفق لكم صفحات من مذكراته التي بلغت ثلاث عشرة صفحة، والتي نُشرت في مجلة الجيل «اللبنانية» عدد ١ كانون ثاني/يناير ١٩٩٧م من صفحة ٧٣ ـ ٨٥ تحت عنوان «اعترافات محمد عبدالوهاب.. بين الفن والنساء» ومن الملاحظ أن عبدالوهاب ـ حين اعترافه ـ لم يكن مراهقاً، بل طاعناً في الثالثة والثمانين من عمره. إن القراء جميعهم يقتدون برجال الفيصل وما يحررون، وهم حين يقرؤون خبراً عادياً لشخص ما يستنتجون ـ بشكل آلي لا شعوري ـ أن هذا الشخص إنسان ملتزم «أخلاقياً» ولا غبار على سلوكياته، لأنه إن لم يكن كذلك لاستبعدته الفيصل عن صفحاتها.

ومن المفيد إخباركم أنني دائم الملاحظة والتمحيص عن الرجال وأخبارهم «وهذا من صميم عمل المفكر الباحث» وإلا: فكيف نعرف رجل القيم، وكيف نكشف اللا أخلاقي؟ وكمثال من مئات الأمثلة أقول: إنني قرأت من سنين خلت في إحدى المجلات خبراً مضمونه: أن المخرج يوسف شاهين، يحضر لفيلم يتحدث عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وعندما انتهى تصويره وشاهده النظارة في مصر، رفع بعضهم شكوى قضائية تتهم شاهين بترويج الرواية اليهودية الملفقة عن نبي الله يوسف عليه السلام، فأنكر شاهين التهمة أمام المحكمة وقال: إنها مجرد حدوتة «حكاية» متخيلة لا أساس واقعياً لها.. فخرج ظافراً بريئاً من القضية «وهو من صرح سابقاً عند التحضير للفيلم» بأنه سيخرج فيلماً يتحدث عن قصة يوسف عليه السلام.

هكذا وبكل وقاحة، يستخف شاهين وأمثاله بعقولنا!! فالمهم ما يقال في المحكمة أمام القضاة.. أقول: فيما بعد عرض الفيلم «المهاجر» في سورية ـ وبسبب ما أثير حوله ـ أردت مشاهدته، فوجدته وكأن حاخاماً قد كتب قصته، هذا عدا تفاهته تصويراً وحواراً وإخراجاً «أقول هذا اعتماداً على خبرتي ومتابعاتي الدائمة، منذ سنين طويلة نيفت على الثلاثين عاماً». والمعروف أن شاهين والنصارى عامة يؤمنون بما يسمى العهد القديم «التوراة» وما فيها من التحريف.

وبعد هذا كله، لا تجد منبراً إعلامياً واحداً إلا ويروج لشاهين وأفلامه. نعم إن الإعلام العربي كله «من خليجه إلى محيطه» يروج للمشاهير.. حتى لو كانت بضاعتهم موبوءة وفاسدة، أقول هذا والحيرة تنتابني.. ترى هل أنا مسلم مثالي لم يعد العصر مناسباً لأمثاله، أم أني على حق في دعوتي الفيصل لمقاطعة الذين أساؤوا للدين ومبادئه المقدسة، والذين قلبوا مفاهيمنا رأساً على عقب، وعاثوا في الأرض فساداً، وأوجدوا جيلاً بل أجيالاً من الأطفال والشباب والكهول، الذين يعتقدون بأن الفن ولا سيما الغناء هو أهم وأقدس من الدين ونصوصه، فتراهم يرددون دائماً.. الفن مقدس، المسرح مقدس، الموسيقى مقدسة.. إلخ، ترى هل علينا أن نسكت ونترك الأشخاص التافهين يفرضون علينا نتاجهم الفاسد... ماذا أقول لابني الجامعي، أو ذاك الذي يدرس في المرحلة الابتدائية، عندما يتصفح أحدهما مجلة رصينة مثل العربي «الكويتية» أو مجلة الكويت أو المجلة العربية السعودية.. ويقرأ خبراً يمتدح ليلى العثمان، وهو بالأمس كان يحدثني مستنكراً عن قصتها «امرأة من نار» وقد سردتها بضمير المتكلم، وتقول في إحدى جملها: «وفي الفراش أكلني أحمد» وأحمد في القصة هو والد زوجها!!؟ ثم بعد القصة تقرأ رأياً للناقد عبدالرحمن الربيعي يقول فيه: «إن كتابات ليلى العثمان هي صورة منسوخة عن سلوكها وحياتها». وبعد ذلك نسأل أنفسنا «ألا نغار على أخلاقنا ونحافظ على طهارة أبنائنا!!؟» ألا يحق لنا أن نسأل أنفسنا.. لماذا يقرنون لفظ الجلالة .. اسم الله الأعظم.. مع ألفاظ أخرى يندى لها الجبين وذلك كله يحدث باسم الإبداع، ترى ألا يكتمل الإبداع دون إهانة المقدسات؟ وإذا اعترض صاحب ضمير يحيلونه على التأويل.. تأويل كل كلمة وكل معنى بحيث تصبح المعاني هلامية ما أنزل الله بها من سلطان.

أخي العزيز رئيس التحرير.. إخوتي الأعزاء في أسرة التحرير لا حياد في المبادئ والقيم، فالسكوت والمهادنة ستدع هؤلاء المخربين يفسدون أطفالنا وقد فعلوا، والقضية يا إخوتي ليست انفعالاً آنياً.. لا، فمن حق المفكرين والكتاب ومحرري المطبوعات الشرفاء أن يصوبوا المعوج من الأفكار والطروحات. أرجو أن تأخذوا الأفكار السالفة بالجدية التي تستحقها، وحبذا لو عرضت للحوار وطُرحت للنقاش. اللهم إني قد بلّغت.

نبيل محمد سليم الإمام
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ١٠٧٦٣

التحرير:

لا نتفق مع القارئ الكريم في أغلب آرائه التي طرحها، وأحكامه التي أطلقها، وعملاً بحرية الرأي نطرح آراءه، كما نشرنا من قبل الأخبار التي علق عليها، علماً أن المجلة حين تنقل لقارئها خبراً فهي لا تصدر حكماً، وإنما تقوم بدورها في الإخبار، وهو من أهم وظائف أي وسيلة إعلام كما يعلم الجميع.

ونود أن ننبه الأخ القارئ على أن الأديب صنع الله إبراهيم ليس سوداني الجنسية، وإنما هو مصري.

أين أجدها؟

تحية طيبة إليكم وإلى جميع الفريق الساهر على إخراج هذه المجلة العظيمة، وأشكركم المجهودات التي تقومون بها، حتى أصبحت هذه المجلة من أشهر المجلات وأقواها في اختيار موضوعاتها، وأكثرها جدية في مضمونها.

وأخبركم أني أجد صعوبة في اقتنائها إذ لا تصل إلى المدن الصغيرة في بلادنا وحتى في المدن الكبيرة تكون قليلة جداً بينما نجد المجلات الأخرى أينما توجهنا. وأطلب منكم بعض الأعداد الماضية فهي مفيدة كلها دون تمييز.

أما الدافع لكتابة هذه الرسالة إليكم فهو أنني أود المشاركة بالكتابة في موضوع اخترت له عنوان «عالم الطفولة بين الإسلام والعلم الحديث»، وسيكون على حلقات عديدة.

فإذا رأيتم أهميتها ومناسبتها للنشر فأنا على استعداد.

والسلام عليكم.

د. عباس محمد (طبيب)
246 الحي الجديد ـ بام ـ مدينة سوق الأربعاء الغرب
إقليم القنيطرة ـ المغرب

التحرير:

نحرص على حل مشكلة توزيع المجلة، بحيث تتوافر للقارئ من غير صعوبة، وسوف تصل إليك بعض الأعداد السابقة من المجلة، أما الموضوع الذي أشرت إليه فنفضل أن يكون في مقالة واحدة جامعة على ألا تتجاوز عشر صفحات مطبوعة، أما الحكم عليها فإنه لا يتم إلا بعد الاطلاع وإخضاعها لمعايير النشر المتبعة في المجلة، فمرحبًا بك ضمن كتّاب «الفيصل».

مبروك للغذامي والهويمل

تعلمون أنني أعمد إلى التواصل الثقافي معكم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وقد سرّني كثيراً مثل غيري نقلتكم الجديدة الملموسة والمتجددة التي شملت أبواب المجلة كافة، وأحدثت بالمقابل تغطيات جديدة لموضوعات حديثة، فبوركت جهودكم لإغناء ثقافة قارئكم الذي تربطه بمجلتكم روابط عميقة.

فالفيصل صديقتي منذ أيام الجامعة وما

زالت. وأفتش عنها باستمرار.

وأود تهنئتكم على فوز الدكتور الغذامي والشاعر حسن الهويمل، اللذين حمل خبر فوزهما العدد ٢٨٠. اقرأ المجلة باهتمام بكل أبوابها لتتحقق لي الثقافة المتكاملة من خلال ما تطرحونه من مواد وتبويبات، هي ربما أصدق أن يقول عنها القارئ كتاب على شكل مجلة!! أستغرب كيف تستطيعون إتحافنا بكل هذه الموضوعات والعناوين، حقاً إنه جهد خارق ملموس وواضح؟!

أعود للدكتور الغذامي وأقول له ألف ألف مبروك. لا أدري ماذا أقول؟ هل فاز بالجائزة أم فازت به الجائزة؟ جميل منكم جداً وبأحاسيسكم المرهفة أن تكتبوا نبذة عن حياة الدكتور الغذامي، مع أنه غني عن التعريف أصلاً. أكتب هذه التهنئة من خلال مجلتكم الرصينة لأني لا أعرف للدكتور الغذامي عنواناً لمراسلته فلعله يقرأ سطور رسالتي من خلال مجلتكم الرائعة. وكذا أقول للشاعر حسن الهويمل: بصراحة نحن لا يصل إلينا المدُّ الثقافي السعودي، سوقنا تفتقر إلى ذلك، وأتمنى من الأعماق، وعبر مجلتكم، معرفة عنوان مؤسسة يماني الخيرية. وفي الختام أكشف لكم عن أمنية حقيقية تملأ الأعماق وهي أن أقرأ اسم الأديب العملاق عبدالفتاح أبومدين وقد فاز بإحدى الجوائز. يعلم الله كم هو الجهد الذي بذله هذا الأديب مع زملائه في رفد الحركة الثقافية السعودية وتطويرها، جهد صامت دؤوب ولا يُنسى، ويستحق التقدير والثناء، بوركت جهودكم والسلام عليكم.

القارئة المواظبة: أمل حامد سالم
عمان - الأردن
ص.ب: ٣٦١٣٦ الرمز ١١١٢٠

التحرير:

نشكر لك اهتمامك بالمجلة، وتهنئتك للدكتورين عبدالله الغذامي وحسن الهويمل، ونأمل أن يطالعا رسالتك الرقيقة هذه، كما نود أن يطالع الأستاذ عبدالفتاح أبومدين ما أبديتيه من أمنية في أن يفوز بإحدى الجوائز، مما يدل على متابعتك للحركة الثقافية في المملكة، على الرغم مما أبديتيه من شكوى لعدم وصول الإنتاج الثقافي السعودي إليكم.

بيتي الثقافي

إني من المتابعين لمجلة الفيصل الغراء والمساهمين فيها بالكتابة، ويسعدني أن أشدّ من أزركم، وأضع يدي على أياديكم الكريمة مشيداً بالحلّة الجديدة التي أخرجتم بها المجلة. ولكن كما تعلمون فالكمال لله وحده «جلّ وعزّ شأنه».

لذا لدي جملة ملاحظات أرى أن تأخذ اهتمامكم، لأني أحسّ دوماً بأنّ «الفيصل» بيتي الثقافي فمن دواعي سروري أن أسهم في تجميل بيتي، والله الموفق:

- أرى أن ترجعوا فقرة - من كتاب العدد - لأن فيها تعريفاً بالكتّاب، والباحثين كي تكون مجلتكم الموضع الذي يرون النور من خلاله. ولكم الرأي.

- أرى ألا يكون في ظهر كوبون المسابقة مقال أو كتابة؛ لأن ذلك ينقص ولو جزءاً يسيراً من معلومات تلك المقالة، وأتمنى أن يكون كوبون المسابقة ككوبون الاشتراك؛ وذلك بعزله بورقة مفردة. ولكم فائق التقدير والاحترام.

مشتاق عباس معن
كلية التربية بالمحويت - قسم اللغة العربية
الجمهورية اليمنية

التحرير:

نشكر لك ثقتك بالمجلة، ونفيدك أن اقتراحك الخاص بكتاب العدد سيكون محل نظر، أما عدم وضع كوبون المسابقة في خلف مادة تحريرية، فنحن نأخذ بذلك ونراعيه. ولك وافر التقدير.

ردود سريعة

الأخ الشيخ محمد أبواليسر الأحمد - حلب - سورية:

نشكر لك وللإخوة بالثانوية الشرعية المتابعين للمجلة تحياتهم وتهانيهم باختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، ونأمل أن تبقى كل مدننا العربية عواصم ثقافية تعج بالحركة في كل عام.

الإخوة عبدالله صدوق - الدار البيضاء - المغرب، سكاكرة نصر الدين - خنشلة - الجزائر، عاصم محمد حسن - الرياض، صالح عبدالكريم الكيال - جامعة دمشق - سورية، إسماعيل حامد إبراهيم - الرفاع الشرقي - البحرين:

غياب بعض الأبواب أو عودتها تتم وفق تقويم موضوعي، نشرك فيه القارئ الكريم الذي يحرص على الإدلاء برأيه وأفكاره، ليتبلور ذلك كله في النهاية في الشكل الذي تخرج به المجلة بما تتضمنه من مقالات واستطلاعات وإبداعات قصصية وشعرية وأبواب ثابتة وغيرها، والاقتراح الخاص بمد فترة المسابقة تمّ العمل به، فأصبحت ٤٥ يوماً، تحقيقاً للعدالة كما قال بعض الإخوة. وعنوان المجلة في كوبون المسابقة لمن يسأل عنه، أما الاقتراح بأن تكون من دون وضع خيارات للإجابة حتى يعتاد القراء طرق البحث، فإننا نرى أن الخيارات أيضاً تدفع إلى البحث للوصول إلى الإجابة الصحيحة أما من يختار الاجابات عشوائياً فإن فرصته تكون ضعيفة في الوصول إلى الحل الصحيح.

الأخ ثامر محمد خليل قدور - مركز ميت غمر - الدقهلية - مصر:

الجرعات العلمية والتراثية والشعرية التى أشرت إليها تجدها في المجلة بالقدر الذي يتناسب مع مجلة عامة تخاطب قطاعات عريضة من القراء تختلف في أفكارها وثقافاتها واهتماماتها، أما النقد السياسي فإنه لا يتناسب مع طبيعة مجلة ثقافية، وإن كنت تجد فيها جوانب فكرية وثقافية تلامس الهم العام الذي هو جزء من السياسة بمفهومها الواسع.

الأخ محسن علي بن علي جماهر - صنعاء - اليمن:

يمكنك الحصول على عناوين الإذاعات التي أشرت إليها في رسالتك من خلال متابعة تلك الإذاعات، ونأمل لك أن تفوز بإحدى جوائز الفيصل كما تمنيت.

تاريخ تطور كتابة القرآن الكريم في بلاد فارس

صادق العبادي
طهران - إيران



قسم من القرآن الكريم مكتوب بالخط الكوفي على ورق يعود إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة

أصدر المتحف الوطني الإيراني - بالتعاون مع منظمة الآثار الوطنية بمناسبة انعقاد المعرض السنوي للقرآن الكريم الذي يعقد سنوياً في أيام رمضان المبارك - مجموعة صور لأهم المصاحف الموجودة في المتحف الوطني الإيراني «جناح العصر الإسلامي» من القرن الثالث الهجري حتى القرن الأخير، وقد اخترنا من تلك المجموعة نماذج لمعرفة تاريخ تطور كتابة القرآن الكريم في بلاد فارس.

فالجناح الإسلامي في المتحف الوطني الإيراني يزخر بمجموعة قيمة من المخطوطات القرآنية التي تعد بحق من نفائس الثقافة والحضارة الإسلامية في البلاد الإيرانية ومفاخرها التي تستحق التأمل والوقوف عندها طويلاً. وتنم هذه المجموعة على الذوق السليم والإبداع ورهافة الحس والعقيدة الخالصة التي كان يتحلى بها الفنانون والمبدعون الإيرانيون.

إن هذه المجموعة الثرية والقيمة من فنون الخط العربي والفارسي وتنسيق المصاحف وعرضها، ما هي إلا ثمرة لجهود مخلصة لفنانين متألقين بذلوا خلاصة إبداعاتهم،

وصرفوا الساعات والأيام والأشهر الطوال من أعمارهم الغالية، دون كلل أو ملل، في سبيل إعداد هذه الكتب والمخطوطات وتنسيقها وإعدادها.

تاريخ كتابة القرآن الكريم

لقد دامت فترة نزول القرآن الكريم على النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، ثلاثًا وعشرين سنة. وكان النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم يعرض كل ما ينزل عليه من آيات على أشخاص أمناء وثقات يسمون بكتّاب الوحي، حيث يقومون عند ذلك بحفر هذه الآيات على الحجر والخشب والجلود أو على عظام الحيوانات وكتابتها، بعد ذلك تولى عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم المخلصين مهمة جمع القرآن الكريم وتدوينه في مصاحف منهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد ـ ١٦هـ، وأبو الدرداء عويمر بن قيس بن زيد ـ ٣٢هـ، ومعاذ بن جبل بن أوس، وأبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان، وأُبيّ بن كعب بن قيس بن مالك بن امرئ القيس، وعُبيد بن معاوية بن زيد بن ثابت بن الضحاك(١).

وقد تمّ إعداد أول مصحف كامل في العام الثلاثين من الهجرة النبوية الشريفة، وكان الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أصدر أمره في زمان خلافته إلى زيد بن ثابت الذي كان من كتّاب الوحي، وكلّفه بمهمة تدوين القرآن في مصحف واحد. وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تمّ استنساخ هذا القرآن إلى عدّة نسخ، أرسلت كل واحدة منها إلى ناحية من أنحاء البلاد الإسلامية، وأصدر عثمان أوامره بإلغاء كل مصحف يختلف مع هذا القرآن. ويذكر النديم أن أوّل شخص سعى إلى كتابة القرآن في صدر الإسلام، وكان مشهوراً أيضاً بخطه الجميل، هو خالد بن أبي هياج. ويمكن الإشارة كذلك إلى أم شيبان مسحور، وابن خميرة وابن حميرة لكونهم من خطاطي الكوفة في صدر الإسلام(٢).

نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي على ورق تعود إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة، وهناك رسالة وقف باسم الملك عباس الحسيني الموسوي الصفوي

تاريخ الخطوط الإسلامية

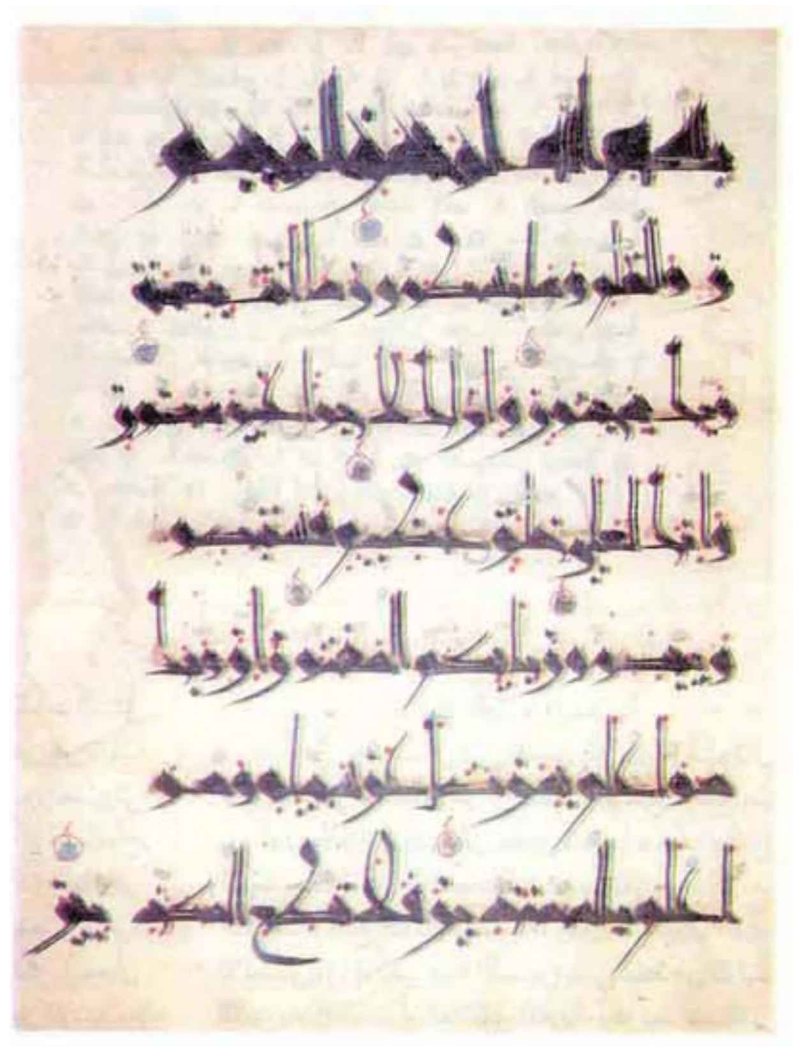
جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أول ما خلق الله القلم وأمر أن تكتب به جميع الوقائع حتى يوم القيامة»(٣). وقدم ابن خلدون تعريفًا جامعًا وكاملاً للخط، حيث يقول: «الخط عبارة عن علامات وأشكال من الحروف توضح كلمات مسموعة، وتدل على النوايا الخفية للإنسان»(٤). على هذا الأساس يأتي الخط في المرتبة الثانية بعد الكلمات أو العلامات اللغوية، وهو يعد أحد الفنون الشريفة والنزيهة؛ ذلك لأن الكتابة تعد واحدة من أهم الخصائص التي تميز الإنسان من الحيوان، وبمساعدة الخط يتمكن الإنسان من تخليد علومه ومعارفه، كما يستطيع من خلالها اكتساب العلوم والمعارف المختلفة من الآخرين.

وبعد ظهور الإسلام، وانتشار الأحكام والقوانين الإسلامية في إيران، طرأ تطور كبير في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكانت هذه التغييرات سريعة جداً في بعض المجالات الثقافية، وبطيئة نسبياً في عدد من المجالات الأخرى، وفي مجال تغيير التقاليد الفنية. أما قبل ظهور الإسلام فقد غلبت سمة البهلوية على اللغة والخط الفارسي حيث تم تدوين الكتب العلمية والسياسية والأدبية بهذا الخط، بينما لم يتم استخدام الخط الافستائي (الزرادشتي) إلاّ لتدوين الكتب الدينية، ولكن بعد دخول الإسلام إلى إيران، بادرت المدن الإيرانية، واحدة تلو الأخرى، إلى اقتباس الخط العربي الذي تجلّى في صدر الإسلام في الخط الكوفي، وصار الإيرانيون بعد ذلك يكتبون بالخط الكوفي، ثم بخط النسخ، وعن هذا الطريق حدث تداخل كبير بين اللغة الفارسية ومفردات اللغة العربية، مما أدى إلى بروز لغة تسمى باللهجة الفارسية القديمة (الفارسية الدرية) وهي الرائجة إلى اليوم في أفغانستان وأزبكستان.

فهذا التغيير، لسعة البلاد الفارسية، لم يحدث على نمط وفي وقت واحد في أنحاء البلاد كافة؛ إذ كانت هناك مناطق من فارس من ناحية طبرستان، تستخدم الخط البهلوي في القرنين الثاني والثالث للهجرة بسبب وجود تعصب خاص لدى أهاليها لصيانة التراث الوطني، ومما يدل على سمة هذه الحقبة وجود عملات معدنية وقطعات نقدية (لأسبهبدان طبرستان)، حيث ضُربت عملاتهم بالخط البهلوي. وهناك آثار أخرى تدل على استخدام الخط البهلوي في القرن الرابع للهجرة، وذلك من قبيل الكتابات المنقوشة على أبراج (لاجيم) و(رسكت) في مازندران (طبرستان).

وقبل ظهور الإسلام كانت هناك قبائل تقطن في شبه الجزيرة العربية تمتلك كل منها خطاً خاصاً بها، منها القبائل القحطانية التي كانت تسكن اليمن فقد كان لها خط يسمى بخط (المسند). أما قبائل النبطيين التي كانت تقطن شمال الجزيرة العربية، فقد كانت تكتب بالخط (النبطي). وتذكر كتب التاريخ أن عرب الحجاز كانوا عند ظهور الإسلام يكتبون بنوعين من الخط وهما (النبطي الجديد) والخط (السرياني) واستمر العرب في استخدام هذين النوعين من الخطوط بعد ظهور الإسلام.

وقد أدى الاهتمام بالعلوم العقلية في زمن الخلافة العباسية إلى تأليف عدد من الكتب وترجمتها، فازداد في أعقاب هذه النهضة الاهتمام بمسألة الكتابة في العصر العباسي، ولا سيما في عهد المأمون، بحيث



قرآن مكتوب بالخط الكوفي الإيراني يعود إلى القرنين الخامس والسادس للهجرة. والنص بسم الله الرحمن الرحيم

ن والقلم وما يسطرون ١ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ٢ وإن لك لأجراً غير ممنون ٣ وإنك لعلى خلق عظيم ٤ فستبصر ويبصرون ٥ بأيكم المفتون ٦ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ٧ فلاتطع المكذبين ٨

أخذ الكتّاب يتنافسون في الكتابة، وابتكر كل واحد منهم طريقة وأسلوباً معينين في كيفية الكتابة، وعلى ضوء ذلك صار الخط الكوفي في هذا العهد يكتب بأنواع مختلفة.

ولابد هنا من الإشارة إلى أن الخط الكوفي كان في البداية يكتب دون حركات ودون نقاط، مما أدى إلى بروز مشكلات في طريقة قراءة الكلمات، واستمرت هذه المشكلات حتى عهد أبي الأسود الدؤلي الذي ابتكر الحركات الإعرابية فوق الحروف وتحتها. وكان يستخدم نقطة واحدة فوق الحرف للدلالة على الفتحة، ونقطة تحته للدلالة على الكسرة، ونقطة أمام الحرف للدلالة على الضمة، ونقطتين للدلالة على التنوين، وكان التنقيط ضرورة لا يستغنى عنه؛ إذ جعل إمكانية قراءة الكلمات التي لم تكن منقطة سابقاً أمراً ميسوراً وبأوجه مختلفة.

وعلى أية حال، فقد شهد عهد عبدالملك بن مروان ابتكار عملية تنقيط الكلمات على أيدي نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر. وتعددت أنواع الخطوط كثيراً في زمن الخلافة العباسية حسب اقتضاء الظروف، وصار لزاماً حذف قسم من الخطوط الزائدة، لذا فقد تم إجراء عملية غربلة في هذا الخصوص. وعلى أثر تلك العملية قام أبوعلي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة البيضاوي الشيرازي (٢٧٢ - ٣٢٨ للهجرة)، والذي كان أستاذاً لا نظير له في علوم الفقه والتفسير والأدب والشعر والخط، بتحديد أنواع الخط، مبرزاً منها ستة أنواع، وهي: الثلث، والنسخ، والريحان، والمحقق، والتوقيع، والرقاع، وعمل ابن مقلة على إخراج خط النسخ بشكل بديع جاعلاً إياه أحد الخطوط الرسمية التي تستخدمها الدولة الإسلامية.



مصحف بخط النسخ يعود إلى عام ٥٨٤هـ

وهناك رأيان مختلفان بخصوص خط النسخ: فبعض الناس يعتقد أن ابن مقلة قد اشتق هذا الخط - حاله حال عدد آخر من الخطوط - من الخط الكوفي، وبعضهم الآخر يرى أن أنواع الخط الكوفي وخط النسخ كانت مألوفة منذ أوائل الإسلام، وكان الخط الكوفي يستعمل لكتابة القرآن، وخط النسخ في الوثائق الحكومية. ثم أجرى ابن مقلة إصلاحات على خط النسخ وعدّه مناسباً لكتابة القرآن(٥). ثم ظهر بعد ابن مقلة خطاطون آخرون اقتحموا دائرة فن الخط، كان أبرزهم أبا الحسن علاء الدين علي بن هلال (ابن البواب) المتوفى سنة ٤٢٣هـ، فقد عمد إلى وضع قواعد جديدة لخط النسخ وأتمّها(٦).

كتابة القرآن بالخط الكوفي في إيران

إن أقدم آثار مجموعة المخطوطات القرآنية التي يضمها المتحف الوطني الإيراني، والتي تمت كتابتها بالخط الكوفي على أوراق مصنوعة من جلد الغزال (رق)، لا يحتوي أي منها على تاريخ لكتابتها، وهناك علامات محدودة يمكن من خلالها معرفة تاريخ كتابتها بصورة دقيقة، مثل بقية النسخ المتأخرة، بل أن هناك بعض النسخ القرآنية تحمل إشارات غير معتمدة أضيفت مؤخراً تبين أسماء الأئمة الذين كتبوها مثل: الإمام علي بن أبي طالب رضي الله

عنه أو الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه. والأرجح أنها كتبت ونسخت عن تلك المصاحف؛ لأن أسلوب كتابة هذه النسخ القرآنية يوحي بأن التاريخ التقريبي لكتابتها يعود إلى القرن الثاني حتى الرابع للهجرة، وليس القرن الأول كما يدعى.

وتم تقسيم الخط الكوفي، بحسب مناطق انتشاره جغرافيًا، إلى نوعين: مشرقي ومغربي(٧)، وكان



ثلاثون جزءا من القرآن مكتوبة بالخط الغباري (الذري) تعود إلى القرنين السابع والثامن للهجرة

التقدم والازدهار من نصيب النوع المشرقي، وخاصة في بلاد العراق وفارس، ويمكن أن يثبت الباحثون، بالتمعن في النسخ القرآنية المكتوبة في الفترة بين القرن الثالث حتى الخامس للهجرة في إيران، وصول الخط الكوفي إلى قمة الإبداع. ومن بين أنوع الخطوط البارزة التي أشار إليها النديم وعدها فروعاً أساسية للخط الكوفي، يمكن ذكر الأسلوب الأصفهاني وأسلوب فيرآموز (بيرآموز) كأنواع خاصة بالإيرانيين(٨).

وبجانب التطور والتقدم في فن الخط الجميل، شهد فن تزويق الكتب وتزيينها، ولا سيما فن التذهيب تطوراً كبيراً أيضاً، فقد بدأت عملية تذهيب بداية السور والصفحات، ثم وضع علامات نهايات الآيات، وتذهيب حواشي الصفحات، وقد اهتم فنانو التذهيب بتزيين كتاب الله، حيث تم تذهيب أكثر نماذج نسخ القرآن المكتوبة بعد القرن الخامس الهجري؛ وذلك بتذهيب الصفحة الأولى والأخيرة، وبداية السورة، وعلامة نهاية الآية. وكانت بداية السورة تكتب عادة بخط كوفي بلون ذهبي موشم بخطوط سوداء، بينما امتازت النسخ الأقدم من القرآن بحروف غير منقطة ذات حركات إعراب أولية على شكل نقاط ملونة. وبمرور الزمان تم استعمال خطوط قصيرة مائلة كحركات في النسخ القرآنية المتأخرة والمكتوبة بالخط الكوفي.

الخطوط الستة في نسخ القرآن المخطوطة في المتحف الإيراني

قام ابن مقلة، كما ذكر سابقًا، بإجراء تعديلات وإصلاحات على الخطوط المختلفة التي برزت للوجود، وابتكر منها، حسب ما يرويه المؤرخون، ستة أنواع هي: المحقق، والريحان، والثلث، والنسخ، والتوقيع، والرقاع. ثم جاء بعده ابن البواب (المتوفى سنة ٤٢٣هـ) فوضع للخطوط المذكورة نسبًا في المستوى والأبعاد، اشتهرت في ذلك الوقت بالخطوط المتقاربة.

وبعد ابن مقلة وابن البواب، برز خطاطون مثل ياقوت المستعصمي (المتوفى سنة ٦٨٩ للهجرة) وتلامذته الذين من بينهم: أحمد بن السهروردي، وأرغون بن عبدالله الكاملي، اللذان أديا دوراً رئيساً في تنمية الخطوط وتهذيبها، مثل: النسخ والثلث والمحقق، ويمكن رؤية ذروة تقدم خط المحقق وازدهاره في أعمال السهروردي، وأن خط المحقق الذي تمت به كتابة عدد من نسخ القرآن النفيسة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة له جذور من الخط الكوفي، ويعده

عدد من الباحثين ضمن الخطوط الستة، بينما يرى آخرون أنه كان موجوداً قبل ابتكار الخطوط الستة، إذ سموه أيضاً بالخط (العراقي). وقد تم استخدام هذا النوع من الخط للكتابة منذ الخلافة العباسية، وفي عهد المأمون برز شخص اسمه الأحول، وهو كاتب تربى على أيدي البرامكة، قام بوضع قوانين وضوابط معينة لهذا الخط(٩).

وكان خط المحقق أشهر أنواع الخطوط لكتابة القرآن في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، وبمرور الزمان احتل مكانه خط النسخ، الذي كان في تلك الفترة يحتل الدرجة الثانية والثالثة في كتابة القرآن، فقد شاع استخدامه في كتابة القرآن بسبب الاقتصاد في الوقت. وربما يكون خط النسخ من أكمل أنواع الخطوط من ناحية التناسب والتركيب والوضوح والسهولة في القراءة والكتابة. وقد استمرت الكتابة بأسلوب خط النسخ لياقوت وتلامذته حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، وفي هذا الوقت، طرأ تغير على خط النسخ في فارس، على أثر بروز خطاطين، مثل إبراهيم القمي وتلميذه أحمد التبريزي، واستمر هذا التغيير حتى يومنا هذا.

وكان خط الثلث أيضاً من أجمل الخطوط التي تألقت كثيراً منذ العهد التيموري والعهد الصفوي في فارس، ويعود تاريخه إلى مرحلة ما قبل ظهور ابن مقلة. ويمكن الإشارة إلى عدد من الفنانين المعروفين الذين كتبوا بهذا النوع من الخط وهم: عبدالله الصيرفي، معاصر الجايتو، وعبدالباقي التبريزي (المتوفى سنة ١٠٣٩هـ)، بينما برز في خط الثلث خطاطون، مثل: علي رضا عباسي في القرن الحادي عشر للهجرة، والذي خلّف لنا أعمالاً كثيرة من إبداعاته. واحتلت خطوط التوقيع والرقاع المرتبتين الخامسة والسادسة بين الخطوط الستة.

وذكر النديم بشأن خط الرقاع يقول: إن أصل خط الرقاع هو خط الثلث، وكان خط التوقيع يستعمل في الكتابة، وما أشبه ذلك، وكان غير شائع الاستعمال في بلاد فارس فترة طويلة، كما كان هناك شبه بينه وبين خط الثلث في بعض الجوانب. وكان خط التعليق المنكسر من إبداعات الفنانين الإيرانيين، وخلال العهد التيموري قام مير علي تبريزي باشتقاق خط النستعليق من الجمع بين خطي النسخ والتعليق، إذ تم استخدامه في القرون المتأخرة في كتابة ترجمة بعض نسخ القرآن. وهناك خط آخر تم استخدامه



قرآن بخط المحقق (الجزء٢٦) يعود إلى عام ٧٠٦هـ

في كتابة نسخ صغيرة جداً من القرآن، وهو خط الغبار. وكان هذا الخط من الدقة بحيث تصعب رؤيته وقراءته. وكان القلقشندي، مؤلف كتاب «صبح الأعشى» يرى أن هذا الخط هو ناتج من خط الرقاع وخط النسخ(١٠).

فن التذهيب في القرآن

لجأ الخطاطون في فارس إلى الاستفادة من التزيينات النباتية والأشكال الهندسية، واستخدام أنفس العناصر

الموجودة للكتابة والزخرفة وأندرها، من قبيل ماء الذهب - وكل ما يليق بتزيين القرآن - وذلك لتزيين المصاحف. واستناداً إلى الآثار المخطوطة الموجودة، كانت التزيينات الأولى في نسخ القرآن المكتوبة بالخط الكوفي تتم على بدايات السور، وكان ذلك يشمل في البداية زخرفة كتابية عادية جداً تتضمن عنوان السورة وعدد آياتها، بالخط الكوفي، من دون نقاط أو حركات إعرابية، وبخط مُذَهّب.

نسخة من القرآن بخط المحقق (الجزء ١٠) تعود إلى القرن الثامن الهجري، وتحمل اسم الخطاط أحمد بن السهروردي «بلا تاريخ»، واسم المذهّب محمد بن أيبك وتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعمئة.

ويزين حاشية هذه النقشة الكتابية إطار على شكل مستطيل بنقوش على شكل عقد وانحناءات.

وفي هذه الفترة جرى تذهيب الصفحات الأولى والأخيرة للقرآن، والتي زينت سابقاً بإطارات مستطيلة الشكل تزين داخلها رسومات نباتية وهندسية. ومن عناصر التزيين الأخرى في هذه النسخ القرآنية يمكن الإشارة إلى علامات نهايات الآيات، وتقسيمات القرآن الأولية على شكل (نصف وثلث وربع...إلخ).

وعلى ضوء ذلك ظهرت نسخ قرآنية ذات صفحات مذهبة ومرصّعة غاية في الجمال، في بداية القرآن ونهايته. وبمرور الزمان تم تذهيب فهرس السور، وفهرس عدد الآيات والكلمات والأحرف المكتوبة على صفحات مزيّنة، وعلى هذه الوتيرة تم أيضاً تذهيب بدايات السور ونقشها وبقية الزخارف. ثم شهدت الكتابة المنقوشة في بداية السورة، والمكتوبة بخط كوفي، تنوعاً من العهد السلجوقي والعهود التي تلته، إذ صارت تزين بخطوط كوفية مزخرفة، علاوة على خط الثلث والنسخ، بالألوان: الذهبي والأسود والأبيض والأزرق والأخضر. واستمرار ازدهار تذهيب القرآن على هذا النمط في القرون التالية، وشهد كل عهد من العهود، ولا سيما التيموري والصفوي والقاجاري، بروز أساليب وصيغ خاصة في التذهيب. ثم شهد العهد المتأخر إضفاء حلة من الجمال والزخارف البديعة على الصفحات المذهّبة والمرصّعة في بدايات القرآن والفهارس والكتابات الموضحة لعدد الآيات، وتم تزيين هذه الصفحات بالزخرفة العربية (أرابيسك) وعلى شكل جديلة، وشكل عقد وحلقات، وأترج وجديلة، ومنذ هذا العهد أيضاً صارت صفحات بعض النسخ القرآنية مرقّشة باللون الذهبي.

عملية تجليد القرآن الكريم

إن صفحات القرآن كانت تُحفظ في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم بين دفتين ولوحين من الخشب. وهناك عدد محدود من النسخ الأولى المغلفة المتبقية من قرون الإسلام الأولى، على شكل لوحين من الخشب، وبغلاف من الجلد، ضربت عليها نقشات هندسية مختلفة. أما الصحائف والمجلدات التي ظهرت في القرن الرابع للهجرة وما بعده، فكانت على شكل طبقة من الورق المصنوع من عجينة الورق، مغلفة بجلود مختلف الحيوانات مثل: الحصان، والحمار، والخروف، والماعز، وغيرها.

وخلال الدولة التيمورية اتجه فن التجليد وبتشجيع من شاهرخ وابنه بايسنغر ميرزا نحو التطور ووصل إلى درجة الكمال في مدرسة هرات، وكان الفنانون في مدرسة هرات يزيّنون الجلود الدكناء بمشاهد طبيعية ومناظر وصور لحيوانات حقيقية وأسطورية، من قبيل الفهد والنمر والأرنب والطير الأسطوري والتنين، وقد تم حفر هذه التزويقات على سطح الجلد بواسطة قطع وقوالب منفصلة تماماً، وتم تزيين باطن الجلود الدكناء بالأسلوب المعرّق؛ أي بإلصاق قطع قصاصات الجلد على ظاهر الغلاف على أرضية ملونة. وخلال فترة الدولة الصفوية، وهو عصر ازدهار الفنون، حظي فن التجليد باهتمام خاص وعناية فائقة. وقد خلّفت لنا هذه المرحلة جلوداً لا حصر لها، تحمل زخارف وتزيينات جميلة بأنواع مختلفة، مدبوغة وهلالية ومعرّقة على شكل طبقة مُذهّبة. وشهدت بداية الدولة الصفوية رواج نوع آخر من الجلود يعرف باسم الجلود الملونة بالألوان الزيتية، ودام التركيز عليه تدريجاً حتى الدولة القاجارية (١٧٨٦ - ١٩٢٥م)، إذ حلّ محل الجلود المدبوغة والمضرّبة(١١)، وهناك نوع آخر من الجلود الزيتية يعرف باسم (مرغشي)، إذ يحل محل التزويقات المتنوعة التي ذكرناها سابقاً، تزويق من برادة الذهب والفضة الناعمة البراقة والجذابة على صفحة الجلد(١٢).



١٣ جزءاً من القرآن مكتوبة بخط المحقق المشابه لخط الثلث تعود إلى سنة ٨٧٠ للهجرة

وقد خلّفت لنا الدولة القاجارية أجمل أنواع الجلود الزينية، وتحمل هذه الجلود تزويقات مختلفة لأنواع الأترج، والورود، والأوراق، والطيور، أما باطن الجلود فهو منقوش بصورة رئيسة ببوتقة أو وردة النرجس أو الزنبق(١٣).

المراجع

١. محمد بن إسحاق النديم، الفهرست.

٢. محمد بن إسحاق النديم، الفهرست.

٣. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري.

٤. ابن خلدون، المقدمة.

٥. عفيفي، فوزي إسلام، نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية، وكالة المطبوعات، ١٩٨٠م ،ص١٠٢.

٦. راهجيري، علي، تاريخ مختصر خط وسير خوشنويس درايران (التاريخ المختصر للخط في إيران) طهران، ١٩٧٠م.

7- lings martin the quranic art of calligraphy and ilumination 1970.

٨. محمد بن اسحاق النديم، الفهرست.

٩. المصدر نفسه.

١٠. فضائلي، مصدر سابق، ص٢٧٩.

١١. هالدين، دانكن، صحافي وجلدهاي إسلامي (التجليد الإسلامي) ترجمة آذر آذرنوش، طهران، نشر سروش، ١٩٨٧م، ص١١.

١٢. إحساني، محمد تقي، جندها وقلمدانهاي إيراني (الأغلفة والأقلام الإيرانية)، طهران، نشر أمير كبير، ١٩٨٩م، ص٢٢.

١٣. بتصرف من مقدمة كتاب كلجيني أز قرآنهاي، خطي موزه دوران إسلامي (مختارات من القرآن المخطوط في المتحف الوطني الإيراني - العصر الإسلامي) طهران، نشر المتحف الوطني الإيراني، ١٩٩٦م.



الفائز الأول: **عبدالرحمن الحج حسن ـ سورية.**
الفائز الثاني: **عبدالحفيظ حوار ـ الجزائر.**

الفائز الثالث: **أحمد السيار ـ المغرب.**
الفائز الرابع: **تغريد زكريا إبراهيم ـ الأردن.**

حل مسابقة العدد (٢٧٩)

أبوالغمر المدني: شاعر تولى الكتابة للحسن بن زيد العلوي.

أول من حج ماشياً من ملوك الدنيا: هرقل بن هرقل ابن أنتونيوس.

ذكرت كلمة فضة في القرآن الكريم: ٦ مرات.

أول صورة فوتوغرافية التقطت في المملكة العربية السعودية: سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦١م

أطمتني الدنيا فلما جئتها
مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

قائل البيت: المتنبي.

مسابقة الشهر (العدد ٢٨٢)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) الصولتيّة: مدرسة من أقدم المدارس في مكة المكرمة أسست على يد «صولت النساء» سنة: ☐ ١٢٣٧هـ ☐ ١٢٩١هـ.

(٢) من قائل هذا البيت:
من لي بعيش الأغبياء فإنّهُ
لا عيش إلا عيشُ من لم يعلم

☐ زهير بن أبي سلمى ☐ ابن نُباته.

(٣) نصير الدين الطوسي: ☐ مبتكر الأسطرلاب الخطي ☐ عالم فلك ورياضي مسلم، من آثاره: «تربيع الدائرة».

(٤) أين يقع متحف باردو الوطني؟ ☐ تونس ☐ مدريد

(٥) قلادة فينوس: ☐ قلادة من الذهب الخالص كانت تمنح للعدائين الإغريق ☐ نبتة بحرية رائعة الجمال.

الاسم:
ص.ب:

العنوان:
الرمز البريدي:

المدينة:
هاتف:

الدولة:
ناسوخ:

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

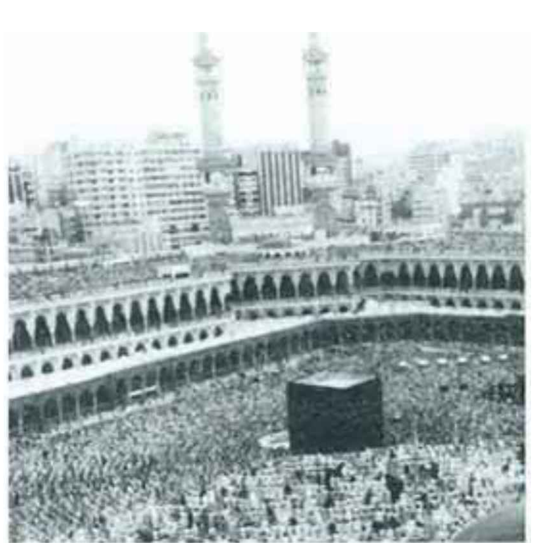
الحج صياغة عميقة ليُسْر الشريعة

نبيل سليم
الإسكندرية - مصر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة»؛ ذلك لأنه تتركز عليه عظمة هذه العبادة وجلالها ووصول التجربة فيها إلى ذروة سموها، إذ يشهد الموقف مجتمعاً بشرياً تنمحي فيه كل الفروق.. فروق الجنس، واللون، واللسان، والمكانة الاجتماعية، فهم عباد لمعبود واحد، هتافهم له بلسان واحد: «لبيك اللهم لبيك».

فالمسلم يعيش في ظلال التزام الدين الحق تجربتين بالغتي العمق في تأثيرهما التربوي وأثرهما السلوكي في يسر عظيم ليس فيه جبر أو قهر، وإنما فيه دلالة تؤكد وسطية الإسلام البسيطة السهلة اليسيرة في شرائعه وشعائره، في فرائضه ومناسكه، في أوامره ونواهيه، وفي كل شؤونه وأموره.

هاتان التجربتان هما الصيام «صيام رمضان» والحج إلى بيت الله الحرام، ولمكانتهما في توجيه المسلم وتقويمه، والتسامي بغرائزه ونوازعه، اقتضت حكمة الله أن يكونا ركنين أساسيين في بناء الإسلام في ضمير المسلم، وفي مجتمع المسلمين، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا».



ولا بد للمسلم من معايشة هاتين التجربتين كل عام متى ملك القدرة والاستطاعة اللتين هما سمة الشريعة السمحة فيما توجه إليه من وسائل التربية، واقتضت حكمة الله العليم الحكيم الخبير أن تنتهي التجربتان بالعيد لينطلق المسلمون منه إلى الممارسة الراشدة بعد التجربة المؤثرة. والعيد في الإسلام ليس مجرد يوم يلهو فيه المرء متخففاً من مسؤولياته، وتكاليفه، ولكنه قيمة كبيرة وعظيمة شيها هذا الجانب المشار إليه في وقار والتزام، وفيها معنى التهيؤ لمرحلة أخرى من الالتزام الصحيح، تتوافر فيها ملامح السلوك الإسلامي القويم.

فالعيد إذن هو الخط الفاصل بين المرحلة التربوية ومرحلة العمل والالتزام.. فقبل عيد الفطر مثلاً تعيش الأمة المسلمة عبادة الصيام بما لهذه العبادة من آثار تربوية عميقة، تعددت اتجاهاتها، تبدأ من بناء الكيان الإسلامي في الإنسان المسلم فتؤسس فيه العقيدة التي توجه سلوكه، والضمير الواعي الذي يراقب عمله وتصرفه، كما تلزمه النمط الخلقي الرفيع الذي هو من أسس التزام الدين الحق. روى ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل: إني صائم، إني صائم».

ومن هنا يخلص الصائم من عبادة الصيام إلى أمور ذات شأن كبير لا بد أن تظهر في سلوكه بعد رمضان، وهذه الأمور ندركها في قوله تعالى: *ولتكملوا العدة، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون*. **البقرة: ١٨٥**، فالآية تفيد أن القاعدة في التشريع هي اليسر، وأن أمر العسر غير وارد في شرع الله، وأن أعظم مظهر لليسر يتمثل فيما يرتبط بالعبادة من آثار تربوية سامية، كما سجلت الآية المهام التي ترتبط بعبادة الصيام، وهي إكمال العدة، والوفاء بالتكليف، ثم التكبير إعلانًا عما هدانا الله إليه، ووفقنا له من عبادة لها هذا الأثر الفعال، ولهذا كان التكبير شعيرة من شعائر العيد تنتهي بصلاة عيد الفطر، وتمتد إلى آخر أيام التشريق في عيد الأضحى.

أما ثالثة المهمات المرتبطة بالآية فهي شكر النعمة، وهذا أمر ينبغي أن يسود سلوك المسلم في العيد، فيعبر عنه بالبذل والعطاء، وصلة الأرحام، والثناء على الله بما هو أهله، والفرحة الغامرة التي تتجه بسلوك المسلم إلى نشوة وقور.. يقول صلى الله عليه وسلم «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه»، وجاء في سياق آيات الصيام قوله تعالى: *وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون* **البقرة: ١٨٦**.

فضل «عرفة»، والمسلمون التيوم

وفي مثل هذه الأيام المباركة من كل عام يتوافد ضيوف الرحمن، وتهفو قلوب ملايين المسلمين نحو بيت الله الحرام ليؤدوا الركن الخامس من أركان الإسلام، ولا شك أن لهذا البيت العتيق منزلة عند المسلمين، فقد خصه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بخصائص كثيرة، حيث ذكر في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، ومن أشهر هذه الخصائص: أنه أول بيت وضع في الأرض لقوله تعالى: *إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين*. **آل عمران: ٩٦**.

إن نعم الله على عباده كثيرة وآلاءه كبيرة تفوق الحصر والتعداد: *وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار*. **إبراهيم: ٣٤**. وهذه النعم تتجدد وتتوالى على عباد الله المؤمنين مع اختلاف الأيام والأزمنة، فمواسم الخيرات لأهل الإيمان كثيرة، فلا يكاد يذهب موسم إلا ويعقبه موسم آخر مملوء بالنعم والمنن على عباد الله المتقين، فلله الحمد والمنة.

يكفي الذين يشهدون يوم عرفة فخرًا أن يباهي الله بهم ملائكته

ومما أنعم الله به على عباده المؤمنين: يوم عرفة، ذلك اليوم المبارك الذي تتنزل فيه الرحمات، وتقال العثرات، وترفع الدرجات، إنه يوم عظيم مبارك، وموسم من مواسم الخير والبشر والسعادة على كل مؤمن، كيف لا وقد أقسم به الباري جل شأنه في قوله تعالى: *والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود*. **البروج: ١-٣**، والمشهود - كما يقول أهل الفقه - هو يوم عرفة، كذلك أقسم بهذا اليوم المبارك في قوله تعالى: *والفجر وليال عشر والشفع والوتر*. **الفجر: ١-٣**، فذكر العلماء أن الوتر هو يوم عرفة، ولفضله ومكانته أقسم الله به، والله سبحانه لا يقسم إلا بما هو عظيم.

وحسبنا، أيها المسلمون في هذا اليوم العظيم المبارك، أنه يوم يذل الله فيه ألد أعدائه وألد أعداء أوليائه وهو إبليس اللعين، فما رئي الشيطان أحقر ولا أصغر في أي يوم مثلما رئي في يوم عرفة، إلا ما كان من يوم بدر، وذلك لما يرى من تنزل الرحمات، وتوالي الكرامات من الله على عباده المتقين، ومغفرة السيئات، وجوده سبحانه على عباده، وكثرة إعتاقه من النار. وفوق هذا فإن الله - سبحانه وتعالى - يباهي يوم عرفة بأهل عرفة ملائكته، ينظر سبحانه إلى عباده، وقد خلعوا لباسهم الذي اعتادوه، ولبسوا لباس الإحرام، كناية عن انخلاعهم من الذنوب التي كانوا عليها، وتعبيرا عن عودة صادقة إلى الله تعالى، ففي صحيح مسلم عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟». وفي حديث آخر أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثا غبرا».

فوالله لو لم يكن في هذا اليوم العظيم إلا ما يحصل من مباهاة الله بأهل عرفة ملائكته فكفاهم ذلك فخرا وعزة، أولا يكفي المؤمن شرفا مباهاة ربه به؟ فكيف إذا كان مع ذلك مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات؟ فعلى المرء أن يستغل هذا اليوم المبارك بالأعمال

الصالحة، ويستثمر سويعاته كافة بجميع أعمال القرب من الذكر والاستغفار والدعاء والتضرع إلى الله تعالى والإلحاح في ذلك، مع الانكسار لله والتذلل بين يديه، وعليه أن يكثر من جوامع الدعاء، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمدُ لله، ولا إله إلا الله والله أكبر».

وعلى المرء أن يرفع يديه حال الدعاء، وأن يقرأ شيئاً من القرآن، وإذا دعا ينبغي أن يكون دعاؤه بخشوع وحضور قلب، إلى جانب الإكثار من الأذكار والأدعية الواردة في كل وقت، ومن ذلك: سبحان الله العظيم، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.. ويستحب للحاج في هذا اليوم المبارك أن يكرر هذه الأدعية وما في معناها من الأدعية والأذكار الواردة شرعاً، ويلح في الدعاء، وكذلك الإكثار من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وسؤال الله من خيري الدنيا والآخرة، وعليه أن يكرر الدعاء ثلاثاً تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

والدعاء في جوهره عبادة؛ لأنه تضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وإظهار لاحتياجنا إليه، واعتمادنا عليه، وإقرار بألوهيته التي لا شريك له فيها، فإذا استحضر الداعي هذه المعاني وهو يدعو ربه فإن الله تبارك وتعالى حري أن يستجيب له، وقال ربكم *ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين*. **غافر: ٦٠**، في هذه الآية تأكيد أن الدعاء هو في حقيقته عبادة؛ لأنه استشعار للعبودية لله عز وجل، وأن الذين لا يدعون الله كأنهم يستكبرون عن عبادته فسيدخلون جهنم راغمين، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الدعاء عبادة»، وفي حديث آخر: «الدعاء مخ العبادة»، أي إن الدعاء بالنسبة إلى العبادة بأهمية المخ بالنسبة إلى الإنسان.

محذورات ومخترعات في عرفات

وليحذر المسلم في التفريط في هذا اليوم المبارك وإضاعته فيما لا خير فيه مثلما يلاحظ على بعض الحجاج - هداهم الله - من إضاعة أوقاتهم في هذا اليوم بالذهاب إلى جبل عرفة وهو ما يعرف بجبل الرحمة، ومحاولة صعوده، وكذلك الصلاة فيه، فإن كل هذا أمر مبتدع شرعاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا صحبه الكرام سلف هذه الأمة الذين هم أعلم بنبيها صلى الله عليه وسلم، فهذا العمل فيه إهدار للوقت والبدن بما لا خير فيه، بل فيه إثم؛ لمخالفة هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، *فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم*. **النور: ٦٣**، وكذلك ما يفعله بعض الناس وذلك بأخذ صور لهم وهم محرمون بعرفة قريباً من جبل عرفة، ويحملون هذه الصور معهم للذكرى، ويراها أهلوهم وذووهم إذا رجعوا إليهم، فهذا العمل محرم من عدة وجوه:

الأول: أن التصوير محرم إلا ما دعت إليه الحاجة. وهذا أمر لا حاجة إليه.

الثاني: أن هذا العمل وسيلة للرياء، فكأنه يقول لهم انظروا إليَّ فأنا قد حججت وهذه صورتي محرم بعرفة، والرياء كما هو معلوم يحبط العمل، فلابد أن تكون العبادة خالصة لله تعالى: *فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً*. **الكهف: ١١٠**، *ألا لله الدين الخالص*. **الزمر: ٣**.

الثالث: أن المرء شغل نفسه بما لا فائدة فيه، بل فيه إضاعة لوقت هو بأمس الحاجة إلى استثماره في الأعمال الصالحة تعرضاً لنفحات الله تعالى في هذا الموقف العظيم.

من رحمة الله بهذه الأمة وكريم فضله سبحانه أنّ فضْل يوم عرفة وبركته لم يقتصرا على المقيمين بعرفة من الحجاج

وكذا ما يفعله بعضهم يوم عرفة من تكويم التراب في جهات عرفة، أو جمع حجارة في الجبل أو ربط أغصان الشجر، هذه الأمور كلها محرمة لأنها مشغلة للمرء، مذهبة للثواب، فالخير كل الخير في سلوك منهج النبي صلى الله عليه وسلم، والحذر كل الحذر من مخالفته.

كما يجب على كل مسلم حفظ لسانه، في كل وقت وفي هذا اليوم بالذات، من كل فحش أو سب أو غيبة أو نميمة أو قول لا فائدة فيه، وليحرص كل الحرص على المحافظة وضبط نفسه والإلحاح في الدعاء عسى أن يكون من العتقاء

من النار فيفوز فوزا عظيما.

ومن رحمة الله بهذه الأمة وكريم فضله سبحانه أن فضل يوم عرفة وبركته لم يقتصرا على المقيمين بعرفة من الحجاج، بل خيره عام على كل مسلم في جميع أنحاء الأرض جدّ واجتهد في هذا اليوم المبارك، ولكن يمتاز أهل الموقف بأمور يحصلون من خلالها على خير عظيم؛ فصيام يوم عرفة يكفر سنتين: الماضية والباقية، فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم عرفة فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية» رواه مسلم.

كما شرع لهم ما شرع لأهل عرفة من الذكر والدعاء والاستغفار والتعرض لنفحات الله في هذا اليوم العظيم المبارك، وإن لم يكونوا بعرفة، فما أعظمه من يوم وما أكبرها من كرامة لأمة الإسلام ولعباد الله المتقين، فحري بكل مسلم أن يحرص على اغتنام هذه الفرص قبل فوات الأوان، واستغلال هذا اليوم الكريم الاستغلال الأمثل.

ثم يأتي العيد الثاني للإسلام

بعد انتهاء يوم عرفة يصبح المسلمون على بداية أيام التشريق... فيكون النحر... وفي عيد الأضحى تعيش الأمة المسلمة قبله ومعه شعائر عبادة الحج الكريمة ومناسكه المباركة، فإن عبادة الحج هي صياغة عميقة ومؤثرة في الفئة القادرة ذات الاستطاعة في الأمة المسلمة، والقادرون في كل مكان وزمان تتناوشهم سهام الإغراء والإغواء، وفي الحج تبتلى صلابتهم وعزيمتهم ومدى استجابتهم لأوامر ربهم، هذه الاستجابة التي قد تخف في ظل اليسر، والترف، وتوافر الأسباب الحياتية، فإذا عاشوا رحلة الحج بما فيها من دروس متنوعة فسيخرجون منه إلى مستوى آخر من العمل والسلوك، وعلينا أن نتدبر هذه الآية الكريمة: *الحجُّ أشهرٌ معلومات، فمن فرض فيهن الحج*

إنها لحكمة راشدة أن يكون للبشر في ظلال الدين الحق عيدان فقط يرتبطان بالصيام والحج

فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب. **البقرة:١٩٧.**

لذا كان من حكمة الله أن يكون اليوم التالي لهذا الموقف العظيم: موقف عرفة، هو العيد الثاني للإسلام، وملامح هذا العيد ومظاهر البهجة فيه متمثلة في قوله سبحانه: *فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم.* **البقرة:١٩٨.**

إنها لحكمة راشدة أن يكون للبشر في ظلال الدين الحق عيدان فقط يرتبطان بالصيام والحج، إذ نرى تقنيناً للّهو البريء النافع بما يجعله عالم سمو، لا دافع انهيار، بحيث يسمو عما عرفته الجاهلية من أعياد شكلاً ومضموناً.

وإننا عندما نلقي نظرة على شعائر العيد التي استنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة وخطبة وتكبير وتهليل، وصدقة في العيد الأول «عيد الفطر»، وأضحية في العيد الثاني «عيد الأضحى»، وبر سابغ، ندرك أن في هذا اليوم العظيم من أيام الإسلام تتعانق العبادة الخالصة مع السلوك الاجتماعي الحضاري الرفيع، ويحيط بذلك كله جو من السرور والبهجة يحس بهما من صاموا، ومن حالت الأعذار بينهم وبين الصيام، وكذلك من حجوا، ومن قعدت بهم الحاجة عن أداء هذه الفريضة.

حتى إذا انقضى العيد بمناسكه الراضية، وشعائره المؤثرة في بناء المجتمع المسلم تأثيرا هاديا راشدا، فلا يبقى إلا أن تنطلق مسيرة المسلمين على طريق القيم الفاضلة، تستثمر الآثار النبيلة لعبادتي الصيام والحج، لتكون أمة المسلمين على المستوى الذي أراد الله لها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

المراجع والهوامش

١. القرآن الكريم.
٢. صحيح البخاري.
٣. العبادة في الإسلام. الشيخ يوسف القرضاوي.
٤. منهج الإسلام في تزكية النفس. د. أنس أحمد كروان.
٥. الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها والبيت الشريف. ابن ظهيرة المخزومي.
٦. وأذن في الناس بالحج. عقيل بن عبدالرحمن العقيل. الحرس الوطني. ذوالحجة ١٤١٦هـ
٧. تعانق العبادة مع السلوك القويم. د. السيد الطويل. أخبار اليوم. القاهرة.

المرأة المسلمة

في عصر الوحي والتنزيل

باسمة بسام العسلي

بيروت - لبنان

جاء الإسلام ليعلي من مكانة المرأة ابتداءً وإنشاءً قبل أن ترفع صوتها هي للمطالبة بحقها. وتلك صبغة الله في منهجه.

ولقد تجلت مكانة المرأة المسلمة في هذا العصر المبارك، واتضحت معالمها من خلال:

أولاً: التشريعات الربانية المنصوص عليها بالقرآن، وبأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المبيّنة والمفصّلة لما أجمل من نصوص. وهي بمجموعها تنشئ كيان الأسرة على أسس قوية، وأصول عادلة لحقوق كل الأطراف المستظلة بظل الأسرة وواجباتها، كما تصونها من كل ما يهدد أمنها وسلامتها، وتحقق المعالجات الأنجع لسوابق الأعراف والإلف، ومسارب الهوى والظن.

ثانياً: الممارسات العملية على أرض الواقع وهي تمضي في مسارين:

يتمثل الأول بتربية رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة، واحتوائه المطلق لها أماً، وزوجاً، وابنة، ومؤمنة، ومجاهدة، ومبايعة.

ويبرز الثاني في استجابة المرأة المسلمة لتعاليم الوحي، والرسالة، والرسول، وامتثالها لهذه التوجيهات إخلاصاً وتفانياً، وسعيها الدؤوب لأخذ مكانها الصحيح في مراحل بناء الجماعة المسلمة، والدفاع عن مقومات وجودها بما يتكافأ مع ضرورة المؤاخاة وبناء المسجد، ومفهوم المواطنة، وتحقيق الانتماء والولاء لدولة الإسلام، وفقه الحقوق والواجبات والحريات، ومواجهة أعداء الإسلام، ثم ظاهرة النفاق وما مثّله من انشقاقات ضمن الصف الواحد. كل ذلك على مستوى رفيع من الإعداد النفسي والسلوك العملي، شمل المهاجرات والأنصاريات منذ مطلع الوحي حتى إرساء دعائم الدولة الإسلامية الأولى المثلى في نشأتها وغاياتها وممارساتها، وقد ارتفع صرحها على سواعد المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات. وكانت تحركات المرأة فيها جلية سواء في مشاركتها في الحرب والسلم، أو في احتكامها للشرع، أو في أخذها لموقعها ضمن الحياة الاجتماعية.

وهكذا كانت الصحابية النموذج والقدوة والأسوة للمرأة المسلمة في كل زمان ومكان حين بايعت وجاهدت وأعطت وأنفقت ووفدت واستفتت وتحملت وبلغت. إنها النموذج لتطبيق المنهج، والتشخيص للتجاوب مع الوحي، وثمار تربية المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

المرأة المسلمة والبيعة

دخل الأنصار تاريخ الإنسانية المشرف من بابه الواسع حين أعطوا البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة للبعثة شهدها اثنا عشر رجلاً، وسميت بيعة النساء لمشابهة صيغتها صيغة مبايعة النساء التي تمت بعد ذلك في المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، وبعد فتح مكة.

وبيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة للبعثة شهدها من الأنصار ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان هما: نسيبة بنت كعب (أم عمارة) وأسماء بنت عمرو (أم منيع). وفي هذه البيعة كان العهد والميثاق على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعه ممن خالفه. ولقد كان من المكارم التي أهداها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة المسلمة أن شرّفها وأذن لها بحضور هذه البيعة.

قالت أم عمارة: كانت الرجال تصفق على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بيعة العقبة والعباس بن عبدالمطلب آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بقيت أنا وأم منيع نادى زوجي عرفة بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء(١).

لقد جاء حضور المرأة المسلمة هذه البيعة اعترافاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بشخصية المرأة وأهليتها وكيانها المستقل وأحقيتها في تحديد معاقد الولاء، وتقديراً منه لفهمها للأمور، ومتابعتها لمجريات الأحداث.

فإذا أخذنا في الحسبان أن البيعة كانت حاضرة على مستويين:

- ديني: بتحقيق شطر شهادة التوحيد، والتزام طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- سياسي: بتقديم الولاء لرسول الله حاكماً فعلياً لدولة الإسلام الجديدة.

أدركنا أن المرأة قد شاركت في الحياة السياسية وقبل منها ذلك رسول الله، ولم يمنعها قائلاً: قد بايع زوجك فحسبك. أو قد بايع أبوك فامض

لشأنك. لقد حقق رسول الله للمرأة احترام وجودها ورأيها عندما قبل مبايعتها.

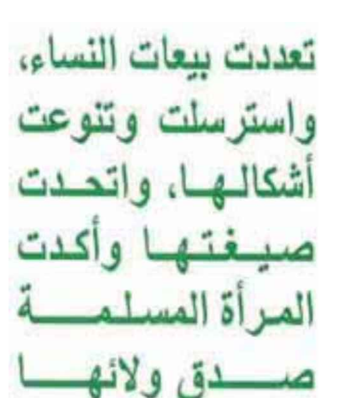
واحترم خصوصيتها عندما جعل مشاركتها تتم في جو مثالي من الطهر والعفة.

حين أبى مصافحتها وهو هو النبي، تجسيداً للشرف والعفة. وبذلك رسم للمرأة شروط مشاركتها في الحياة العامة.

أشياء أخرى نومئ بها إلينا نصوص السيرة، وهي قلة أسماء المشاركات في البيعة بالمقابلة مع أسماء الرجال(٢)، وهذا أمر طبيعي؛ إذ لا يسعنا في هذا المقام إلا الاعتراف بأن متابعة شؤون السياسة والحروب تبقى مستحوذة على اهتمامات الرجال أكثر بكثير من اهتمامات النساء. وإن وجود الشواذ لا يعني انخرام القانون بل العكس تماماً، إنه يعني اطّراد القانون إلا فيما ندر.

وتبقى روعة الإسلام أنه يضع القوانين التي تنسجم مع معظم الطبائع البشرية، وينظم لها جوانب الحياة، ثم يترك هامشاً من الفراغات التي تتسع لبعض الحالات النادرة من النساء والتي ترتبط بقوانين أخرى هي قوانين الإبداع والاصطفاء التي تشمل الإنسان، كل إنسان.

أمر آخر نستقرئه من نصوص السيرة وهو أن اتصال النساء برسول الله بالبيعة لم يتوقف خلال السنوات العشر الأخيرة من دعوته صلى الله عليه وسلم وإقامته دولة الإسلام الفتية. فقد تعددت بيعات النساء، واسترسلت خلال هذه الحقبة الزمنية، وتنوعت أشكالها، واتحدت صيغتها.



فمع هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدمت نساء المدينة ليعلن البيعة لرسول الله. وقد ذكر ابن سعد أن أول من بايع من النساء إطلاقاً:

- أم سعد بن معاذ كبشة بنت رافع بن عبيد - أم عامر الأشهلية.
- أم عامر بنت يزيد بن السكن.
- حواء بنت يزيد بن السكن
- ليلى بنت الخطيم.

روت أم عامر الأشهلية فقالت: جئت أنا وليلى بنت الخطيم وحواء بنت يزيد بن السكن فدخلنا عليه ونحن متلفعات بمروطنا بين المغرب والعشاء فسلمت، ونسبني فانتسبت، ونسب صاحبتي فانتسبتا، فرحب بنا، ثم قال: ما حاجتكن؟ فقلن: يا رسول الله جئنا نبايعك على الإسلام، فإنا قد صدقنا بك، وشهدنا أن ما جئت به الحق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداكن للإسلام، ثم قال: قد بايعتكن(٣).

وكثرت المبايعات في المدينة حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة يريد أداء العمرة فمنعته قريش، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى البيعة، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت. وكان جابر بن عبدالله يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت، ولكنه بايعنا على ألا نفر(٤).

ولم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من المسلمين إلا الجد بن قيس، فكأن جابر بن عبدالله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته. قد ضبأ إليها(٥) يستتر بها من الناس(٦).

أما الحضور النسائي فقد واكب هذا اللقاء المشهود من الله تعالى وملائكته الكرام حتى نزل الرضا على الحضور. وسجلت لنا كتب التراجم أسماء من حضرن بيعة الرضوان ومنهن: قريبة بنت معوذ الأنصارية النجارية(٧)، ونسيبة بنت كعب(٨)، وأسماء بنت عمرو(٩)، وسلمى بنت قيس(١٠).

لقد كانت بيعة هؤلاء النسوة، في ظل الظروف القائمة المهيأة للحرب مع المشركين في عقر دارهم مكة، جائزة شرف أضافها رسول الله إلى المرأة وهي تمضي معه تعضد قوة الإيمان بقوة الالتزام، وتجند نفسها للدفاع عن الدعوة ونصرة النبي ومن أسلم من المؤمنين كافة.

في هذه الأثناء، وبينما كانت قريش تسعى إلى الهدنة وإقرار صلح الحديبية، استقر الأمر بقرشيات مسلمات إلى وجوب الالتحاق بركب المسلمين، والهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والانضمام إلى دار الإسلام.

فأرسلت قريش رسلها تطلب ردهن التزاماً بأحد بنود الصلح: «على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم»(١١).

فنزلت الآيتان العاشرة والحادية عشرة من سورة الممتحنة لمنع رد المهاجرات إلى الكفار ووجوب إجراء امتحان على المهاجرات لتحري أسباب الهجرة.

قال ابن عباس: كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله(١٢).

إنها تمحيص نيات، وفرز مواقف، وتجلية معاني الإخلاص في عقيدة التوحيد، وإرساء شروط الانضمام إلى قافلة المجاهدين.

ونستقرئ أسماء من حملهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسؤولية الامتحان فنجد: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط(١٣)، وسبيعة الأسلمية(١٤)، وأميمة بنت بشر(١٥)، وسعيدة - وهي غير منسوبة -(١٦) زوجة أبي صيفي الراهب، كانت من الأنصار، وكان أبو صيفي خرج من المدينة مغاضباً لأهلها لما دخلوا الإسلام، فأقام بمكة حيناً فخرجت زوجه سعيدة مهاجرة إلى المدينة أيام الهدنة.

هكذا مضت المرأة المسلمة بين البيعة والامتحان تؤكد صدق ولائها ووفائها بتكاليف الإيمان، وكان آخر لقاء لها مبارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة النساء يوم فتح مكة وسجلت كتب التراجم واحدة من أشهر قصص البيعة، تلك هي بيعة ابنتي عتبة بن ربيعة، فاطمة وهند.

أما أشكال البيعة فقد أثبتت النصوص أنها كانت تقع أحياناً مع مجموع المبايعين من الرجال، كما تقع مبايعتهن في جماعات من النساء، وقد يحدث أن تبايع المرأة بمفردها.

فهذه أم عمارة، نسيبة بنت كعب، وأم منيع، أسماء بنت عمرو، تبايعان بيعة العقبة الثانية ضمن مجموع المبايعين من الرجال.

وهذه أم سلمة، وأميمة بنت رقيقة، وأسماء بنت يزيد، وعميرة بنت مسعود، وخليدة بنت قعنب، وأم عامر الأشهلية يبايعن في نسوة.

قالت أميمة بنت رقيقة: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه»(١٧).

أما اللاتي بايعن منفردات فكثيرات منهن "سوداء بنت عامر(١٨).

أما صيغة البيعة فقد كان أساسها صريح الآية القرآنية: *يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم.* **الممتحنة:١٢.**

فكانت شروط البيعة: عدم الشرك بالله، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الأولاد، والإمساك عن الإتيان ببهتان، وعدم معصية الرسول.

وهذه شروط أساسية لصياغة المسلم الجديد من خلال: إرساء عقيدة التوحيد، والاستتابة من المعاصي كافة.

وأمر العقيدة أمر خطير يتقدم كل أمر سواء في إصلاح الفرد. وما عداه يأتي بعده. لذلك جاء عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عملاً متصلاً لتثبيت مقتضيات: لا إله إلا الله، حتى إذا تمكنت في النفوس جاءت تفاصيل المقتضيات المترتبة على عقيدة لا إله إلا الله: من توجيهات اجتماعية خلقية (عدم الزنا، عدم قتل الأولاد، عدم الإتيان ببهتان)، وتوجيهات اجتماعية نفسية (في مواجهة الكبر المانع من طاعة رسول الله)، وتوجيهات اجتماعية اقتصادية (عدم السرقة).

من شروط البيعة: عدم الشرك، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الأولاد، وعدم معصية الرسول

ولقد أخذ رسول الله المواثيق لمقتضيات «لا إله إلا الله» لمواجهة انحرافات قائمة بدليل أن صيغة بنود البيعة ابتدأت بـ «لا» (لا تسرقن، لا تزنين، لا تقتلن أولادكن..).

ولقد تجاوبت الصحابية الجليلة مع بنود هذه البيعة بجميع أبعادها، ففقهت ألفاظ النص ودلالاته.

فإذا كان مفهوم السرقة يتناول: « أخذ مكلف نصاباً من المال، خفية عمن هو متصد للحفظ، مما لا يتسارع إليه الفساد من المال المتمول للغير من حرز بلا شبهة»(١٩) فقد اتسع هذا المفهوم لدى الصحابية ليشمل سرقة العقول، وسرقة القلوب، وسرقة الأعراض، وسرقة الأوقات، وسرقة الاهتمامات.

وإذا كان مفهوم الزنا يتناول: «وطء الرجل المرأة القبل في غير الملك وشبهه»(٢٠) فقد اتسع ليشمل في حس الصحابية زنا الجوارح والمشاعر والخواطر.

وإذا كان مفهوم القتل يتناول: «فعلاً من العباد تزول به الحياة»(٢١) فهو يتواصل ليشمل إزهاق فطرة الأولاد السوية وأخلاقهم وأعراضهم ومشاعرهم الطيبة وأفراحهم وقلوبهم وأرواحهم.

والبهتان مجالاته واسعة، ولا علاج له إلا بتنقية باطن النفس وتزكيتها.

وأما عدم معصية الرسول فهو الأس الثاني للانضباط بشرعة الله من جهة، وللانضباط والانتظام ضمن المجتمع المسلم الجديد وهو يعلي بنيانه لبنة لبنة.

تلك بنود البيعة المنصوص عليها بالقرآن والأحاديث الكثيرة الموقوفة على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. على أننا وجدنا أحاديث أخرى صرحت بأن رسول الله شرط على النساء أموراً فرعية تبعية، منها:

- عدم النواح وشق الجيوب وخمش الوجوه.
- عدم الحديث مع الرجال في خلوة إلا محرماً.
- عدم الغش للأزواج.

قالت أم عطية الأنصارية: كان فيما اشترط علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعروف حين بايعناه ألا ننوح. فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني فلا حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها وغير أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك(٢٢).

وعن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نعصيه في معروف ألا نخمش وجهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً، ولا ندعو ويلاً»(٢٣).

وعن سلمى بنت قيس ـ وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وقد صلت معه القبلتين، قالت: جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف قال: «ولا تغششن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما غش أزواجنا؟ قال، فسألته، فقال: تأخذ ماله فتحابي به غيره»(٢٤).

وإذا بقي هناك ما يستوقفنا بشأن بيعة النساء فهو اكتشاف مظاهر القوة في شخصية الصحابيات الجليلات وهن يسألن نبيهن عن بعض البنود التي أشكل فهمها عليهن، يتتبعن تأويلها ابتغاء فهم الحكم الشرعي منها، ليكون إقرار المرأة بها إقرارا واعيا يربط الفقه السديد بالالتزام الرشيد.

روي أنه لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء، قامت إليه امرأة ـ كأنها من نساء مضر ـ فقالت: يا رسول الله، إنا كل على آبائنا وأزواجنا وأبنائنا فما يحل لنا من أموالهم؟ قال: الرطب تأكلنه وتهدينه(٢٥).

ثم إن حوار الصحابية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلي أيضا سمات تلك المرأة وهي تعبر عن مشاعرها، وتعترف بهناتها وأخطائها، وتطالب بحاجاتها بكل جرأة وصراحة، ويبتسم لها رسول الله ابتسامة الرضا. فما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرعى قطيعا من الغنم، بل جاء ليبني أمة عزيزة الجانب، ولا تكون الأمة كذلك إلا حين يفقه

رجالها وتسوُدها معنى العزة في النفس، والصدق في اللسان، والوفاء في العهود.

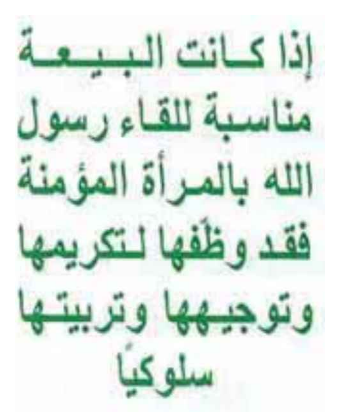
ويحضرنا مشهد بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء يوم فتح مكة إذ أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: قل لهن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً. قالت هند بنت عتبة وهي متنكرة: كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال؟ فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعمر: قل لهن: ولا يسرقن. قالت هند: والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات ما أدري أيحلهن لي أم لا. قال أبو سفيان: ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها، فقال: ولا يزنين فقالت: يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة؟، قال: لا والله، ما تزني الحرة قال: ولا يقتلن أولادهن، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر(٢٦) وفي رواية: ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى(٢٧) هكذا كان الإسلام سباقاً - كشأنه كله - حين جعل البيعة ضرورة لبناء الفرد المسلم وصياغته مع تعميق معاني الحرية والإيجابية فيه، وضرورة لصياغة الأمة وفق معاني التضامن والتكافل، وضرورة لبناء الدولة وفق تلاحم القمة بالقاعدة. وبذا اتضحت شخصية المبايعة كشخصية مجاهدة ملتزمة منضبطة صادقة وفية.

تربية الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة واحتواؤه المطلق لها

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة للناس جميعاً، فلم يكن ليكتفي بدعوة الرجال ابتغاء النصرة، بل كان لا يألو جهداً في إنقاذ العباد من النار، رجالاً كانوا أم نساء، فليست القضية قضية انتصار نبي، بل هي تبليغ دعوة، وانتصار المدعو على جهله وشركه وهواه، فمن أمثلة دعوته الفردية للمرأة خاصة ما ذكرته السيدة رقية الجمحية ثم الثقفية قالت: لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم يبتغي النصر بالطائف دخل عليَّ، فأخرجت له شراباً من سويق. فقال: يا رقية لا تعبدي طاغيتهم ولا تصلِّين إليها. قالت: إذن يقتلوني. قال: فإذا قالوا لك. فقولي: ربي رب هذه الطاغية، فإذا صليت فوليها ظهرك ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي. قالت بنت رقية: فأخبرني أخواي سفيان ووهب ابنا قيس بن أبان. قالا: لما أسلمت ثقيف خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما فعلت أمكما؟ قلنا: هلكت على الحال التي تركتها. قال: لقد أسلمت أمكما.

أسلمت حين خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف بعد موت أبي طالب وخديجة(٢٨).

ويتابع رسول الله أحوال المسلمات المنضمات إلى الدعوة حديثاً، ويسعى ليخفف عنهن عناء تلك النقلة الرهيبة من الجاهلية إلى الإسلام، سواء على صعيدهن الذاتي، أو على صعيد الأهل والعشيرة من حولهن. وإن العجب ليأخذ المسلم كل مأخذ وهو يرى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر في حادثة جرت في المدينة، بينما كانت إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة؛ وذلك قبل هجرته. فمما يروى أن حواء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها كانت عند قيس بن الخطيم بالمدينة، وكانت أمها عقرب بنت معاذ - أخت سعد بن معاذ - فأسلمت حواء، فحسن إسلامها، وبقي زوجها قيس على كفره، فكان يدخل عليها وهي تصلي فيؤذيها، وكان لا يخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به، فقدم قيس مكة في رهط من مشركي قومه، فبينما هم في ذي المجاز إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنه، فدل عليه فأتاه، فدعاه إلى الإسلام وحرص عليه، فقال قيس: ما أحسن ما تدعو إليه! وإن الذي تدعو إليه لحسن، ولكن الحرب شغلتني عن هذا الحديث، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلح عليه ويكنيه ويقول: يا أبا يزيد أدعوك إلى الله. ويرد عليه قيس كلامه الأول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا يزيد إن صاحبتك حواء قد بلغني أنك تسيء صحبتها مذ فارقت دينك، فاتق الله، واحفظني فيها ولا تعرض لها. قال: نعم، وكرامة، أفعل ما أحببت، لا أعرض لها إلا بخير. فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته، وقال: فشأنك بدينك، فوالله ما رأيته إلا حسن الوجه حسن الهيئة(٢٩).



وإذا كانت البيعة مناسبة للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرأة المؤمنة فقد وظفها رسول الله لتكريم المرأة ولتوجيهها وتربيتها سلوكياً.

فمن أمثلة تكريم المبايعة ما رونه عميرة بنت مسعود الأنصارية من أنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وأخواتها - وهن خمس - يبايعنه فوجدنه يأكل قديداً فناولهن منه(٣٠). وإذا كانت المبايعة صغيرة عاملها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مشاعر الأبوة الحانية. روت بهية بنت عبدالله البكرية أنها وفدت مع أبيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت: فنظر إليّ فدعاني ومسح برأسي ودعا لي(٣١). ومن أمثلة التربية السلوكية توجيهه لحجب الزينة، وإبداء الخضاب. روت خليدة بنت قعنب أنها كانت في النسوة اللاتي أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه فأتته امرأة في يدها سوار من ذهب فأبى أن يبايعها، فخرجت من الزحام فرمت بالسوار ثم جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعها(٣٢).

كما روي عن السوداء، قالت: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه، فقال: انطلقي فاختضبي ثم تعالي أبايعك، فاختضبت ثم جئت فبايعته(٣٣).

ونعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تقديره المرهف لأحاسيس المرأة، ومثال ذلك ما رونه امرأة من غفار قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار قلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله. قالت: فخرجنا معه، وكنت جارية حدثة، فأردفني رسول الله صلى الله عليه

وسلم على حقيبة رحله. قالت: فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح وأناخ، ونزلت عن حقيبة رحله، وإذا بها دم مني، وكانت أول حيضة حضتها قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ورأى الدم قال: مالك؟ لعلك نفست، قلت: نعم. قال: فأصلحي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً، ثم اغسلي به ما أصاب الحقيبة من الدم ثم عودي لمركبك. قالت: فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها، وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً(٣٤). ونعجب من كياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودماثته وكمال خلقه ورقة إحساسه، فهذه فتاة تحيض أول حيضة لها، وفي ذلك ما فيه لخفر العذارى إذ ينكشف أمرها أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الأمة، وهي تعلم قطعاً أن الحيض نجاسة قد أصابت بها رحل رسول الله وحقيبته. فكيف عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر؟ لم يتشنج عليه الصلاة والسلام مع ما في سمته من شدة طهارة ونظافة، ولم يفزع الفتاة أو يؤنبها، بل أشعرها أن الأمر طبيعي فقال: لعلك نفست، ثم دلها على كيفية الطهارة. فكان المربي الحاذق في تعامله مع النفس الإنسانية ومشاعرها، وكان المعلم الفقيه، الذي سرعان ما أهدى لها عقداً، وألبسها إياه بنفسه.

أي لطف وأي حنان! أي عظمة للنبي صلى الله عليه وسلم! أي كمال للإنسان!.

ومناسبات الفرح والحزن لها خصوصيتها الوجدانية عند المرأة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشاركها كل ذلك.

ففي الفرح: حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم عرس الرُّبيِّع بنت معوذ النجارية زوجة إياس بن البكير. حدثت الربيع فقالت: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علي غداة بني بي فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهن(٣٥).

وفي الحزن: تروي أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دبغت أربعين منيئة، وعجنت عجيني وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم. قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتيني ببني جعفر. قالت: فأتيته بهم فتشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يارسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم. قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إلي النساء، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله، فقال: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم(٣٦).

وفي رواية أخرى قالت أسماء: فقمت أصيح، واجتمع إلي النساء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا أسماء! لا تقولي هجراً، ولا تضربي صدراً(٣٧).

وبعد أيام ثلاثة يروي عبدالله بن جعفر فيقول رضي الله عنه: ثم جاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تفرح له، فقال: العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة(٣٨).

ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الوفاء فقد كان لا يألوا جهداً في الإحسان إلى المرأة.

- فها هي ذي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية يرثها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمه حتى إذا كبر وتزوج خديجة أعتقها، وكان يقول لها: يا أمة. وكان إذا نظر إليها قال: هذه بقية أهل بيتي(٣٩).

ويفكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرها مليّاً، إنه يريد لها مزيد الكرم، يريد أن ينكحها كيما تطمئن على حاضرها ومستقبلها فيقول: من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن. وهو يعلم يقيناً أن هذا الإذن سيوافق القبول لدى أحد المسلمين المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم بأمرها. وفعلاً تقدم زيد بن حارثة فتزوجها، وولدت له أسامة.

- وقد تطلق المسلمة في مجتمع المدينة فيحرص رسول الله على تزويجها، ويرغب فيها، فزينب بنت حنظلة كانت تحت أسامة بن زيد بن حارثة فطلقها، فلما حلت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يتزوج زينب بنت حنظلة وأنا صهره. فتزوجها نعيم ابن عبدالله بن النحام(٤٠).

بهذا وذاك، وغيره كثير شعر المسلمون يقيناً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كفيلهم ووكيلهم وضامنهم، والساعي لمصلحتهم الدنيوية والأخروية، حتى إذا حضر أحدهم الموت، وكان عنده بنات صغار، أوصى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما فعل أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي ترك ابنته زينب وأختين لها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يحليهن الرعاث من الذهب(٤١).

> تجاوب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحاسيس المرأة ومشاعرها في قبولها للرجل أو رفضها خطيباً كان أم زوجاً

ويتجاوب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحاسيس المرأة ومشاعرها في قبولها للرجل أو رفضها خطيباً كان أم زوجاً، ويرد الأمر إليها، والأمثلة كثيرة من بعضها:

- قصة خنساء بنت خذام الأنصارية، وكان أبوها قد زوجها رجلاً من بني عمرو بن عوف، وخطبت إلى أبي لبابة بن عبدالمنذر، فارتفع شأنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر رسول الله أباها أن يلحقها بهواها، فتزوجت أبا لبابة(٤٢).

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، عندنا يتيمة قد خطبها رجلان موسر ومعسر، هي تهوى المعسر، ونحن نهوى الموسر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم ير للمتحابين مثل النكاح(٤٣).

ونعجب من النسوة اللاتي اختلعن من ثابت بن قيس بن شماس لدمامته وأجابهن إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن: حبيبة بنت سهل(٤٤)، وجميلة بنت أبي الخزرجية أخت عبدالله بن أبي بن سلول(٤٥)، ومريم المغالية(٤٦).

ونعجب من جرأة المرأة، وهي تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة خاصة جداً. فمن ذلك ما روى الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاقي، فتزوجني عبدالرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدبة الثوب(٤٧)، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك(٤٨).

وذكر السيوطي في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في امرأة رفاعة هذه واسمها عائشة بنت عبدالرحمن بن عتيك، ورفاعة بن وهب بن عتيك ابن عمها. وساق الحديث من رواية ابن المنذر عن مقاتل بن حيان وفيه أنها قالت: إنه طلقني - أي عبدالرحمن زوجها الثاني - قبل أن يمسني أفأرجع إلى الأول؟ قال: لا حتى يمس(٤٩). وبعد إن القضية ليست خاصة، إنها تتعلق بأحكام الله أمراً ونهياً. وتبقى وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم التربية والتعليم والتوجيه والتزكية.

ونقرأ عن المرأة الخثعمية التي سألت رسول الله عن حق الزوج على الزوجة، فلما استثقلته اختارت لنفسها أن تبقى أيما حرة، فلم يأمرها رسول الله، ولم ينهها.

أما نص الحديث فهو: إن امرأة من خثعم أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، أخبرني ما حق الزوج على الزوجة، فإني امرأة أيم، فإن استطعت وإلا جلست أيماً؟ قال: فإن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها، وهي على ظهر قتب ألا تمنعه، وألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولا تقبل منها، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب، قالت: لا جرم، لا أتزوج أبداً(٥٠).

كما قد يكون امتناع المرأة عن الزواج بسبب أثر حسن الألفة والمودة في نفس الزوجة، فقد كانت رباب زوجة لرجل يقال له عمرو فتعاهدا أيهما مات قبل الآخر لا يتزوج الذي يبقى حتى يموت، فمات، فأقامت مدة فزوجها أبوها فرأت في تلك الليلة عمراً أنشدها أبياتاً فأصبحت مذعورة، وقصت على النبي صلى الله عليه وسلم القصة، فأمرها أن تستأنس بالوحدة حتى تموت، وأمر زوجها بفراقها ففعل ذلك(٥١).

ثم إن المرأة تملك أن تعاتب وتطالب وتشكو فقد جاءت سلامة حاضنة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء. قال: أصويحباتك دسسنك لهذا؟ قالت: أجل هن أمرنني. قال: ألا ترضى إحداكن أنها إذا كانت حاملاً من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله عز وجل، وإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفي لها من قرة أعين(٥٢).

بهذا وذاك، احتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة احتواء الأب والداعية، وأنشأها إنشاء آخر. نفخ فيها روح الإيمان فأحياها وأحيا بها.

وتبقى ممارسات النبي صلى الله عليه وسلم النموذج والقدوة للدعاة إلى الله البانين صرح أمتنا ومجدديها.

المراجع والهوامش

١. طبقات ابن سعد ٨/١٠. تزوج أم عمارة بنت كعب في الجاهلية زيد بن عاصم المازني فولدت له عبدالله وحبيبا، ثم خلف عليها غزية بن عمرو المازني، وبين غزية وعرفة تصحيف. انظر ابن سعد. الطبقات. ٨/٤١٢.
٢. عد ابن سعد في الجزء الثامن من طبقاته الخاص بطبقات النساء أسماء النساء المبايعات وقد وصلن إلى أربعمئة وتسع وثمانين مبايعة. وذكر ابن حبيب في المحبر ثلاثمئة واحدى وستين صحابية مبايعة. أما ما ذكره ابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في الإصابة فيفوق ما ذكره ابن سعد وابن حبيب في العدد.
٣. ابن سعد. الطبقات. ٨/٢٢.
٤. ابن هشام. السيرة. ٣/٣٠.
٥. ضب. ضبيا، وضبوءا: لصق بالأرض واختبأ. ضبأ إليه: لجأ فهو ضابئ وضبي. المعجم الوسيط مادة: ضبأ.
٦. ابن هشام. السيرة ٣/٣٠.
٧. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٤٥١-٤٥٢. ابن حجر. الإصابة ٨/٧٣. رقم ٤١٣.
٨. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٥٥٥. ابن كثير. البداية والنهاية. ٣/١٥٨، ١٦٦. ابن حجر. الإصابة. ٨/١٩٨، ١٩٩. رقم ١٠٥٩.
٩. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٣٩٥. ابن كثير. البداية والنهاية. ٣/١٥٨، ١٦٦. ابن حجر. ٨/٨. رقم ٤٨ و٤٩.
١٠. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٤٧٩-٤٨٠. ابن حجر. الإصابة. ٨/١١١. رقم ٥٠٤.
١١. ابن هشام السيرة. ٣/٣٣٢.
١٢. رواه ابن جرير والبزار عن ابن عباس.
١٣. ابن هشام. السيرة النبوية. ٣/٢٤٠.
١٤. ابن سعد. الطبقات الكبرى. ٨/٢٨٧-٢٨٨. ابن حجر. الإصابة. ٨/١٠٤ رقم ٥٧١.
١٥. ابن الأثير. أسد الغابة ٥/٤٠٢. ابن حجر. الإصابة. ٨/١٢ رقم ٨٩.
١٦. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٤٧٥. ابن حجر. الإصابة. ٨/١٠٧-١٠٨. رقم ٥٤١.
١٧. أخرجه أحمد والترمذي والنسائي عن أمية بنت رقيقة. وذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى. ٨/٥-٦. وابن الأثير في أسد الغابة. ٥/٤٠٣.
١٨. ابن الأثير. أسد الغابة ٥/٤٧٤. ابن حجر. الإصابة ٨/١١٧. رقم ٦٠١.
١٩. النجمي الكردي. المدخل الفقهي. ٢٠.
٢٠. الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته. ٦/٣٦.
٢١. الزحيلي. م.س. ٦/٣١٧.
٢٢. أخرجه ابن جرير عن أم عطية الأنصارية ورواه البخاري بنحوه.
٢٣. أخرجه ابن أبي حاتم.
٢٤. أخرجه الإمام أحمد، وابن سعد. الطبقات الكبرى ٨/٩، ١٠.
٢٥، ٢٦. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن كثير. في بعضه نكارة وهو أثر غريب.
٢٧. رواه ابن أبي حاتم.
٢٨. ابن الأثير. أسد الغابة ٥/٤٥٤. ابن حجر. الإصابة. ٨/١٥٠ رقم ٧٢٤.
٢٩. طبقات ابن سعد. ٨/٣٢٣. دلائل النبوة للبيهقي. ٢/٤٥٥.
٣٠. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٥١٢-٥١٣.
٣١. ابن حجر. الإصابة. ٨/٣١ رقم ١٩١.
٣٢. ابن الأثير. م.س. ٥/٤٤٠.
٣٣. ابن سعد. الطبقات. ٨/١١.
٣٤. ابن هشام. السيرة النبوية. ٣/٢٥٧.
٣٥. رواه البخاري.
٣٦. ابن هشام. السيرة النبوية. ٤/٣٢ والمنيئة: الجلد أول ما يدبغ: (منأ). المعجم الوسيط. ٢/٩٢٣.
٣٧. الزايد. مختصر الجامع. ٢/١٨٨ نقلا عن ابن سعد. الطبقات ٤/٣٩ و٨/٢٨٢. ودلائل البيهقي ٤/٣٦٦. ومجمع الزوائد ٩/٣٦٣. وقوله: «لا تقولي هجرا» أي فحشا».
٣٨. الزايد. م.س. ٢/١٨٩ نقلا عن مسند أحمد ١/٢٠٤. ودلائل البيهقي. ٤/٣٧٦ ومعنى ألفاظ الحديث: تفرج له: من أفرجه: إذا غمه وأزال عنه الفرح، والعيلة: الفاقة والفقر والحاجة. المعجم الوسيط (عيل). ٢/٦٦٤.
٣٩. ابن سعد. الطبقات. ٨/٢٣٣.
٤٠. ابن الأثير. أسد الغابة ٥/٤٦٦. ابن حجر. الإصابة ٨/٩٤. رقم ٤٧٥.
٤١. ابن الأثير. م.س ٥/٤٦٢ و٥/٤٧١. الرعثات: الحلي من ذهب ولؤلؤ.
٤٢. ابن الأثير. م.س ٥/٤٤٠-٤٤١. ابن حجر. م.س ٨/٦٥ رقم ٣٥١.
٤٣. رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح.
٤٤. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٤٢٣. ابن حجر. الإصابة. ٨/٤٩ رقم ٢٧٤.
٤٥. ابن الأثير. م.س. ٥/٤١٦-٤١٢. ابن حجر. م.س. ٨/٣٩-٤٠ رقم ٢٢٩.
٤٦. ابن الأثير. م.س. ٥/٥٤٥. ابن حجر. م.س. ٨/٨٨ رقم ٤٩١.
٤٧. كناية عن تفرغه للعبادة وانصرافه عن شؤون النساء والجماع.
٤٨. كناية عن أقل ما يكون من تغشي الرجل للمرأة.
٤٩. محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ٢/٣٩٢.
٥٠. رواه البزار عن ابن عباس. وفيه حسين بن قيس المعروف بحنش، وهو ضعيف. وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله ثقات.
٥١. ابن حجر. الإصابة. ٨/٧٩ رقم ٤٠٨.
٥٢. ابن الأثير. أسد الغابة. ٥/٤٦٢.

الناس والزمان

عبدالعزيز الخويطر
الرياض ـ السعودية

كلٌ يتكلم عن الزمان، وفعله بالإنسان، فبعضهم يشكوه، ويلومه، ويحمّله أخطاءً لم يرتكبها، ويحاسبه على أمور لم يفعلها، وبعضهم ينصفه، ويعطيه حقه، ويصرف اللوم إلى من يستحقه، مبرئًا الزمان، ومظهرا أنه موكل، ودوره أن يبقى ثابتًا، يمر به الناس، وهو لا يتغير، والذي يتغير هم الناس، هم الذين يكيفون سيرهم، وهم الذين يحددون مرورهم، وهم الذين يحسنون وقت هذا المرور، أو يسيئون، ومن غير العدل لوم من لا طريق إلى ملامته، ومحاسبة من لم يخطئ.

والحديث عن الزمان، ومروره، ولوم الناس له، أو إعذارهم إياه، لا بد أنه بدأ قديما مع الإنسان منذ أن بدأ يعقل، ويدرك، ويفكر، ويتبصر، ويتدبر، فهناك أقوال قديمة، سجلت منذ أزمان لفلاسفة الإغريق عن الزمن وتغيره.

والناس يختلفون في نظرتهم إلى الزمان، فللفلاسفة نظرة، ولأصحاب المهن نظرة، وللعلماء في الحقول المختلفة نظرة، وللشعراء والأدباء نظرة؛ ونظرة الشعراء نظرة مسبوكة في ثياب قشيبة، فيها من الجاذبية ما يجعل ما يقولون مقبولا، لصياغته الطريفة، ولفظه الزاهي، وأسلوبه السلس، وطريقته المقنعة؛ ولخياله المجنح، مما يجعله مقبولا مهما كان غريبا، أو مغالى فيه، أو بعيدا عن الواقع، فالشعر يقبل لهذه الشفاعات المتعددة، بل ويردد، ويغنى، ويتمثل به، ويهدى إهداء للأسماع، ويقدم هبة نادرة، وعطية ثمينة للعقول، وللأذواق.

والشعراء أهل خيال جامح، يعطيهم المقدرة على إلباس الجسم العاري ثيابا فضفاضة زاهية، لا يعرف الإنسان من أي مادة سوف يفصلونها، ورضاهم، أو سخطهم، له دخل كبير في اختيار هذه المادة، وصياغتها بقالب مدهش، ومعجب؛ فالليالي، قد تبدو لهم أنثى، تحمل وتلد، وغيرهم لا يأتي في ذهنه إلا أن الليالي هي الوقت المظلم من اليوم الكامل، والليالي هي نصفه، والنهار نصفه الثاني، أما هم فلا ينزلون من أبراجهم العالية، ولا يقبلون أن يكونوا مع الناس في قارب واحد، ولا يرضيهم إلا الخيال الجامح، يحلقون إلى النجوم، يتجولون بينها، فيخرجون الليل عن طبيعته، ويلبسونه ثوب غيره، دون استئذان من صاحب الثوب، ودون أخذ رأي الناظر إلى هذا الثوب.

يقول أحدهم:

إن الليالي حبالى
يلدن كل عجيبه

وقد يأتي هذا الشعر من ابن البادية، أو من ابن الحاضرة، فالحمل والولادة، في كل بيئة، ويشترك فيه الإنسان، والحيوان، والطير، وخشاش الأرض؛ أما الصورة الآتية، فلعل الشاعر فيها صحراوي، أو أنه قد استعار صوره من البادية، وخلط فيما جاء به الحقيقة مع الخيال، فجاء الخيال زاهيا بالفلسفة القريبة التناول، دون تعقيد أو تكليف:

إن الليالي للأنام مناهل
تطوى وتبسط بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار

لقد أعجب هذا الشعر الثعالبي، الأديب، الاريب، المعروف بعلمه وذوقه، وعده من أحسن ما سمع، وحق له أن يعده كذلك، إذ نحن أيضا نعده من أحسن ما مر بنا، للصورة الصادقة الجميلة التي جاء بها هذان البيتان، والقول الزاهي الذي عبر به عنها؛ فالليالي حياض ماء تردها الأعمار، وقد يكون المورد بعيدا، وقد يكون قريبا، وقد يكون الوصول إليه سهلا، وقد يكون صعبا، وقد يكون جذابا، وقد يكون منفرا، والذي يحدد هذا ويحكمه هو ما تتصف به الليلة، فإن كانت ليلة سليم، سرى في جسمه سم حية رقطاء، فالليلة طويلة، بطيئة ثقيلة، وإن كانت ليلة عرس، فهي قصيرة، يمر وقتها مر السحاب، وتمضي هي بسرعة البرق، ولا أحد يجادل في هذا، ولا يماري فيه، فليالي الانتظار لكل الناس طويلة، وليالي الوجد واللقيا قصيرة؛ وقول الإنسان المت[illegible]: ليالي الحزن طويلة، وليالي الفرح قصيرة، قول ساذج، لا جاذبية فيه، لخلوه من التزويق.

من البيان النبوي

جاسر أبو صفية
عمان - الأردن

بلغ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، وإدراك أسرار العربية، وكأن البيان العربي قد مخضه الله تعالى، وألقى زبدته على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إذ كان لا يباريه خطيب، ولا يقرن منطقه بمنطق، ولهذا قال: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

وصدق الله العظيم حين وصف منطق نبيه فقال: *وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى*. **النجم: ٣ - ٤.**

فمن صور البيان النبوي قوله صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر، ولا ريح لها».

يرسم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث صورتين للمؤمن، وصورتين للمنافق. وهذه الصور متعلقة بالقرآن الكريم في حال قراءته أو عدم قراءته.

فقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة، وهي ثمرة تمتاز بطيب طعمها ورائحتها، تشبه بها النساء. قال علقمة الفحل يصف امرأة بالأترجة، وقد تطيبت بالزعفران، فاصفر لونها وطابت رائحتها:


قراءة القرآن وطيب الرائحة والطعم

يحملن أترجة، نضخ العبير بها
كأن تطيابها في الأنف مشموم

صور المؤمن

فصورة المؤمن الذي يقرأ القرآن هنا هي الجمال في أبهى حالاته؛ لأن المؤمن الذي يترسخ الإيمان في قلبه تظهر حلاوة الإيمان على جوارحه، فيستفيد منها كل من حوله؛ فهو يمثل الإيمان في أعمق صوره كما تمثل الأترجة قمة اللذة في الطعم والرائحة؛ فهي قد جمعت بين جمال الشكل وجمال الباطن.

والمؤمن الذي يقرأ القرآن قراءة واعية تعبدية ظاهره طيب وباطنه طيب ولا تناقض بينهما.

وطيب هذا المؤمن يظهر في سلوكه وطبعه وعفة لسانه؛ لأنه متأدب بأدب القرآن مأدبة الله كما قال ابن مسعود رضي الله عنه، قال: اقرؤوا القرآن؛ فإن الله تعالى لا يعذب قلبا وعى القرآن. وإن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الذي ليس في قلبه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فقد شبهه رسول الله بالتمرة. ومعروف أن التمرة طيبة الطعم، ولكن ليس لها رائحة تدعو الآخرين إلى الإقبال عليها. وهي صورة ناقصة للمؤمن وللتمرة؛ إذ لا يكتمل جمال المؤمن إلا بجمال الباطن والظاهر، وكذلك لا يكتمل جمال الطعم إلا بطيب الرائحة.

فالمؤمن الذي لا يقرأ القرآن لا تفوح منه رائحة الإيمان الطيبة المتمثلة بسلوكه ومواقفه التي تعبر عن إيمانه الصادق بالله سبحانه

وتعالى؛ فهو يخفي إيمانه في قلبه كما تخفي التمرة لذة طعمها، فلا نعرف إلا بتذوقها، أي باختبارها، فالشكل هنا لا يظهر حقيقة الشيء وجوهره.

ونلاحظ الفارق في هاتين الصورتين بين حالي المؤمن عند قراءة القرآن، وعند عدم قراءته فالمضمون عند قارئ القرآن وغير القارئ متماثل، وهما متساويان فيه، فكلاهما يأخذ قيمة موجبة. ولكنهما يختلفان في الشكل، أي الظاهر؛ إذ يبدو المؤمن الذي يقرأ القرآن بصورة إيجابية، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فيبدو بصورة سلبية لا يدل مظهره على مخبره.

صورتا المنافق

وللمنافق في هذا الحديث صورتان: صورة المنافق الذي يقرأ القرآن، وصورة المنافق الذي لا يقرأ القرآن؛ فالمنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة التي تفوح رائحتها الطيبة كلما تحركت أو هبت عليها الريح. ولكن الإنسان إذا تذوقها، لا يسيغ طعمها لشدة مرارتها، فهي ذات مظهر خادع، تخدع الناس برائحتها، وتنفرهم من طعمها. وكذلك الحال مع المنافق.

ويلاحظ أن التصوير النبوي بدأ هنا بالشكل قبل المضمون، لأن طبيعة المنافق تعتمد الشكل الخارجي الجميل الذي يخدع الناس. أما جوهره وباطنه فمر مرارة الريحانة.

ومن وسائل المنافقين في خداع الناس حفظ القرآن وتلاوته أمام الآخرين، نفياً للتهمة عن أنفسهم، ولكنهم معتقدون في باطنهم تضييع القرآن. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكثر منافقي أمتي قراؤها».

ومن وسائلهم أيضاً الرياء بالقول ويكون ذلك بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاستعمالها في المحاورات، إظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي.

وقد فضح الله المنافقين الذين يخادعون الله، ظناً منهم أنه لا يعلم سريرتهم المرة. قال تعالى: إن *المنافقين يخادعون الله، وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً*. **النساء: ١٤٢**.

أما المنافق الذي لا يقرأ القرآن، فقد شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالحنظلة. وهي ثمرة لا رائحة لها وطعمها شديد المرارة.

قال عنترة مبيناً شدة مرارة الحنظلة:

لا تسقني كأس الحياة بذلة
بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

فالحنظلة لا قيمة لها شكلاً ومضموناً، وكذلك هذا الصنف من المنافقين ظاهره سيئ وباطنه سيئ.

وصورتا المنافق تساوتا من حيث المضمون؛ لأنهما تمثلان النفاق الذي يترسخ في قلوب المنافقين، ولا يتغير بتغير الظاهر، ولكنهما اختلفتا من حيث الشكل؛ إذ جاءت صورة الشكل إيجابية عند المنافق الذي يقرأ القرآن، وسلبية عند من لا يقرأ القرآن.

وقد تجلى البيان النبوي في هذا الحديث في إثارة ثلاث من الحواس التي ركبها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، وهي: حاسة البصر وحاسة الشم، وحاسة الذوق.

فحاسة البصر تظهر في رؤية الجمال الموجود في الأشياء، وهي هنا ممثلة بجمال الأترجة والريحانة. كما تظهر في رؤية الأشياء التي ينعدم فيها الجمال كما في الحنظلة.

واتضحت حاسة الشم في الأترجة والريحانة. أما حاسة الذوق فقد اتضحت في طعم الأترجة والريحانة والتمرة والحنظلة بين الحلاوة والمرارة.

ومما يزيد في جمال البيان النبوي المصور في هذا الحديث أن الفكرة التي أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوصلها إلينا جاءت مترتبة من الأعلى إلى الأسفل، ففي القمة تتربع الأترجة ذات الطعم الطيب والرائحة الطيبة، ويقابلها المؤمن الذي يقرأ القرآن، فهو يعلو ولا يعلى. وفي القاع تقبع الحنظلة المرة التي تنبت في الصحراء وتدوسها الأرجل، ولا تؤكل لمرارتها، وكذلك المنافق الذي لا يقرأ القرآن يسفل في كل حالاته. وتأتي التمرة متوسطة لتقدم لنا الغذاء ليس غير.

من ينشر نظرية الديانات الوطنية والدخيلة في أوروبا؟ ولماذا؟

أنس كارتش
سراييفو ـ البوسنة

في أواخر السبعينيات من القرن كان ينشر في المجلات الوطنية والأدبية في صربيا أن في أوربا ولا سيما في البلقان ديانات وطنية أصيلة وأخرى دخيلة لإثبات أن منطقة البلقان مسيحية فقط، وأن الإسلام واليهودية دخيلان عليها، وليس لهما فيها شيء مشترك. فهذه النظرية التي يروج لها في بلغراد ليست صحيحة بل نظرية فاشية جعلت الإسلام المتجذر في هذه المنطقة دخيلاً ومستورداً، وما على هؤلاء الدخلاء إلا الترحيل من المنطقة أو الموت.

لماذا قتلوا؟

إن فكرة الديانات «الوطنية» و«الدخيلة» بالبوسنة والبلقان لم تحظ بأي نوع من الاهتمام إلا بعد أن حركت القوى الظالمة الكم الهائل من البركان المدمر الكائن في نفس العنصر البوسني المسلم، بل في كل العناصر الإسلامية الأخرى بالبلقان (الألبان وغيرهم) إذ إن ما يقارب من ألف مسجد وما شابهها من مبان دينية دكت ودمرت حتى الآن. وكذلك هدم أيضاً كثير من الكنائس والأديرة، ولا سيما الكاثوليكية منها.

وتكمن حقيقة المأساة في موت الرجال والنساء والأطفال، كما حدث في البوسنة وكوسوفو، حيث قتل منهم ما يربو على مئتي ألف، أغلبهم من المسلمين، من دون ذنب جنوه. وما دام الأمر كذلك فينبغي أن نعلم: لماذا قتل هؤلاء بالبوسنة وكوسوفو، ولماذا هدمت أكثر من مئتي ألف من المساجد والكنائس؟ مع أننا نرى أن ذلك لا يحتاج إلى تعريف وتخصيص؛ لأن ذلك شيء معروف.

نسيان الهولوكست

ولا تزال مأساة البوسنة والهرسك وكوسوفو أيضاً وعامة المسلمين بالبلقان قائمة وستظل كذلك إلى الأبد؛ لأن الداعمين لنظرية الديانات «الوطنية» و«الدخيلة» بالبلقان وأوربا ما زالوا يتحكمون بقوة في مصير هذه المنطقة، ولاسيما بلاد البوسنة والهرسك، وقد يعملون على تقسيمها، ويهدمون تقاليدها التي تمتعت وتميزت بها في أوربا.

وهؤلاء «الداعمون» ليسوا موجودين بالبوسنة فقط، بل هم موجودون ومعروفون أيضاً بمحكمة العدل الدولية بلاهاي؛ فضلاً عن وجودهم معنا ـ يا للأسف ـ في وطننا المشترك أوربا. فتردد أوربا في تقديم العون السريع للبوسنة والهرسك، بمختلف سكانها من المسلمين والكاثوليك والبروتستانت واليهود وغيرهم من الجنسيات الأخرى، يجعلنا نعتقد أنها ربما نسيت بسرعة فائقة المأساة المسماة: «الهولوكست» التي كانت نتيجة لنظرية الديانات «المحلية» و «الدخيلة» بأوربا. وأرجو أن تسمحوا لي بأن أعلق على تلك النظرية لكوني من البوسنة، مما يتيح لي أن أتحدث عن مواجهاتها الدينية التقليدية ودوافعها.

آسيا موطن الديانات

عندما نتمعن في فسيفساء أوربا الحالية نسأل بادئ ذي بدء: متى اعتنق الأوربيون الديانات؟ فما يرد بالخاطر أن أغلبية أوربا كانت في المنظور الديني، مدة ألفي سنة، قارة «محتلة» أو «مستعمرة». إن ما ورد

بدائرة المعارف الدينية الكبرى التي أعدها الكاتب ميرجي البادي يظهر بوضوح أن أوربا لم تكن وطناً أماً لأي من الديانات العالمية.

إن كل الديانات العريقة حالياً بأوربا وهي (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) أتت من الشرق، وبالتحديد من آسيا، من ذلك الكم الهائل من الديانات والكم الهائل من الشعوب. فالبلاد المقدسة والمدن المقدسة للديانات الحالية المعتنقة بأوربا، ليست بأوربا بل هي في آسيا. وكذلك الأنهار المقدسة والأحجار المقدسة والمؤلفات المقدسة للديانات العالمية الكبرى التي غزت أوربا، والتي استجاب لها الإنسان الأوربي وأعطاها ثقة روحه كلها، ليست مولودة في قارته بل في آسيا.

إن الاعتقاد السائد بأن دور أوربا الديني حدد بطريقة أو بأخرى تاريخها وهو اعتقاد لم يبن على أساس. ويمكن القول خشية الوقوع في خطأ كبير: إن أوربا أخرى حددت تاريخ أوربا. وفي سياق آخر إن أوربا ليست سوى النصف الثاني المهم من غرب شبه الجزيرة الآسيوية كما قال أدي قار مورن.

اختلال النظرية

إن الفروع الدينية الكبيرة وأمهاتها وتموجاتها التاريخية أخذتها أوربا في الغالب من الجانب الآسيوي. يقول في ذلك اللغويون: إن التجمع الأندوأوربي هو حقيقة العمود الفقري الذي نرى من خلاله كيف أن الشعوب الأوربية في الغالب تدين، حتى في تكوين جذورها البيولوجية الفقيرة ونهضتها التاريخية، لشجرة الشعوب الآسيوية. ومن هنا ينبغي لنا أن نؤمن باختلال نظرية «الوطنية» و«الدخيلة» من الأديان بأوربا أو في أي مكان آخر.

من يؤمن بنظرية كهذه، لا يمكنه التوقف أبداً، بل سيبدأ التحدث في اللغات الأوربية؛ «المحلية» و«الدخيلة»، والشعوب «المحلية» و«الدخيلة» أيضاً ..إلخ وأعتقد أنكم رأيتم من خلال كلماتي أساس تلك المعايير التي صارت البوسنة والهرسك من أجلها ضحية الداعمين للتمييز العنصري، الديني واللغوي..إلخ. تلك المخططات الهدامة تجب معارضتها بل إيقاف نموها. وفي البوسنة ـ كما تعلمون ـ وقفنا في منتصف الطريق. إن تلك النظرية بالبوسنة لم يكن من السهل محاربتها وإيقافها ـ ولو مؤقتاً ـ بالقلم والمداد؟ لقد رأيتم جميعاً كيف تحتم على العالم وقف بحار الدماء في الواقع الذي بني على فكرة: الوطني والدخيل.. ونحن نصف ما جرى لنعطي للعالم صورة واضحة.

أنا مسلم بوسني الهوية، أود أن أقول: إن أوربا لا يختلف مصير معتقدها القديم والمؤسس روحياً عن أمها آسيا، وهذا يعني أن أوربا كأمها آسيا، قارة للإسلام والبروتستانت والكاثوليك، وفي المستقبل من المحتمل للبوذيين. فالورثة لا بد لها من فرع، والفرع لا بد له من شجرة، والشجرة لا بد لها من جذور!!

كانت آسيا قارة مسيحية حتى ظهر الإسلام. وبعد ظهوره انتشر الإسلام بسرعة فائقة بأوربا، وظل الحال كذلك إلى ظهور ما يسمى بإسبانيا المسلمة (الأندلس)، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا نريد أوربا أن تحتفظ لنفسها بوضع «القارة المسيحية الفريدة» على الرغم من أن شعوبها ذات الأصول الأوربية من بوسنيين، وألبان وبوماتسيين عاشت بأرضها وهم يدينون ـ في الغالب ـ بثقافاتهم ومعتقداتهم لدين واحد ومحدد ذي نغم روحاني بسماته الأوربية الإسلامية، هذا الدين الذي كيف نفسه بمرور القرون للعيش تحت شمس أوربا؟

إن الذي ينظر إلى أوربا نظرة مسيحية فقط (أي إن الأوربي يساوي المسيحي) لا شك أنه يخالف تاريخها في كثير من الحقائق، بل يخالف كذلك جل تاريخها الحديث. فهذا الشخص يتصرف مثل المؤرخين الراديكاليين المسلمين الذين يتجاهلون وجود أكثر من عشرين مليون عربي مسيحي. وهذا يعني أن كونك عربياً لا يعني أبداً أنك مسلم.

أرجو السماح لي بأن أطرح عليكم حقيقة واحدة عن القرآن وترجمة القرآن بأوربا.

اتجاهان غير متعاكسين

منذ أن ترجم روبرت كتون القرآن للمرة الأولى باللغة اللاتينية عام ١١٤٣م وكان هدف ترجمته التضليل، ظل القرآن أكثر الكتب ترجمة في العالم، ووجدت عشرات الترجمات للقرآن من إنجليزية، وألمانية، وفرنسية، وأسبانية وبوسنية...إلخ!

ومنها ما أعيد طبعه عدة مرات، مما يبرهن على أن

أوربا لا يمكن أن تفارق الإسلام، ولا الإسلام يمكن أن يفارق أوربا. كما لا يمكن فصلهما عن البحر الأبيض المتوسط، ولا فصل البحر الأبيض المتوسط عنهما.

تلك الترجمات والكم الكبير من الأعمال الشرقية تتحدث عن شغف أوربا المنقطع النظير بالإسلام الذي سجل حضوره، وأثبت وجوده، بحيث لا يمكن وصفه بالديانة الدخيلة في أوربا.

فالكثير من تلك الأعمال يتحدث عن أن أوربا كظاهرة جغرافية، والإسلام كظاهرة دينية لا يقعان في اتجاهين متعاكسين، وهما لم يكونا كذلك حتى في التاريخ.. فأوربا هي وطن المسلمين بغض النظر عن تسميتهم (مسلمي أوربا، أوربا الإسلامية، المسلمين بأوربا) وبغض النظر عن تسمية أوربا لهم في هذا المفهوم (المسلمين بأوربا، أوربا الإسلامية، وطن الإسلام الأوربي).

ويجب علينا أن نعود لنرى الكثير من الشرق والكثير من الغرب في وقت واحد في جميع أنحاء العالم. يجب علينا تطبيق ذلك الضمير الحواري النير من أجل عمل مستقبلي جيد. لأن الشرق المسلم لا يعني نفي الشرق المسيحي، ولا الشرق اليهودي.. ولا من المفترض أن عقيدة الغرب المسيحي تؤكد نفي الإسلام الغربي، ولا يهودية الغرب. الأديان العالمية ذات الصلة أيضا ينحتم عليها المثول بوضوح في المجالات المخصصة دينيا، وصفحات العالم المخصصة دينيا أيضا.

لماذا أصر على ذلك؟ لأن هنالك كثيرا من القصور في الترجمة اليوم، والأهم من ذلك ممارسة عالمية أوربا والغرب. وهذه العالمية تعني للبعض «شخصا آخر» و«شيئا آخر» داخل ما يسمى «الدائرة الأوربية العالمية». المسيحية في تلك المجالات العالمية تحسب ديانة أوربية يدين بها الأوربيون والغربيون.

ألاحظ، بوصفي مسلما، أن تلك الأفكار والمخططات هي موجهة، قبل كل شيء، ضد المسيحيين ومن الخطر الوقوف ضد حقيقة صحة عالمية روحها.

الشرق المسلم لا يعني نفي الشرق المسيحي، ولا الشرق اليهودي.. ولا من المفترض أن عقيدة الغرب المسيحي تؤكد نفي الإسلام الغربي

النظرية والواقع

إذا أخذ في الحسبان عمر الإنسان في الأرض، أمكن القول بأن الإسلام دخل أوربا بالأمس. وهذا لا يعني أي شيء آخر غير أن المسيحية في أوربا جاءت قبله بيوم واحد (أي قبل البارحة)، هذه هي - بطريقة مبسطة - مسيحية القرن العشرين وإسلام القرن الرابع عشر كما يمكن أن يكون. نأمل أن ينتفع بها أولئك الذين لا يؤيدون طرفي الأديان الذين يؤمنون بأن المجال لا يسع إلا دينا واحدا فقط.

أوربا الحديثة، وبالأخص أوربا خلال الحرب العالمية الثانية، أسست مخططاتها للنمو والتقدم على العالمية التي يفهم منها: تعددية الأجناس، وتعددية الأديان، وتعددية الثقافات، وباختصار تعددية مطلقة ومعلنة في كل المجالات تجري وراء سعادة الإنسانية التي يتطلع إنسان اليوم إلى المشاركة فيها.

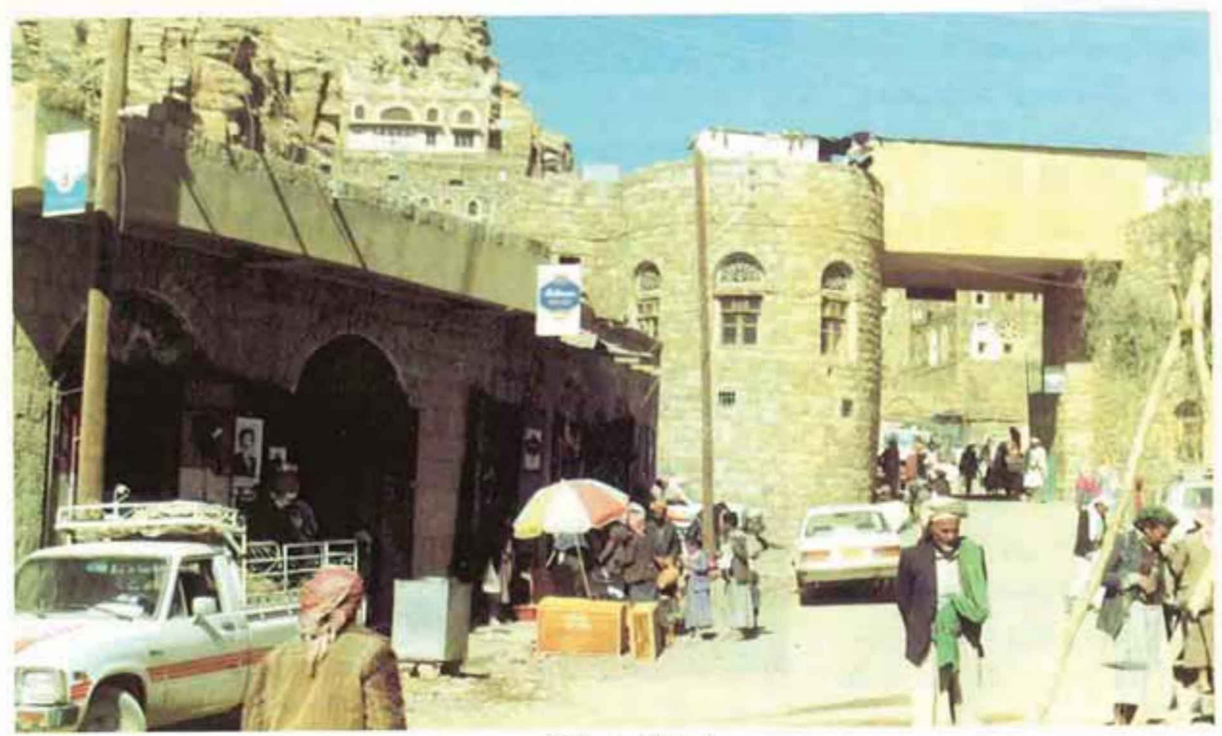
لكن استئصال البوسنة التقليدية من قلب أوربا لا تراه عملا عدوانيا ومخالفا لإعلاناتها الحديثة ومبادئها، ولا سيما أساس قواعدها اليوم. وهو بالفعل يمثل عدم فهم حقيقة العالمية.

ونحن نفهم أن حقيقة معنى العالمية هي الوجود الجماعي المشترك لتلك الديانات والثقافات التي لا ننتمي إليها، هي ملازمة لديانتنا وثقافتنا. لتكون ذا نظرة عالمية دينية، ينبغي أن تعيش محترما لنظرة الآخرين واعتقادهم، معترفا لهم بحقهم في السعي للسعادة في هذا العالم والعالم الآخر.

التنبؤ «بصراع الحضارات» يجب أن يستبدل به مفهوم التعايش الجماعي السلمي بالأرض. ملايين المسيحيين بمصر، والعراق، ولبنان، وسورية، وشمال إفريقية...إلخ وملايين المسلمين في فرنسا، وبريطانيا العظمى، وألمانيا والبوسنة والهرسك...إلخ يتوقعون من حوار البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي حماية حق عبادة الله عز وجل من قبل مختلف شعوب الأرض.

ثُلاَّ مدينة الماضي والحاضر

حمود علي منصور
صنعاء - اليمن



البوابة الرئيسة لثلا

يقف القلم، أحيانًا، عاجزًا عن التعبير عما يجول في ذهن صاحبه، ويظهر العجز واضحًا أمام روعة بعض المدن الأثرية، وجمال هندستها المعمارية، وفتنة طبيعتها، وشموخ جبالها، ونقاء هوائها، وصفاء زرقة سمائها، وطيبة أهلها. ظهر ذلك عندما عزمت على كتابة مشاهداتي عن مدينة ثلأ(١) التاريخية وحصنها المنيع.

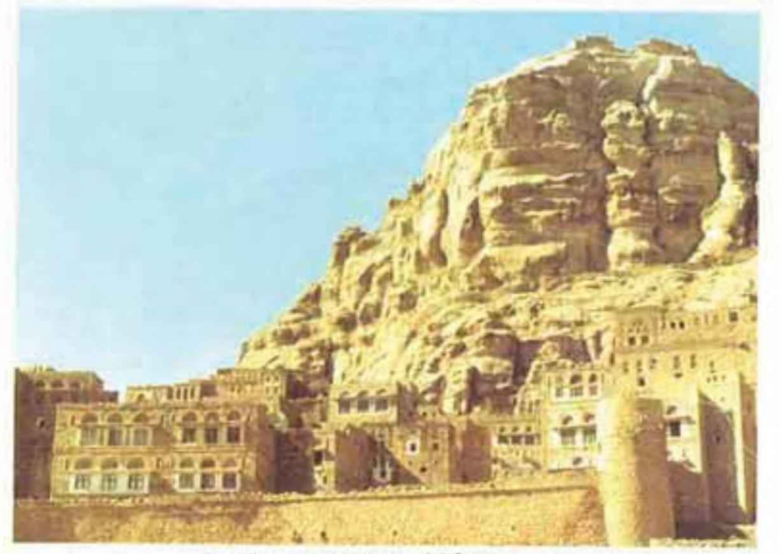
مدينة سبئية

ثُلاَّ - بضم الثاء وفتح اللام وبعدهما همزة - ينطقها الناس حاليًا بكسر الثاء - مدينة أثرية تقع غرب العاصمة اليمنية صنعاء، وتبعد عنها بنحو ٥٠كم، ويحتضنها من الغرب الحصن الذي سمي باسمها، وتقع على سفحه الشرقي معظم مبانيها.

يعود تاريخها إلى عهد الدولة السبئية، وكانت تسمى قرية الطَّلْح(٢)، بعد ذلك سكنها ثلأ بن لباخة بن ذي أقيان بن حمير الأصغر، قبل أكثر من ألفي عام، وسماها باسمه.



قصر قديم في مدينة ثلا



جانب من مدينة ثلا وسورها وجانب من الحصن

البحث عن الدفء

مع أن الشمس قد أرسلت أشعتها من وقت ليس بالقصير، إلا أننا لم نسلم من قرصات البرد، ولفحات هواء يوم شتوي في منطقة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٦٠٠م.

يجلس عدد من كبار السن مواجهين لأشعة الشمس يبحثون عن الدفء، وأطفال يلعبون في الأزقة غير عابئين بشيء مما يدور حولهم، منهم مجموعة يتقاذفون كرة صنعوها من بقايا جوارب!!. إنه الفقر الذي شاهدنا بصماته بوضوح.. وهؤلاء نسوة يغرفن ماء آسناً، وينقلنه إلى منازلهن، وأولئك أخريات يحملن - بمشقة - على رؤوسهن شجيرات خضراء لتجفيفها واستخدامها للوقود بدلاً من الغاز.

سبعة أبواب

بعد أن تجاوزنا مزارع القات في ضلاع وهمدان، أصبحنا في منطقة تمكننا من مشاهدة مدينة ثلاً وحصنها ومدينتي شبام وكوكبان وعدد من القرى المحيطة.. ومع اقترابنا من ثلاً، وقبل الصعود إليها عبر طريق متعرج مسفلت رددت قول الشاعر:

أما رأيت ثلا في نصب قامته
يبدو لنا من حضيض الأرض تكميشا
كأنه طائر هيّا قوادمه
لأن يطير ولما ينشر الريشا

دخلنا ثلاً من أوسع أبوابها فلها سبعة أبواب هي: باب المشراق، وباب السلام، وباب الهادي، وباب الفرضة، وباب المياح، وباب المحاميت، وباب الحصن.

في أثناء تجوالنا في المدينة وجدنا سوراً طويلاً يحيط بها، طوله نحو ألفي متر يرتفع بين ٥ و ٧ أمتار، عليه ٢٦ برجاً، وقد جُدِّد حيث لم يبق من السور القديم جداً إلا القليل، ولم أجد مصدراً موثوقاً يبين تاريخ بنائه، وإن كانت بعض الأحجار تدل أنه بني مع سور شبام الأثري الذي بني في عهد الدولة الحميرية.

مبانٍ متميزة

مع أن الساعة بلغت العاشرة صباحاً، إلا أن الهدوء كان سيد الموقف، وكأننا في مدينة خاوية على عروشها، لا يسكنها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة.

أمام فندق ثلاً السياحي - وهو الفندق الوحيد في المدينة - وجدنا سائحاً نمساوياً يرافقه شاب مغربي، على رأسه غترة عربية، سألته عن

انطباعاته عن ثلاً - وأشرت إلى مبانيها - فأجاب: إنها جميلة جداً، وانفتح أكثر حينما أخبرته أني زرت النمسا مرتين، ووصفت له بعض ملامحها.

وقال: إنه زار مصر وسورية والجزائر وتركيا، إلا أن زيارته لليمن ذات نكهة خاصة، وأخذ يشرح لي - على خريطة في كتاب عن اليمن - المناطق التي زارها، وخط السير.

مباني ثلاً متميزة، وجذابة، ترتفع بعضها خمسة أدوار، مبنية بطريقة هندسية مميزة، تعلو نوافذها قمريات مصنوعة من الجص، والقديمة من المرمر.

يقسم السكان منازلهم حسب الأدوار: الأرضي للحيوانات، والأخير يخصص للمطبخ، وما بينهما تكون غرف النوم والمعيشة والاستقبال.

العمل جار لرصف الشوارع والأزقة بأحجار مشذبة، ينفذ بتمويل خارجي.

حصن تاريخي

حصن ثلاً يرتفع عن مستوى سطح البحر بـ ٢٩٧٤م)، وهو من المناعة والشموخ ما جعل الأهالي يحيكون حوله الحكايات والقصص والأساطير، لصموده في وجه الهجمات والغارات التي استهدفته في فترات متفاوتة.

بعض جوانب جبل الحصن تحوي عدداً من الكهوف المحفورة بدقة على شكل غرف لها أبواب - لاحظ الصورة - التي ربما استخدمها الإنسان في قديم الزمان للسكن، خوفاً على ما يبدو من الحيوانات المفترسة، ولهذه الكهوف مثيل في مدينة شبام القريبة من ثلاً.

في قمة الحصن برك لحفظ المياه، وعدد من الأبراج، ومخازن للمواد الغذائية، ومستلزمات من يتولون حماية الحصن، والإقامة فيه.

وتأتي شهرة الحصن من أحداث مهمة تعرض لها خلال الحكم العثماني لليمن، فبعد دخولهم صنعاء عام ١٥٤٩م، توجهت حملة عسكرية نحو ثلاً وشبام وكوكبان حيث يتمركز المتمردون على العثمانيين من زعماء الزيدية بقيادة المطهر بن شرف الدين(٣)، وبعد أربعين يوماً من الحصار عاد العثمانيون دون تحقيق هدفهم مع قوة المدفعية العثمانية.

استعد العثمانيون مرة ثانية بقيادة



منزل مهجور في ثلا مبني على صخرة



ضريح على قبر


جانب من مدينه ثلا كما يبدو من الحصن

سنان باشا، وتقدموا بجيش جرار، وبعد جهود كبيرة، وهجمات كثيرة وقعت المدينة في أيديهم، فصعد المطهر إلى الحصن، واتخذه قلعة له، وجرت عدة محاولات للسيطرة عليه، إحداها بمحاولة تسلق جنود مدربين في الليل، لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من المدافعين عنه ساعدتهم طبيعة الجبل وما جمعوه من أحجار لدحرجتها لتصد، وتحطم من يحاول التسلق(٤).

استمر حصار الحصن مدة سبعة أشهر من عام ٩٧٧هـ - ١٥٦٩م، ولما عجزوا عن اقتحامه، ويئسوا من استسلام حماته اضطروا لعقد صلح بينهم وبين المطهر(٥).

مركز علم

ظلت ثلا فترات زمنية طويلة هجرة من هجر العلم، قصدها طلاب


زقاق لم يصله الرصف الحديث

العلم من مناطق مجاورة، وذكر القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه المهم «هجر العلم ومعاقله في اليمن» أن مقبرة ثلا تضم رفات سبعين عالمًا مجتهدًا(٦).

ونبغ من أبنائها كثيرون في مجالات العلم الشرعي، والأدب، واللغة، والفقه، والحديث وأصول الدين، منهم:

- سيبويه بن صالح الثلائي(٧).. من أعلام المئة الثامنة، عالم مبرِّز في علوم العربية ولاسيما النحو وأديب شاعر. توفي في عام ٨٨١هـ بعد أن عُمِّرَ طويلاً.. وهو غير سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان الشيرازي المتوفى عام ١٨٠هـ - ٧٩٦م.

- أحمد بن عبدالقادر الورد(٨).. من أعلام القرن الثاني عشر الهجري، قال عنه زبارة في «نشر العرف»: «كان أوحد زمانه، ونادرة أوانه، مبرزًا في العلوم، عاملاً بالكتاب والسنة (...) وخطبه في غاية البلاغة، يمزج الخطبة بالأحاديث على أسلوب بديع».

- كما برز من الإناث في فروع

الفقـه وأصوله العالمة: دهماء بنت يحيى المرتضى(٩)، وهي شاعرة وأديبة كانت تقوم بتدريس طلابها في ثلا، وقامت بتأليف عدد من الكتب منها:

- «الأنوار في شرح كتاب الأزهار»، و«الجواهر في علم الكلام»، و«شرح مختصر المنتهى في أصول الفقه»، و«شرح منظومة الكوفي في الفقه والفرائض»، وكان وفاتها سنة ٨٠٠ للهجرة.

- ومن أعلام ثلا من غير أبنائها العلامة المحقق صالح بن مهدي المقبلي(١٠) ١٠٤٧ - ١١٠٨هـ وهو عالم مبرز في جميع علوم الكتاب والسنة، كما وصفه شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني في كتابه: «البدر الطالع»، وله عدة مؤلفات أشهرها: «المنار في المختار من جواهر البحر الزخار».

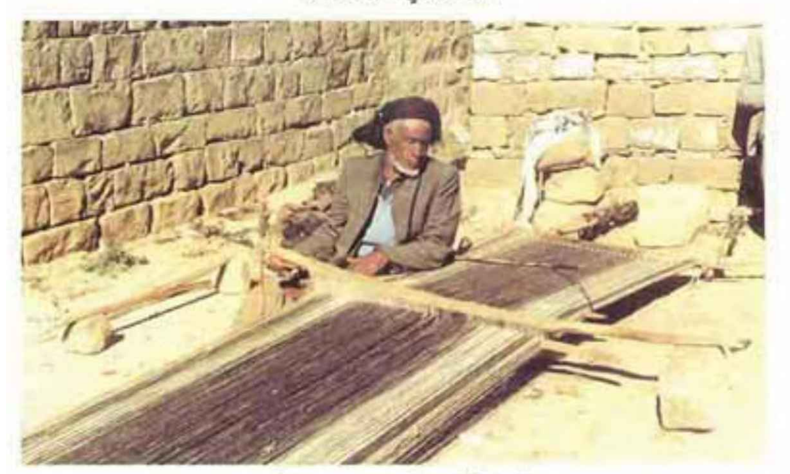
حرف وسياحة

دخلت محلاً لبيع التحف للسياح، وكان مزيناً ببعض أنواع التحف القديمة، قال صاحبه: إن أغلب السياح يشترون الهدايا التقليدية الرخيصة الثمن؛ لأن أمن المطار يصادر هداياهم إن كانت ثمينة - مع أن بعضها مقلد - بحجة أنها آثار وتحف قديمة ممنوع إخراجها من البلاد، ويستفسر السياح - والكلام للبائع - كيف تبيعون هذا في السوق علناً، وتمنعون خروجها بعد شرائها؟!.

وقد أراني تحفاً مقلدة ينفذها فنانون من أبناء المنطقة من أصحاب المواهب الفنية المتعددة.



الكير اليدوي لا يزال يعمل!



الحياكة اليدوية من خامات محلية

دخلنا متحف ثلا السياحي، وكان خالياً من الإضاءة، وخالياً من الزوار، رافقنا أحد العاملين فيه، وشرح لنا تقسيمات الدار، واستعمالات طوابقه الخمسة التي أثثت بما يناسب الحياة التقليدية في ثلا عبر مئات السنين.

لا يزال بعض الأهالي يحافظون على حرفهم التي توارثوها أباً عن جد، ففي زقاق ضيق وجدنا محل حدادة يدوية، يستخدم الكير اليدوي؛ لا لإمتاع السياح، بل للضرورة، وأبرز ما يقومون بصناعته المستلزمات الزراعية التقليدية.

وخلال تجوالنا مررنا ببركة طولها نحو ٣٠ متراً وعرضها نحو ٢٠ متراً، تسمى بركة «جعدان»، معظم جدرانها مطلية بمادة (القضاض) (١١) وعلى حافتها بعض النسوة يغسلن الملابس بأيديهن.. ومن باب الهادي كانت مجموعة من السياح الألمان - ذكوراً وإناثاً - يمرون عبره داخلين إلى المدينة، حاملين آلات التصوير المتنوعة، يصورون كل شيء أمامهم!.

مساجد قديمة

تفرض معالم الحضارة الإسلامية



بعض السياح الألمان في ثلا

نفسها في مدينة ثلا من خلال مساجدها التي تبلغ ٢٣ مسجداً قديماً وحديثاً، أشهرها الجامع الكبير في قلب المدينة الذي يعود تاريخ إنشائه إلى القرن الخامس الهجري.

ومنها قبة الهادي، وهي مسجد بشكل قبة واحدة (بلا أعمدة) كانت تحفة في زمانها، بناها في بداية القرن التاسع الهجري محمد بن الهادي بن يحيى بن حمزة(١٢) ت ٨٤٩هـ، وبنى ملحقات لطلبة العلم، وجلب لها الماء النقي الذي لا يزال جارياً حتى يومنا.

امرأة تنقذ دولة

أختتم هذا الاستطلاع بقصة طريفة ترويها معظم كتب التاريخ اليمني، ويجهلها كثير من مثقفي اليمن!.

في رجب ١١١١هـ أعلن الساحر إبراهيم بن علي بن حسن المحطوري أنه إمام زمانه، وأن الرصاص لا يؤثر فيه ولا في أتباعه، وكذلك السكاكين والسيوف!. فعظم أمره، وقويت شوكته، وكثر أتباعه، واستسلمت له كل المناطق التي مر بها حتى أقلق الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن - صاحب المواهب - وخاف على ملكه، فأرسل أعداداً كبيرة لمواجهة الساحر، وأنفق لذلك سبعين مليون ريال فضي.

واستسلمت مدينة ثلا كغيرها، ولكن امرأة مقهورة من الساحر وأتباعه وجرائمهم لم تستسلم، كما استسلم القادة والأبطال من الرجال، فقذفت حجراً كبيراً من سطح دارها على مجموعة من المهاجمين سقط على أحدهم فقتله فوراً، فصاحت فرحةً: إن الأحجار تضرهم فرمى السكانُ المهاجمين بالأحجار، ثم اكتشفوا أن كل شيء ينفذ في أجسامهم ويضرهم، فزال الخوف من قلوب الناس، وتحولوا من مستسلمين إلى مهاجمين، وتم القبض على زعيمهم عند هروبه إلى صعدة، وهناك قطعت رأسه بعد أن تسبب في مقتل عشرين ألف شخص خلال ثلاثة أشهر، وعدّ بعض المؤرخين قتل الساحر المحطوري من أعظم مناقب الإمام المهدي(١٣).

ودّعنا ثلا ومن تعرفنا إليهم بعد أن عمّ الدفء شوارعها، وكثرت سيارات السياح، وفتح التجار حوانيتهم، وتحرك الناس لقضاء حوائجهم، ومنها شراء (القات)، تلك الآفة التي بدأت القيادة السياسية اليمنية تعلن الحرب عليها، وتتخذ خطوات لذلك نحسبها إيجابية وموفقة.

المراجع والهوامش

١. البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، تحقيق القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، ص٦٧.
٢. معجم البلدان اليمنية، ص١١٣.
٣. الفتح العثماني الأول لليمن، د. سيد مصطفى سالم، ص١٨١.
٤. المصدر نفسه، ص٢٦٩.
٥. المصدر نفسه، ص٢٧٠.
٦. هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، ج١، ص٢٦٠.
٧. المصدر نفسه، ص٢٦٠.
٨. المصدر نفسه، ص٢٨٠.
٩. المصدر نفسه، ص٢٦١.
١٠. المصدر نفسه، ص٢٧٠ - ٢٧٩.
١١. القضاض: مادة بناء لاحمة قوية جداً استخدمت في اليمن من آلاف السنين في المباني المهمة ولا سيما السدود وبرك المياه، ولاتزال متماسكة حتى يومنا.
١٢. المصدر السابق، ص٢٦٢.
١٣. تاريخ اليمن، الواسعي، ص٢٣٠، هجر العلم، الأكوع ج٤ ص١٩٥٧ - ١٩٥٨.

متحف ينشوبنك

وتاريخ صناعة الثقاب

عرف الإنسان النار أول الأمر بشكل كارثة، عندما هددت حرائق الغابات المندلعة بشرارة صاعقة أو نيزك ملتهب، الجماعات البشرية، ثم بشكل وسيلة من وسائل الحياة عند استعمالها للطهي والتدفئة والإنارة وإبعاد الحيوانات المفترسة، ومنذ ذلك الوقت كان السؤال المهم الكبير هو كيف تتكون النار، وكيف تُشعل؟

ثائر صالح
بودابست - المجر



متحف الثقاب في ينشوبنك

ويعدّ العلماء اكتشاف النار واستعمالها أحد أهم منجزات المجتمع البشري البدائي، فقد نقل الإنسان من الأطوار البدائية المتخلفة إلى أطوار أخرى أكثر تقدما. وكان الإنسان البدائي ينقل جمراته معه في حله وترحاله ليستعملها في إشعال النار من جديد، وويل لمن يتسبب في انطفاء الجمر، فحياة الجماعة كانت متعلقة بهذه الجميرات أحيانا.

وكان إشعال النار من المشكلات الكبيرة التي واجهت البشرية، ونعرف من أسفار تاريخ المجتمع البشري قصصا عن وسائل إشعال النار بدءا بطرق قطعتين من حجر

الصوان (الذي استعيض عنه لاحقًا بالحديد) وحجر البيريت (كبريتيد الحديد) بعضهما ببعض لتوليد الشرر الذي يشعل أليافًا نباتية أعدت بعناية، أو استعمال القوس لتدوير غصن شجرة بسرعة على خشبة فتؤدي الحرارة المنبعثة من الاحتكاك إلى توليد النار، واستمر ذلك حتى ابتكار وسائل أكثر «فاعلية» لإشعال النار مثل الزناد، وهو وسيلة ميكانيكية تشبه إلى حد بعيد زناد البنادق العتيقة، حيث يؤدي الشرر المتطاير من جراء قدح حجر خاص إلى إشعال مادة سريعة الالتهاب. واستعمل الإنسان أحيانًا عنصر الكبريت الذي يوجد حرًا في الطبيعة لبدء الاشتعال، فهو عنصر قابل للاشتعال إذا ما وُجه إليه الشرر. وربما كان هذا السبب وراء تسمية عيدان الثقاب بالكبريت أيضًا. غير أن المبدأ لم يتغير خلال آلاف السنين حتى ظهور عيدان الثقاب في منتصف القرن الماضي، وكانت عيدان الثقاب المستعملة اليوم بشكل واسع واحدًا من أهم الابتكارات قبل ظهور الولاعات الحديثة التي تعمل بشتى الطرق. فهذه العيدان التي اعتدناها ولا نرى فيها ما يثير العجب، لها قصتها المثيرة التي تستحق الوقفة.

البداية

بدأت أولى المحاولات لتوليد النار بطريقة كيماوية في القرن الثامن عشر الميلادي عند تطور علم الكيمياء بعد آلاف السنين، فقد أشعل الإنسان خلالها



ثقاب «النجوم الثلاث» الشهير، من إنتاج معمل ينشوبنك



ثقاب فكتوريا، (باللغة الفرنسية)



ثقاب الببغاء

النيران باستعمال الشرر المتطاير عند ارتطام جسمين أو بطريقة الحرارة المتولدة عن الاحتكاك، وظهرت أعواد الثقاب في أوائل القرن التاسع عشر؛ إذ اخترع الفرنسي شانسل Chancels في عام ١٨٠٥م عيدانًا مطلية بعجينة كلورات البوتاسيوم والسكر والصمغ، كانت تغمس في قنينة تحتوي على خليط من حمض الكبريتيك المركز فتتوهج. غير أن هذا الخليط كان في غاية الخطورة، لذلك لم ينتشر استعمال عيدان «التغميس». فحمض الكبريتيك المركز عامل مؤكسد قوي، يحول المواد العضوية إلى فحم بسرعة كبيرة مع انبعاث كمية كبيرة من الحرارة، ويسبب في الأنسجة الحية حروقًا مؤلمة بطيئة الالتئام.

وقد اخترع كيماوي إنجليزي اسمه جون ووكر John Walker في عام ١٨٢٧م عيدانًا تشتعل بالحرارة المتولدة من الاحتكاك مع سطح خشن يشبه ورق السنباذج، فوضع على رأس الأعواد الخشبية عجينًا من خليط الفسفور وكبريتيد الأنتمون (حجر الكحل) وكلورات البوتاسيوم والصمغ العربي، لكن إشعال هذه العيدان كان صعبًا جدًا، فلم ينتشر استعمال هذا النوع من الثقاب كذلك.

ومن بين وسائل إشعال النار بالطريقة الكيماوية استعمال غاز الهيدروجين السريع الالتهاب، وقد أشعل الهيدروجين بتوجيه شرارة كهربائية، لكنها كانت

وسيلة غير مريحة ومعقدة وخطيرة في الوقت نفسه فلم تنتشر.

ومن غرائب الاختراعات ذلك المسمى «المصباح البلاتيني»، وفيه يُوجّه تيار من غاز الهيدروجين إلى شبكة من البلاتين أو الإيريديوم الإسفنجي فيشتعل بسبب التفاعل الكيماوي.

الثقاب الفسفوري

اكتشف براند في عام ١٦٧٣م الفسفور الأصفر (الأبيض) في هامبورج بألمانيا، وكان هذا العنصر مثيراً للخيال البشري، فهو يشتعل بصورة تلقائية عند ملامسته الهواء؛ لذلك يحفظ مغموراً بالماء لمنع وصول أوكسجين الهواء إليه. ومنذ اكتشافه حاول الإنسان استخدامه لصنع وسيلة لإشعال النار باستخدام مزايا الفسفور الأبيض.

وفي عام ١٨٠٩م اخترع الفرنسي دربا أول ثقاب فسفوري بمزج الفسفور الأبيض مع المغنيزيا دون أن ينتشر استعماله، ويذكر أن الثقاب الفسفوري كان يباع في باريس في سنة ١٨١٦م.. بعد ذلك ظهر الثقاب الفسفوري التقليدي الذي اكتسح الأسواق عقوداً طويلة بدءاً من مطلع ثلاثينيات القرن الميلادي التاسع عشر. وطور شارل سوريا في سنة ١٨٣١م هذا الثقاب الفسفوري دون أن يحميه ببراءة اختراع، لذا سرعان ما انتشر إنتاجه في ألمانيا والمجر (هنغاريا) والسويد. وفي البداية استعملت كميات كبيرة من الفسفور في صنع الخلطة، وصلت إلى نصف وزنها، وأمكن لاحقاً تخفيض نسبة الفسفور إلى ٥٪ بعد أن أضيفت مادة كلورات البوتاسيوم المؤكسدة إلى الخلطة.

وكان الثقاب الفسفوري يصنع من الكبريت وكبريتيد الأنتمون والفسفور الأصفر (ويسمى أيضاً الفسفور الأبيض) والمطاط وغيرها من المواد. وكان سبب انتشاره رخص سعره، وقدرته على الاشتعال عند الاحتكاك مع أي سطح تقريباً، ولربما كان ذلك إحدى أهم سلبيات هذا النوع من الثقاب؛ إذ كان يشتعل أحياناً حتى دون رغبة مالكه عند قيامه بحركة سريعة، بيد أن الخطر الأساسي كان على صانعه، وليس على مستعمله، فصنع هذا الثقاب كان يسبب للقائمين على إنتاجه أمراضاً خطيرة، كثيراً ما كانت تنتهي بالوفاة.

التسمم الفسفوري

كان الفسفور الأصفر السام وأبخرته (بشكل ثالث أوكسيد الفسفور) سبب وفاة الكثير من العمال الذين عملوا في صناعة الثقاب، وجلّهم من الأطفال. ففي ذلك الحين كان الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الرابعة عشرة قوة العمل المفضلة لدى أصحاب معامل الثقاب (وغيرها) لعدد من الأسباب، أهمها سهولة تعليمهم على إنجاز عمل محدد، وحذاقتهم وخفة أيديهم، ثم إن أجور الأطفال تقل كثيراً عن أجور البالغين.



مكنة صناعة الثقاب التي ابتكرها ألكسندر لاغرمان

وكان تشغيل الأطفال ظاهرة عامة في الدول الصناعية، وقد وضعت قوانين تمنع تشغيل الأطفال دون الثانية عشرة، وأخرى تحدد وقت عمل الأطفال بست ساعات، وقوانين غيرها

تمنع العمل الليلي، لكن ذلك جاء في مراحل متأخرة جدا، وبعد آلام جمة، ومع ذلك خرقت كل هذه القوانين بشكل مستمر؛ إذ لم تكن العقوبات المفروضة على أرباب العمل ذات بال أن تجاوزوها.

كان بخار الفسفور يدمر تركيب عظام الإنسان، ولا سيما الفك، بسبب تفاعله مع الكالسيوم المكون الأساسي للعظم، ويؤدي إلى سقوط الأسنان، واهتراء العظام والأنسجة وتلوثها، وظهور الصديد. وكثيرا ما لاقى الأطفال المصابون حتفهم قبل وصولهم سن البلوغ، وقد يشفى المرء من هذا الوبال، لكنه يقضي بقية حياته مشوها تشويها فظيعا.

وقد حصد مرض الفكوك أرواح العاملين في هذه الصناعة خلال فترة زمنية طويلة امتدت لتقرب من قرن من السنين، وللتخلص من هذا الداء سنّت عدة دول قوانين تحظر صناعة الثقاب من الفسفور الأصفر، وكانت فنلندا أولى الدول التي حرمت بيع الثقاب الفسفوري، وحصل ذلك في عام ١٨٧٢م، تبعتها الدانمرك في عام ١٨٧٤م، وفرنسا في عام ١٨٩٧م، وسويسرا في العام التالي، والسويد وهولندا في عام ١٩٠١م، ومع سريان الحظر على تداوله، سمحت ألمانيا بإنتاج ثقاب الفسفور حتى عام ١٩٠٧م، كما استمر إنتاجه في السويد حتى عام ١٩٢٠م بهدف التصدير، وقد سنت اتفاقية دولية لمنع استعمال الفسفور الأبيض في عام ١٩٠٦م.



صفائح خشب الحور الرجراج ومكنة تقطيعها

الثقاب الأمين

في البداية استعيض الفسفور الأبيض بالفسفور الأحمر، وهو شكل من أشكال عنصر الفسفور. واكتشف شروتر الفسفور الأحمر في عام ١٨٤٥م، وظهر أول أنواع الثقاب الذي استعمل فيه الفسفور الأحمر في ألمانيا عام ١٨٥٠م، وفي فرنسا والنمسا والمجر وبريطانيا في عام ١٨٥١م، غير أن هذه المحاولات الأولى كانت فاشلة، وكان المنتج خطيرا؛ إذ كان الثقاب ينفجر أحيانا بدلا من الاشتعال بلهب يمكن السيطرة عليه، ويعود السبب في ذلك إلى صعوبة اشتعال الفسفور الأحمر بسبب ارتفاع درجة اتقاده، وإلى اشتعاله بعنف عند تفاعله مع كلورات البوتاسيوم.

اخترع العالم الكيماوي السويدي غوستاف إريك باش Gustaf Erik Pasch الثقاب الأمين في عام ١٨٤٤م، وابتدأ إنتاجه أول الأمر في ستوكهولم بالسويد، لكنه لم يدم طويلا بسبب الكلفة العالية لتحضير الفسفور الأحمر، واحتاج الأمر إلى تطوير الاختراع، وهو ما قام به يوهان إدفارد لوندستروم Johan Edvard Lundstrom عندما فصل الفسفور الأحمر عن كلورات البوتاسيوم في عام ١٨٥٥م، ولوندستروم هو أحد مؤسسي معمل يَنشوبنك للثقاب، الذي تحول لاحقا إلى أكبر منتج للثقاب في العالم، ويتلخص هذا الكشف المهم في وضع كلورات البوتاسيوم في خلطة رأس عود الثقاب، بينما تطلى جوانب العلبة بالفسفور الأحمر وبكميات قليلة، وتحتوي خلطة رأس عود الثقاب عشر مواد، بينها كلورات البوتاسيوم، وكرومات الباريوم،

وبيكرومات البوتاسيوم، والصمغ العربي، والكبريت، والزجاج المطحون، وأوكسيد الزنك، وأوكسيد الحديد. أما الخلطة التي يطلى بها جدار العلبة فتتكون من الفسفور الأحمر، وكبريتيد الأنتمون، والدكسترين، والفحم. ويبدأ الاشتعال عند تفاعل الفسفور وكبريتيد الأنتمون وكلورات البوتاسيوم عند احتكاك رأس العود بالسطح الخشن لجانب العلبة.

تصنع أعواد الثقاب من خشب الحور الرجراج، الذي يتميز بقوته فهو لا ينكسر بسهولة، ولا يحتوي على راتنج، أي إنه يحترق بلهب واضح ومتسق، وكذلك يحوي مسامات مما يجعله قادرا على امتصاص البرافين والتشبع به، ويستعمل زيت البرافين لتسهيل اشتعال العود. وتكفي شجرة حور واحدة لإنتاج ٣٧٠ ألف عود ثقاب. وجرى لاحقاً تشبيع العيدان بمحلول ماء الزجاج (سيليكات الصوديوم) لمنع تحول خشب الأعواد إلى جمر، ومن ثم إلى رماد بعد ذلك، وتقليل كمية البارافين المستعملة، ثم غمسها بالبرافين لضمان اشتعالها.

كانت العيدان في البدء تقطع باليد، قبل أن تحل المكنة محل العمل اليدوي تدريجيا، وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، تمكن المهندس السويدي ألكساندر لاغرمان من تطوير مكنة خاصة لتقطيع خشب الحور في مدينة ينشوبنك، لتحل محل خمس مكنات. ونرى هذه المكنة في الطابق الأرضي من متحف الثقاب في ينشوبنك، وتشغل قاعة كبيرة، وكانت تنتج ٤٠ ألف علبة ثقاب في اليوم.





ثقاب الثور (باللغة الإسبانية)، وعلى الجانب الخلفي للعلبة نجد تفاصيل المستورد المكسيكي لهذا الثقاب الذي صنع في تداهولم

ولا تزال صناعة عيدان الثقاب تستعمل مكنات مشابهة في مبدئها لمكنات لاغرمان. وقد استعملت لإنتاج العيدان مواد أخرى بدلاً من الخشب، مثل الورق المقوى أو أنابيب رقيقة قصيرة من مواد صناعية كالبلاستيك.

وعلاوة على العمل الجاري في معامل الثقاب، ساهم الاف الناس في توفير مستلزمات الثقاب وصناعتها في منازلهم. وقامت النسوة والأطفال وكبار السن بجلب علب الثقاب التي صنعت في السابق من شرائح الخشب الرقيق المغلف بالورق، ولصق علامة الشركة عليها ثم تجفيفها، وكانت العوائل تخدم معامل الثقاب سواء في المعمل أو في البيت.

ينشوبنك معقل إمبراطورية صناعة الثقاب

تقع مدينة ينشوبنك Jon-koping إلى الجنوب من ستوكهولم عاصمة السويد في منتصف الطريق الذي يربط العاصمة بمدينة مالمو الجنوبية، وهي واحدة من كبريات المدن السويدية. وقد أنشئ أول معمل حقيقي لإنتاج الثقاب في مدينة ينشوبنك في عام ١٨٤٥م بإشراف الأخوين كارل فرانس، ويوهان ادفارد لوندستروم، وبدأ الأخير تجاربه لتطوير الثقاب الأمين في عام ١٨٥٢م، وبدأت شهرة منتج الأخوين لوندستروم من الثقاب الأمين في معرض باريس الدولي عام ١٨٥٥م بعد أن حصلا على ميداليته الفضية.

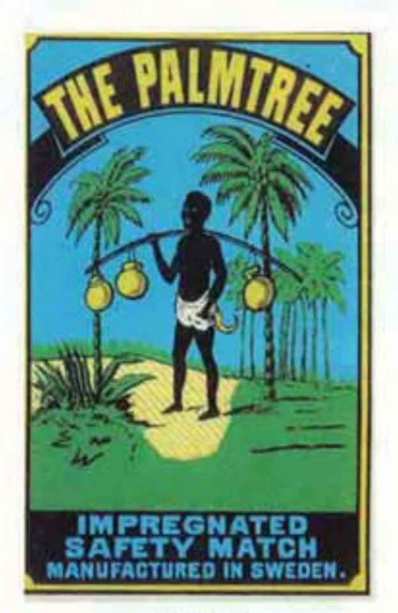
وكان هذا النجاح باكورة السمعة الكبيرة التي لا تزال تتمتع بها السويد في هذا المجال، فقد نمت صناعة الثقاب الأمين هناك بشكل كبير في النصف

الثاني من القرن التاسع عشر، وبلغ عدد المصانع التي تنتجه ٣٨ مصنعاً في عام ١٨٧٦م، ثم ارتفع هذا العدد إلى ١٥٥ في غضون بضع سنوات، وتركزت في المدن السويدية ينشوبنك ولدشوبنك وتداهولم وأودفالا وفتلاندا، غير أن المنافسة بين هذه المعامل تصاعدت في بداية هذا القرن مما أدى إلى إغلاق عدد منها وتركيز المعامل الأخرى واندماجها.

وخلال الحرب العالمية الأولى تكونت شركة الثقاب السويدية بإدارة إيفار كروغر Ivar Kreuger، الذي تمكن بفضل نشاطه ودأبه بعد الحرب العالمية الأولى من السيطرة على ٦٠-٧٠٪ من إنتاج الثقاب في العالم أجمع بحدود عام ١٩٣٠م، ومنذ ذلك الحين أصبحت ماركة النجوم الثلاث رمزاً للثقاب في العالم. لكن في عام ١٩٣٢م انتحر كروغر بعد أن انهارت أسعار أسهم شركته، بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى التي استمرت بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٣م، ولم تتمكن الشركة من تحقيق أرباح للأسهم بعد الانهيار الكبير إلا في عام ١٩٤٩م، وقد توقف إنتاج الثقاب في ينشوبنك لاحقاً في عام ١٩٧١م.

متحف الثقاب في ينشوبنك

هذا المتحف المثير هو المتحف الوحيد لصناعة الثقاب (الكبريت) في العالم، وهو بناية خشبية كانت مصنعاً للثقاب منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، وأصبحت البناية المتكونة من طابقين، مركز شركة الثقاب السويدية، أهم شركة لإنتاج الثقاب، ثم تحولت إلى متحف في عام ١٩٤٨م، وتم الحفاظ على منطقة معمل الثقاب اليوم بعد إيقاف الإنتاج، وتحولت إلى متنزه يستضيف مراكز ثقافية ومتاحف ومعارض لبيع المنتجات الحرفية اليدوية.



ثقاب النخلة

ونجد في المتحف كل ما يتعلق بالثقاب الفسفوري والأمين على حد سواء، بدءاً من التعريف بالخشب المستعمل لصناعة الثقاب، وطرائق تقطيعه، ومعالجته بالبرافين، وغمس الأعواد في العجينة، وصناعة العلبة، وطبع اللوحات، وكل ما يتعلق بصناعة الثقاب. ونتعرف في المتحف حياة العمال، وطريقة عيشهم وأدواتهم، وكيف كانوا يعملون في البيوت أيضاً؟ ويمكن لزائر المتحف صنع علبة الثقاب الخاصة به، وهو ما يقدم عليه الأطفال والكبار على حد سواء.

وتوجد في المتحف نماذج مصغرة مصنوعة من عيدان الثقاب بشكل أبنية ومحطات قطار، ولوحات فنية رائعة. وفي قاعات المتحف يمكن رؤية أكبر مجموعة من الثقاب الذي أنتج في السويد أو في بلدان العالم، بكل الأشكال والألوان والأحجام واللغات، وبين آلاف العلب يوجد في المتحف ثقاب عثماني ومصري وعراقي وجزائري ومن بلدان عربية أخرى، ومن مختلف العهود.

وعرضت في المتحف نماذج الثقاب الذي كتب عليه باللغة السويدية، غير أن صانعيه «نسوا» وضع النقاط على بعض الحروف السويدية كما هو متبع، وقصة هذا الثقاب مشوقة؛ إذ سرق اليابانيون الوصفة المستعملة لإنتاج الثقاب في زيارة لهم إلى المعمل بعد أن كتب أحدهم الوصفة على كم قميصه الأبيض. وبدأ اليابانيون بإنتاج الثقاب بالماركة نفسها كما لو أنه صنع في ينشوبنك، لكنّ المزورين اليابانيين لم يولوا قواعد الكتابة السويدية أي اهتمام على العكس من عنايتهم باستنساخ الوصفة مما أدى إلى فضح منتجهم المزور.



الإنكا.. حضارة وتاريخاً

محمد أحمد شقير
القاهرة - مصر



جانب من آثار حضارة الإنكا

الإنكا في الأصل قبيلة تنتسب إلى مجموعة الشعوب الكتشوانية التي استوطنت أعالي البيرو في أمريكا الجنوبية، والتي أسست إمبراطوريتها التي امتدت من شمال الإكوادور إلى وسط شيلي وذلك قبل الفتح الإسباني، وقد أطلق عليها اسم «توانتسييو» أي «ذات الأجزاء الأربعة».

ولفظة: إنْكا: مشتقة من اللغة الكتشوانية، وتعني حاكماً أو رجلاً من السلالة الملكية أو شعب الإنكا نفسه. والإنكا هي إمبراطورية هندية غرب أمريكا الجنوبية كانت قائمة قبل كشف كريستوفر كولمبس أمريكا، ومساحتها نحو ٦٠٠ ٠٠٠ ١كم٢. كان مركزها مدينة كوسكو أو كوزكو Cuzco، وهي إحدى مدن بيرو الرئيسة سيطرت في أوج عظمتها على جميع إقليم الإنديز، وامتدت رقعتها إلى مسافة ألفي ميل. عُرف عنها بأنها دولة متماسكة ومنظمة تنظيماً إدارياً وسياسياً لا مثيل لها. حكمها

إمبراطور كان يطلق عليه «الإنكا» ويعد بالنسبة إلى شعب الإنكا إلها على الأرض، وكل ما يطلبه من الإنكا الانصياع والطاعة لأوامره، ولكنه في الوقت نفسه كان مسؤولاً عن رخاء رعاياه ورفاهيتهم.

قامت الإمبراطورية على أسس الثيوقراطية (حكم رجال الدين)، فقد تزعمت حكم قساوسة يشكلون الهيئة الحاكمة في البلاد. والإمبراطور هو «الإنكا» الذي يُعتقد أنه من سلالة الشمس، كما يعدّ الهنود الناطقون بالكتشوانية من سلالات حضارة الإنكا؛ إذ إن عدداً منهم مازال يعيش في القرى الزراعية الجاثمة فوق هضاب بيرو.

التاريخ

بدأ تاريخ الإنكا Incas عندما جلب الرجل الأسطورة مانكو كاباك Manco Capac شعبه من كهوف الجبال إلى وادي كوسكو. وفي الفترة المبكرة من تاريخهم ١٢٠٠م - ١٤٤٠م استطاع مانكو إخضاع البلاد المجاورة، ووضعهم تحت سيطرته، واستمرت فتوحات الإنكا على هذا المنوال قرابة نصف قرن بقيادة باتشكوتي وابنه طوبا إنكا، واستطاع هيوانا كاباك، وهو آخر أباطرة الإنكا، أن يهزم الإكوادور، واستأنف أبناؤه من بعده الحروب على امتداد الإمبراطورية. وفي الوقت الذي حقق فيه أتاهوالبا Atahualpa النصر تلو النصر كان المستكشف الإسباني فرانسيسكو بيزارو قد وصل عام ١٥٣٢م للشروع في الغزو الإسباني لإمبراطورية الإنكا. وأول عمل قام به هو إعدام أتاهواليا ودخوله مدينة كوسكو العاصمة.

وعلى الرغم من العصيان والتمرد عام ١٥٣٢م - ١٥٣٧م تزعمه مانكو كاباك، فقد تم إخضاع الإنكا حتى خسارت معنوياتهم وثرواتهم (من إسبانيا)



شعب الإنكا برع في الأعمال اليدوية

ثقافتهم في نهاية الأمر، وعاشوا يرزحون تحت وطأة الظلم عدة قرون. وقد بُذلت الجهود في الآونة الأخيرة لإدماج أسلافهم (وهم يشكلون ٥٠٪ من السكان) في الحياة القومية لبيرو. ويقدر عددهم الآن بنحو ٣ ملايين نسمة، بينما وصل تعدادهم في عهد إمبراطوريتهم المترامية الأطراف بين ٨ و١٢ مليون نسمة، وهو ما يُعرف الآن باسم بيرو والإكوادور وأجزاء واسعة من شيلي وبوليفيا والأرجنتين.

دور القساوسة

أدى القساوسة دوراً إستراتيجياً في مجتمع الإنكا، فكثير من القرارات كانت تعتمد على المراسم الاحتفالية الكهنوتية التي تعودوا إقامتها بما كانوا يقدمون من قرابين وأضحيات بشرية وغير بشرية، كما أكبوا على بناء المعابد وإصلاحها وترميمها، واختاروا النسوة لتحضير الطعام في مثل هذه الاحتفالات، وكن يلبسن أفخم الثياب وأجملها خصوصاً عندما يكون هناك أضحية بشرية من الأسرة الملكية أو من بين القساوسة أو الأشخاص العاديين، وكانوا يعدّون هذه التضحية شرفاً لهم. إضافة إلى ذلك اشتغل القساوسة بمعالجة المرضى باستعمال الأعشاب والنباتات البرية والطقوس الدينية، وأجرى الجراحون منهم عملية أطلقوا عليها اسم «تريفايننج» Trephining والتي كانت تشمل قطع جزء من الجمجمة لاعتقادهم أنها تخفف الضغط على المخ أو إخراج الأرواح الشريرة.

وتعد الإنكا الجنائز عملاً مقدساً، وأن الناس يعيشون في السماء أو في جهنم بعد الموت. وإذا ما توفي واحد من الشخصيات المرموقة فإنه يدفن فوق الأرض داخل غرفة مبنية من الحجر، وأما الباقون فإنهم يوضعون في حفر أو كهوف أو

[illegible] خاصة [illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] للون المادي والإنسان [illegible]
مظاهر للذات الإلهية.

التراث الحضاري والثقافي

ومن عادات نبلاء الإنكا الاحتفاظ بتماثيل ذهبية ووضعها في كثير من المقابر، وكذلك ترصيع جدران منازلهم بألواح من الذهب. كما عرفوا كيف يصهرون المعادن ويشكلونها في قوالب، وفي المجال الموسيقي أحرزوا نوعاً من التقدم بدليل وجود بعض الآثار من حضارتهم، مثل الفلوت Flute (آلة نفخ موسيقية) مصنوعة من العظام [illegible] Trumpets مصنوعة من الصلصال [illegible] والأجراس ذات النغمات المتباينة، بعضها من [illegible] من الصلصال [illegible] تمهيدها [illegible] المعلقة فوق الأنهار [illegible] الساحلية [illegible] البطاطس [illegible]

النظام المالي

ليس لدى الإنكا نظام مالي [illegible]
[illegible] الكريمة [illegible]
[illegible] والمنقولات [illegible]
[illegible] الحرف [illegible]

[illegible] وطنية [illegible] وكان [illegible] طبقة [illegible] المواطنين حسب خطط متقنة، [illegible] الحكومة [illegible] والموظفين [illegible] المرضى والأرامل [illegible] منتظمة من [illegible] الإمبراطورية [illegible] أفراد الشعب [illegible]

الاتصال والتعليم

[illegible] وسيلة التنقل [illegible] إلى آخر هي المشي لأنهم لم [illegible]

[illegible] «[illegible]» [illegible] Plunder) هي وسيلة [illegible] بين الأفراد [illegible] اللغة [illegible] وكانت هناك [illegible] تحدث بها كثير من فئات الشعب المختلفة.

[illegible] الرسائل فقد كانت ترسل [illegible] الطرق [illegible] وصولها في أقصر [illegible] إلى أصحابها. أضف إلى [illegible] الإشارات كالنار والدخان.



حديث الأجيال

[illegible] الإنكا [illegible] في مضمار [illegible] النجوم والكواكب [illegible] ملاحظاتهم في التنبؤ [illegible] وعرفوا كيف [illegible] بأعمال حسابية [illegible] المباني والطرق والحقول المصطبة؟

أما الإمبراطورية فقد كانت مقسمة إدارياً إلى مجتمعات محلية، وذلك عن طريق [illegible] دقيق يقوم [illegible] الإحصاء والمسح على

العاصمة كوسكو في سطور

- مدينة صناعية وتجارية في جبال الإنديز بجنوب بيرو، ومعناها «السُرّة» Navel، ومجازًا المركز أو الوسط.
- تقع على ارتفاع ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر في الجنوب الشرقي من ليما.
- بلغ عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٩٩٣م نحو ٢٥٧,٧٥١ نسمة معظمهم من الهنود.
- أسست في القرن الحادي عشر لكونها العاصمة القديمة لإمبراطورية الإنكا.
- منطقة جذب سياحي لآثارها القديمة ومبانيها ذات النسق المعماري الإسباني الرفيع.
- منطقة زراعية خصبة تزدحم بالسكان، وتشتهر بتربية الأغنام وزراعة الحبوب والدخان وصناعة الشيكولاتة.
- بها جامعة يطلق عليها اسم «روما الأمريكتين» Rome of the Americas يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٨م، وكاتدرائية النهضة، وبعض الآثار التي خلّفها الإسبان.
- استولى عليها الإسبان بقيادة فرانسيسكو بيزارو عام ١٥٣٣م.
- أعيد فيها بناء القنوات والمدرجات القديمة المجاورة لزيادة الرقعة الزراعية.
- تعرضت لحريق كاسح عام ١٥٣٦م، ولزلزال مدمر في عامي ١٦٥٠م و ١٩٥٠م.
- تمتاز بمناخ بارد ودرجة حرارة تصل إلى ١١ مئوية.

خيوط مغزولة ذات ألوان متعددة يطلق عليها اسم «كويبا» Quipa. كما كان لا يعرف هل كان للإنكا أي شكل من أشكال الكتابة، أم كانوا يكتفون بالمخاطبة الشفوية.

طبقة النبلاء

كانت الأسرة الملكية الكبيرة تشكل طبقة النبلاء الذين اشتهروا بقوتهم ومواهبهم، وهم المتحدثون بلغة الإنكا، والمهيمنون على المستعمرات في جميع أنحاء الإمبراطورية، ومن مزاياهم أنهم نموا بين الناس كثيراً من المهارات، كالأعمال اليدوية والبناء وفن العمارة، واستطاعوا أيضًا أن يجمعوا ثروات طائلة وخيالية من الذهب والفضة. أما الموظفون الأقل درجة فكانوا يشكلون طبقة من النبلاء أقل منزلة وأهمية.

النشاط السكاني

استطاع مهندسو الإنكا عن طريق بناء المدرجات والري أن يحولوا الأرض القاحلة إلى أرض خضراء خصبة فزرعوا البطاطس والبطاطس الحلوة والذرة والقمح والمنيهوت Cassava وغيرها من الفواكه والنباتات. كما استأنسوا بعض الحيوانات، مثل الكلاب والخنازير واللاما والألبكة* لتساعدهم في أعمالهم اليومية الشاقة. وقد قامت أعمال تشييد وبناء جبارة في مدن كبيرة مثل ماتشو وبكتشو، حيث استخدمت قوالب من الطين المجفف يصل ارتفاعها إلى ٦ أمتار، وتزن الكثير من الأطنان، كما صنعوا أدوات البناء مثل كرة الفادن، وهي خيط في طرفه قطعة رصاص يسبر بها غور المياه، أو تمتحن استقامة الجدار. ولم يغب عن بال الحكومة إقامة شبكة من الطرق المعبدة والجسور بأنواعها والمعديات ومحطات الترحيل.

نهاية الإمبراطورية

ومع وصول الإسبان الفاتحين كانت الإمبراطورية الإنكية قد ضعفت وحان قطافها بسبب الحروب الأهلية الطاحنة، وتم سقوطها بسهولة على يد «بيزارو» وحفنة من رجاله المتعطشين إلى الثروة فكانت مأساة تاريخية مروعة. وقد ساعد على إبراز أهمية إمبراطورية الإنكا القديمة ومكانتها الكاتب الإسباني جوان دي بتانزوس عندما نشر - مقالاً مستفيضاً في عام ١٨٧٠م يصف فيه إمبراطورية الإنكا وإعادة اكتشافها بعد ٤٠٠ سنة من البحث والاستكشاف.

المراجع والهوامش

١. مجموعة من الموسوعات العربية والأجنبية:
- أكارتا، هتشنسون، جروليار، كومبتون، والموسوعة العالمية... إلخ.
- الموسوعة العربية الميسرة، موسوعة الشباب للدكتورة فاطمة محجوب.
- ١٠٠٠ حدث عظيم للكاتبين لين سابل وفيليب ستيل.

٢. قراءات حرة في بعض الصحف والمجلات والكتب العربية والأجنبية.

٣. متابعة الاستماع إلى الإذاعات العربية والأجنبية، ومحطات الإرسال التلفزيوني والإنترنت.

* الألبكة: جمل صغير لا سنام له يعيش في أمريكا الجنوبية، ويعرف برقة وبره وليس له اسم عربي. والأصل من لغة سكان البيرو. (معجم المصطلحات العلمية والفنية. إعداد وتصنيف يوسف خياط. ص٣٢)

استخدام الرَّقِّ في كتابة المصاحف في العالم الإسلامي

عبدالله بن محمد المنيف
الرياض - السعودية

تعد المصاحف المبكرة المكتوبة على الرَّق من نوادر المخطوطات الإسلامية، لهذا نجدها تباع بمبالغ باهظة في المزادات العالمية. ولندرة هذه المخطوطات أحببت أن أكتب عنها في هذه المقالة منوهًا بأهميتها الفنية، متعرضًا للمراحل التي مرت بها، وطرائق صنعها، ثم نهاية العمل بها.

لا بد لنا في البداية من الاطلاع على الكيفية التي اهتدى إليها الإنسان في التعرف إلى الرَّق؛ إذ من المعلوم أن المصادر التاريخية والأدبية تذكر أن الكتابة كانت تتم على كثير من المواد مثل: الحجر والطين والعظام والخشب وغيرها من المواد، وإن كان أهم ما كتب عليه الإنسان في تلك الحقبة الزمنية التي سبقت الإسلام هو ورق البردي، الذي أحدثت معرفة الإنسان له نوعًا من الطفرة المادية في العالم القديم، وإن كانت صناعتها وإنتاجها محصورين بأماكن محدودة، أشهرها مصر.

الرَّق والبردي

ويرجع كثير من المؤرخين صناعة الرَّق إلى ذلك التنافس الذي كان بين ملوك مصر من البطالسة وآل تالوس في برحامون أو برجامو، مما حدا بآل تالوس على التفكير في صناعة مادة للكتابة عوضًا عن البردي الذي كان يصدَّر إلى برجامو من مصر.

كما أن هناك من ربط بين اسم مدينة Pergamon والكلمة الأوروبية التي تطلق على الرَّق Parchment.

وعند دراستنا لهذا الرَّق لا بد من التفريق بين الكتابة على الرَّق والكتابة على الجلد، إذ إن الرَّق كان يعتنى بصناعته وترقيقه في المادة المراد أن تكتب عليه عناية خاصة، لذا يحق لنا أن نقول: إن الرَّق هو ما دُون عليه القرآن الكريم اعتمادًا على ما وجد لدينا من مصاحف شبه كاملة أو كاملة، أو جذاذات رَق كتبت عليها آيات من كتاب الله.

أما الجلد فإنه لم يصل إلينا، في حدود ما أعلم، شيء من آيات الله مكتوبة عليه من القرون الأولى للهجرة.



مصحف مكتوب على الرَّق بالخط الكوفي - القرن الثالث الهجري

وبهذا فقد استُعمل الرَّق والبردي جنبًا إلى جنب، وباستعمال الرَّق في نسخ المصاحف انتقل شكل المصحف من الأوراق المتناثرة أو المطوية إلى الشكل المكون من مجموعة من أوراق الرق، وبمقاسات واحدة، مثبتة بعضها فوق بعض، مشكلة رزمة ترتبط من أحد جانبيها الأيمن أو الأيسر، كما يمكن أن تربط من جانبها العلوي في بعض الأحيان.

كما تعددت مراكز صناعة الجلد أو الرَّق مع ما بينهما من اختلاف؛ إذ تذكر بعض الروايات أن الفرس اعتادوا الكتابة على جلد الجاموس والثور والغنم.

وبسبب الرائحة التي تنبعث من الجلد بعد دبغه وتهيئته للكتابة، تطلب الأمر أن تُستعمل بعض المواد التي تذهب تلك الرائحة الكريهة، فأصبح يلون بالزعفران الأصفر ويرش بماء الورد.

وفي رواية عند النديم يذكر فيها نوعًا من الدباغة أطلق عليه الدباغة الكوفية، وذلك تمييزًا لها من غيرها، وواصفًا إياها أنها لينة بقوله: «كانت الكتب في جلود دباغ النورة وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر وفيها لين».

ومن هذا النص يمكن أن يستدل على أن هناك دباغة كوفية أخرجت لنا رقًا كوفيًا كتب عليه في زمن النديم. كما يذكر الجاحظ عند حديثه عن شعر أبي الشمقمق «وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين بخط عجيب».

وقد اشتهرت بصناعة الجلد والدباغة في العصور المبكرة من تاريخ الإسلام أماكن منها: اليمن والطائف.

كما تزامنت ثلاثة أنواع من المواد التي مورست عليها عملية الكتابة في بداية الإسلام وفي العصر الأموي، منها: الرق الذي اختصت به الكتابة في أمور ذات بال، أو لها شأن وأهمية، مثل: كتابة المصحف ثم العهود والمواثيق، مع الكتابة على البردي أو القراطيس منذ العصر الأموي؛ إذ يذكر البلاذري حكاية عن أبي الحسن المدائني: «وأخبرني مشايخ من الكتّاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس من البردي، وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية» كما تحتفظ مكتبة الملك فهد الوطنية بأنموذج من أوراق البردي مؤرخ بالقرن الثالث الهجري يدل على أن ورق البردي استمرت الكتابة عليه مع تزامن انتشار الورق وتفضيله عند كثير من الكتاب ومعاصرته للرق أيضًا.

وقد استمرت الكتابة على الرقوق حتى عطل العمل بها الخليفة العباسي هارون الرشيد حين أصدر أوامره بعدم الكتابة على الرق واستبدال الورق أو الكاغد به، حين أشار عليه الفضل بن يحيى البرمكي بذلك، وذلك بعد انتشار الورق، وأمر الخليفة الناس ألا يكتبوا إلا في الكاغد. ولعل مما حدا بالخليفة هارون الرشيد - يرحمه الله - على أن يصدر أمرًا بوقف الكتابة على الرقوق وحصرها في الكاغد أو الورق، حدوث محاولة في تزوير الكتب الرسمية التي ربما كان يصدرها الخليفة نفسه.

الوثائق تتحدث

وعلى الرغم من ذلك فقد حبذ النسّاخ كتابة القرآن الكريم والحديث الشريف على الرق، فيما يظهر، حتى عصور متأخرة تأرجحت بين فترة وأخرى، كما تأرجحت بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه، إذ إن المغرب والأندلس، فيما يظهر، كانا أكثر تمسكًا بها، فقد وصلت إلينا منهما مجموعة من النماذج المكتوبة على الرق، مثال ذلك كراسة من صحيح الإمام البخاري مكتوبة في عام ٥٧٠هـ ومنسوخة في المرية في الأندلس، بالإضافة إلى وجود قطعة من أربع ورقات من القرآن الكريم منسوخة على رق بخط أندلسي مشكول بعدة ألوان ترجع تقريبًا إلى القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري.

كما يوجد بعض الوثائق المغربية التي ربما يرجع بعضها إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، ومكتوبة بخط مغربي غير مجود تمثل في غالبها وثائق تملك.

استمرت الكتابة على الرقوق حتى عطل العمل بها الخليفة العباسي هارون الرشيد حين أصدر أوامره باستخدام الورق والكاغد

أما تفضيل كتابة الحديث الشريف على الرق فيتمثل بمثالنا السابق، وهو كتابة صحيح الإمام البخاري على الرق في نهاية القرن السادس الهجري، كما ذكرت المصادر التاريخية أمثلة: منها ما رواه الخطيب البغدادي عن أحمد بن بنيل الكوفي، الذي بعث إليه الخليفة المعتز بالله ليأخذ الحديث عنه، حتى إذا دخل عليه واستقر في مجلسه وتهيأ لإملاء الحديث، أخذ الكاتب القرطاس والدواة، فقال له منكرًا: «أتكتب حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قرطاس بمداد» ؟!، وسأله الكاتب: «فيم يكتب إذن؟ قال: في رق بحبر»، فجاء بالرق والحبر وأخذ في الإملاء.

ويظهر لنا من هذا النص مدى حرص الكتّاب على تقييد الحديث والعلوم ذات الأهمية على مواد أكثر حفظًا، وشدة تمسكهم بمحاكاة ما كان عليه السلف الصالح، وأن القرآن والحديث نقلا عنهم في رق، كما يفهم منه ما تحمله تلك المادة من شرف وسمو، ومدى حرص الكتّاب أيضًا في ذلك الزمان على التفريق بين المداد والحبر، واللذين ربما كانا يطلقان على شيء واحد.

كيفية صناعة الرق وتهيئته للكتابة

ليس من السهولة بمكان التوصل، بعد كل هذا الفارق من الزمن، إلى معرفة الطريقة التي يمكن من خلالها تصور الكيفية التي تتم بها تهيئة رقوق الكتابة للناسخ، على أن استقراء النصوص التاريخية ومحاولة تطبيقها على الواقع قد يعينان على ذلك، مع علمنا أن مثل هذا العمل ليس باليسير، وإنما هو محاولة لتعرف الكيفية التي تتم بها تلك التهيئة؛ بداية من اختيار نوع الحيوان الذي يمكن أن يكون جلده أفضل من

غيره، ويدخل في ذلك الاختيار أيضا كثير من العوامل مثل: سن ذلك الحيوان ونوعه، والأجزاء المفضلة منه.

ويحضر الرق عادة من جلود حيوانات مختلفة من بينها الأغنام والغزلان والعجول، كما تستخدم بعض أجزاء الحيوانات مثل الأمعاء كمادة للكتابة، وإن كان استخدام الأمعاء قليلا جدا بسبب رقتها المتناهية، وتدرنها أو تثنيها، فضلا عن صغر المساحة التي يمكن أن يستفاد منها للكتابة إذا علمنا أن أقصى عرض ممكن أن تصل إليه تلك الأمعاء (١٠سم). وقد اطلعت على بعض النماذج من الرقوق المستخرجة من أمعاء الحيوانات، ووجدت أنها ذات عرض قليل، ولا يمكن أن تكتب عليها إلا بعض العبارات، أو بعض آيات الله مثل آية الكرسي، أو بعض الأدعية القليلة الكلمات مما يعني عدم إمكان استخدامها مادة لكتابة القرآن الكريم كاملا عليها.

أما الكيفية التي تتم بها صناعة الجلد وتهيئته وترقيقه فقد مرت هذه العملية - فيما نعتقد - بمراحل كثيرة وتجارب متعددة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من ترقيقه وإخراجه بالشكل المناسب والمقبول للكتابة عليه، على أن هناك من يرجح أن الرقوق القديمة كانت تستخدم أو تحضر من الطبقة الخارجية المملوءة بالشعر، وهي ما يطلق عليها الجلد. ويعامل الجلد في بداية الأمر بمادة الشب لإزالة الصوف أو الشعر، ثم يشطر الجلد نفسه بواسطة سكين خاصة وحادة لكي يفصل بين طبقتي الجلد الخارجية والداخلية، ثم تشد الطبقة الداخلية على إطار خشبي ملائم، ويقوم الصانع بدلك وجه الجلد بمادة ماء الجير (الكلس) لإزالة المواد الدهنية العالقة بالجلد بآلة خاصة هلالية الشكل، أو حجر خاص يعمل بيرد الجلد حتى يتم ترقيقه بالشكل المطلوب، وكلما كان هناك دلك أكثر كان هناك فقدان لطبقة الجلد حتى تصل إلى درجة الشفافية أو ما دونها بقليل، بعد ذلك يرطب الجلد بالماء الساخن وتزاد عملية الشد على الإطار الخشبي، وتستمر عملية الدلك على الوجهين بالتعاقب، ثم يتم تجفيف الجلد تدريجيا ليكون صالحا للاستعمال، ثم يقطع إلى قطع مناسبة كما يريده النساخ أو العاملون في الوراقة، وكلما كان الحيوان المستخدم جلده صغيرا في

نموذج آخر من المصحف المكتوب على الرق

السن كان الرق أجود. على أنه يمكن للشخص عن طريق الممارسة وإطالة النظر في بعض المصاحف الموجودة في المكتبات والمتاحف المحلية والعالمية أن يلم بشيء من المعرفة في التفريق بين أنواع الرقوق؛ إذ إنه من المتيسر على الفاحص لتلك الرقوق أن يميز بين رق الأمعاء، ورق الحيوانات الصغيرة والغزلان، والرقوق المستخرجة من صغار العجول؛ إذ إن الأولين أقل سمكا وأكثر طراوة من الأخير. مع العلم أن مثل هذه الثقافة العملية لا يمكن أن يكتسبها الإنسان وينقلها للآخرين إلا بكثرة الممارسة الفاحصة، وعلى أي حال فليس بالضرورة أن يكون صحيحا، وبدرجة جيدة من الإتقان، ما يذهب إليه الإنسان من تمييزه لأنواع الرقوق، ومن أي حيوان استخرجت؛ إذ قد يشوبها شيء من الاختلاف.

ولم تكن صناعة الرق سهلة، وإنما كانت عملية شاقة وطويلة تتطلب مهارة فائقة، تتوقف أولا وبشكل رئيس على مهارة الصانع وخبرته ومدى تمرسه في هذه الصناعة، ثم على نوع الحيوان الذي استخدم جلده وعمره ثانيا.

ومن المعلوم أن هناك عددا من نماذج الرقوق المبكرة يضاهي ويفوق من ناحية الجودة ما يصنع من رق في الوقت الحاضر، مع ما يوجد في هذا الوقت من تقنية ووسائل متقدمة.

ومن أغلى الرقوق ثمنا هو ذلك النوع الشفاف الذي يصنع من الحيوانات الصغيرة السن ويعرف باسم Vellum أو الحيوانات الصغيرة بعد ولادتها بفترة وجيزة وتعرف بـ Non Borene.

ولعل أهم ما يجب أن يتميز به الرق الجيد: أن يكون رقيقا وطريا قابلا للطي أو اللف أو الثني بيسر وسهولة، ويمكن أن يستخدم على شكل لفافة Rouleau أو شكل كتاب Co-dex، وأن يكون خاليا من العيوب كالشقوق والثقوب، صقيل السطح يساعد على الكتابة. لذا قيل: سمي الرق بهذا الاسم لجمعه بين الرقة والمتانة وطول البقاء.

أسباب شيوع استعمال الرق في الكتابة، ومميزات الكتابة عليه وعيوبها

لقد أغرى الرق العرب مما جعلهم يفضلونه على كثير من وسائط الكتابة لعدة ميزات، ذكرها ابن خلدون في مقدمته وهي: قلة التآليف صدر الملة، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك،

يحضر الرقّ عادة من جلود حيوانات مختلفة من بينها الأغنام والغزلان والعجول، كما تستخدم بعض أجزاء الحيوانات مثل الأمعاء كمادة للكتابة

لذا اقتصر على الكتابة في الرقوق تشريفاً للمكتوب، وميلاً للصحة والإتقان.

ولعل من أسباب تفضيل الرقّ أيضاً على سواه من وسائط الكتابة في بداية الأمر، متانته وتحمله، بالإضافة إلى بقائه أطول مدة ممكنة عما سواه. كما تميز الرق بقبوله للألوان مثل الأزرق والبنفسجي والأحمر.

ويذكر القلقشندي بعض الأسباب التي جعلت الصحابة - رضوان الله عليهم - يفضلون الرقّ على غيره في كتابة المصحف، من بينها طول بقاء الرق، ولأنه كان هو الموجود عندهم. وإذا ما ناقشنا هذا الرأي عند القلقشندي فيمكننا القول: إن القرآن الكريم كتب في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - على مواد مختلفة ذكرناها سابقاً، وكان من ضمنها الرق، والذي يظهر لدى الباحث أن استئثار كتابة المصحف على الرقّ كان بسبب الإرهاصات المبكرة في بداية عصر التدوين في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما جعل الصحابة - رضوان الله عليهم - يؤثرون كتابة القرآن الكريم على الرقّ، ربما لما ظهر لهم من سهولة القراءة فيه، وسهولة حفظه واستنساخه، لأنه - كما هو معلوم - ليس من اليسير كتابة القرآن الكريم كاملاً على العسب مثلا، وكذلك سهولة حمله للقرّاء، وكذلك تدريسه للصبيان في تلك الوسائط التي كتب عليها المصحف.

والسبب الآخر أنه ليس بالضرورة - كما قال القلقشندي - أن الرقّ كان هو الموجود عندهم حينذاك؛ إذ من المعلوم أن هناك مواد كثيرة، ولكنها غير مناسبة لكتابة القرآن عليها ليصبح في متناول الأيدي، ربما لعدم وجود مادة تفوقه في المميزات، إلى أن عرف العرب الورق، وكثر بينهم، مما جعل الرشيد يأمر الناس ألا يكتبوا إلا في الكاغد. كما تميزت الرقوق بإمكان استخدام الوجهين في الكتابة فضلا عن استخدام الوجه الواحد أكثر من مرة؛ وذلك بعد كشطه أو غسله وإعادة الكتابة عليه مرات متعددة. بالإضافة إلى مقاومتها لضغط القلم، وإبرازها للكتابة المسجلة فوقها بشكل واضح وجذاب، إذ لا يخشى على الرقّ من الثقب كما هو الحال بالنسبة إلى أوراق البردي.

أما عيوب الرقّ فقد راوحت بين الرقّ في مادته الخام الأولية، والرقّ بصفته وسيلة ووسيطاً للكتابة عليه، فالرقّ ليس من السهل تحضيره؛ وذلك لاشتراط الحيوان المناسب، فليس رق الحيوان الصغير مثل الحيوان الكبير. كما أن رق الغزال لا يجاريه رق آخر.

أما عيوب الرقّ كسائد للكتابة فهي - كما يذكر القلقشندي - قبوله للمحو والإعادة والتزوير.

ولعل خير مثال على عيوب الرقّ ما ذكره الجاحظ في الرسالة التي ساقها إلى محمد بن عبدالملك الزيات، قائلا فيها: «وأنت تعلم أن الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت، إن كان يوم لثق استرخت، ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول الغيث، وتكره إلى مالكيها الحيا، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها، ثم يفند عيوبا أخر بقوله: «وهي أنتن ريحا، وأكثر ثمنا، وأحمل للغش، يغش الكوفي بالواسطي، والواسطي بالبصري، وتعتق لكي يذهب ريحها، وينجاب شعرها، وهي أكثر عقدا وعجرا، وأكثر خباطاً وأسقاطاً، والصفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخط فيها أعم، ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير».

نهاية العمل بالرقوق

ليس هناك فترة زمنية محددة أو سنة بعينها كان بها نهاية العمل في الرق، بل يمكننا القول: إن نهاية العمل بالرقوق في المكاتبات الرسمية كانت في عهد هارون الرشيد، واقتصرت الكتابة في الرقوق على المصحف الشريف والحديث النبوي، وكذلك العهود والمواثيق كما أسلفنا؛ إلا أننا نجد رقوقاً مكتوباً عليها وثائق وتملكات من المغرب العربي تعود إلى القرن الثالث عشر الهجري، كما استمرت كتابة الحديث الشريف عليه حتى نهاية القرن السادس الهجري.

وبذا يمكننا أن نقول: إن الكتابة على الرقوق انتهت في المكاتبات الرسمية، ولكنها بقيت في الحياة العامة، وقد تتكشف لنا بعض الحقائق أو يمكننا الحصول على بعض الرقوق في عصور متأخرة عما سبق أن ذكرناه، وذلك عن طريق إجراء بعض التنقيبات الأثرية في المواقع الإسلامية، أو الحصول والتحقق من بعض المجموعات المكتبية أو المتحفية المنتشرة في عالم اليوم، والتي ربما احتوت على معلومات معمّيات عنا في الوقت الحاضر.

قانون العرفية عند قبائل الجنوب التونسي في القرن التاسع عشر

ديمبرو دجيو
ترجمة: خليفة الخياري
سليانة - تونس

لم ينل المجتمع التونسي قبل إعلان الحماية الفرنسية عليه سنة ١٨٨١م حظه من الدراسة والتوثيق، ولا سيما النظام القبلي ونمط العيش في البوادي.

فالمؤرخون لتلك الفترة الحرجة من تاريخ تونس محضوا جل اهتمامهم لمتابعة ما تشهده الإيالة، بعين السلطان. حتى إن الأرياف أصبحت لا تذكر في كتبهم إلا لسببين، إمّا لانتفاضة شهدتها تلك المنطقة ولا يتجاوز المؤرخ حدود تفصيل ما أصدر ذو التاج من مراسيم رادعة، وما أنزل بالرعاع المارقين من عقوبات... وإما لخروج محلّة لاستجلاب المجبى ومختلف الضرائب التي كانت تحصل بشتى الوسائل الزجرية، ويكون التركيز عادة على الكوارث التي تحول دون ارتفاع تلك الضرائب!

وقد ركز الاستعمار الفرنسي، قبل بسط نفوذه، على الجانب العقدي والطبيعة العصبية لدى أغلب القبائل التونسية التي يمكن أن تشكل خطراً على مشروعه، فمهد ببث جملة من الدارسين مهمتهم الأساسية تفكيك البنية القبلية للمجتمع التونسي أولاً، ثم المساعدة على تمكين الجيش الفرنسي من المعلومات الكفيلة بالسيطرة على تلك القبائل بأيسر السبل. وفي هذا الإطار تتنزل دراسة الضابط المترجم ديمبرو دجيو الذي عايش أهل الجنوب حتى أطلقوا عليه اسم «قدّور»..واستأنسوا بوجوده بينهم إلى أن تمكن من إجراء هذا التحقيق الطريف.

لكن إذا نحن عزلنا هذا العمل عن غايته الاستعمارية، وتأملناه من وجهة نظر حضارية نجده من الأهمية بمكان. فبغض النظر عن كونه ينير لنا جانباً خفياً من النظام الذي يسود حياة القبائل التونسية، يمكن أن نتخذ من هذا العمل نافذة لاستجلاء المهدات الاجتماعية للهيمنة الأجنبية، أو بعبارة أخرى نافذة لدراسة مسوغات الاستعمار من وجهة نظر اجتماعية محض؛ لذلك نعرّبه ونعيده للقراء بعد أكثر من تسعين سنة من صدوره(١).

الوثيقة

قبل السيطرة الفرنسية على تونس، كانت القبائل المتاخمة لحدود الإيالة في صراع دائم لا مع جيرانها من الطرابلسية

فحسب، وإنما أيضاً مع قبائل تونسية أخرى تنتمي إلى صف مضاد. وكان الصراع يدور دائماً حول الإغارة على قطعان الماشية أو الإبل.

ومن كان يعدّ اليوم غنيّاً يصبح بين عشية وضحاها أشد إملاقاً ومن أفقر أفراد قبيلته.. وفي خضم هذا الصراع المستمر يستثار النقع وتسقط الضحايا. وانطلاقاً من فكرة الإثراء على حساب الآخرين، تطفو إذن فكرة الثأر لأب أو أخ أو قريب قتله العدو(٢).

وقد استمرت تلك الحالة من الفوضى على الحدود حتى بعد إعلان الحماية إلى سنة ١٨٨٩م، فترة تشوب الصراعات داخليّاً في أوقات معلومة بالتداول، منحصرة بين الملاكين المستهدفين من التونسيين والليبيين.

وتكوّن القبائل التونسية على الحدود مجمعاً من «الورغمية» وكلهم من أصل بربري. هذه القبائل، إذ تطورت وأثرت من الماشية والإبل، وجدت نفسها مجبرة على سنّ أقيسة لوضع قطعانها في مأمن من هجمات العدو، فاجتمع أعيان من بطون شتّى وشرعوا نظاماً لفض كل المسائل الناشئة من جراء افتكاك القطعان، وقد اصطلح على تسمية هذا النظام بقانون العرفية.

قانون العرفية

ونفهم من قانون العرفية أنه نظام أملاه العقل، وهو ساري المفعول بالممارسة لحسم بعض الاختلافات. وقد كان هذا القانون معمولاً به ومعروفاً لدى كل أهالي الجنوب التونسي قبل وصولنا إلى البلاد.

وشيخ العرف ـ عموماً ـ رجل مسن، عاقل، ذو تأثير ومحايد، كان يكلف تطبيق بنود هذا القانون. ونحن إذ نقدم للقارئ بسطة عن الإغارات، نضع بين يديه بعض فصول قانون العرفية. وسنحاول في البداية تبيّن طريقة انتظام الأهالي الخارجين للإغارة. وفي العادة نطلق دائماً على كل إغارة يقوم بها عدد ما من الفرسان «الغزوة» بينما تنتظم الجماعات من هذا النوع في ثلاثة أصناف محددة:

ـ الغزو: وتعني كوكبة كبيرة من الفرسان المسلحين يتجاوز عددهم أحياناً أربعمئة فارس أو أكثر.

ـ الزّغبة: وتعني على النقيض ثلّة من الفرسان لا يبلغ عددهم الأربعين.

ـ الجيش: نطلق على عصابة من المترجّلين مسلحين وتشبه قطّاع الطرق عندنا(٣).

لنتابع الآن خطوة خطوة زمرة من الفرسان تخرج للإغارة.

حسب معلومات مؤكدة، هناك قطعان من الغنم أو الإبل ترعى في جهة معينة تحت رقابة رعاتها.. يتداول ثلة من الفرسان الخبر بينهم ويقررون الانطلاق بعد العشاء، ويتم تحديد مكان للاجتماع، ذلك أنه لا ينبغي إشاعة موعد الخروج لعدة أسباب: قد ترغب مجموعة أخرى من الفرسان في الانضمام إلى المجموعة فيقل نصيب الواحد من الغنائم، ومن ناحية أخرى يمكن أن يسبق أحد الوشاة فينبّه أصحاب القطعان.

الاستعدادات للإغارة

الغرض من هذا الملتقى هو تحديد نصيب كل مشارك حسب جدارته، فقد يكون لهذا نصيب واحد، بينما يمكن أن يتجاوزه نصيب فرد آخر بنصف مقدار الأول أو ضعفه؛ لأنه مقدام، ويجيد الرماية وركوب الخيل.

كانت الإغارة على قطعان المواشي والإبل تجعل الغني بين عشية وضحاها أشد إملاقاً، ومن أفقر أفراد قبيلته

يتفق أن يتقدم أحدهم فيلقي عصاه على الأرض فتعلّق عليها «الزّميطة» (حبوب الشعير مطحونة تجهز غذاء). ثم يأخذ اثنان غيره العصا من طرفيها ويرفعانها عالياً، فيمر كل الفرسان من تحتها بينما يطوف آخر حولهم طواف افتخار. ويقع الاختيار لهذا الدور على فارس يمتطي جواداً رمادي اللون أو أبلق، وهما اللونان المحبذان. ويسمي الأهالي هذه المجموعة من الفرسان «سبيب» وتعني الشعر الذي في أسفل ذنب الفرس. وهو الاسم الذي سنعتمده لذلك لاحقاً.

يأخذ «السّبيب» طريقه بعد أن يكون قد اختار قائده، وهو في العادة رجل شجاع، خبير بخفايا المنطقة. وسبق أن أثبت جدارته حيث عمل ضمن فرقة «الشّوافين» أو فرسان الطليعة ذوي الأنظار الثاقبة والأمهر امتطاء. فهم بمنزلة الأدلة.

أما بقية السبيب فيسمون «التُّبّاع» أو اللاحقين. وعند أهبة الانطلاق، لا يقول الفرسان: «يا الله نسيرو» وإنما: «يا الله نغنمو». وعندما يلاقون في طريقهم بعض النباتات الشوكية يقال بدل «هذي سدره»: «هذي كرمه» أي شجرة تين(٤) ولمّا يعترض السبيب عابر سبيل، ويبادر هذا الأخير بالسلام لا يقول: «السلام عليكم»، ولكن يقول: «أغنمكم الله». وبدلاً أن يجيب الفرسان: «وعليكم السلام»، يردون التحية بقولهم «من

سعيهم لا يحرمنا الله» (أي من قطعان العدو).

وفي الطريق يمنع تمرير الساق نحو الأخرى فوق السرج للاستراحة فذلك طالع سوء. واعتراض شخص من «الجلالطة» كان طالع شؤم. أما اعتراض فرد من «الجليدات» فيمثل فألاً حسناً. وعندما يصادف السبيب فرداً من «بني مريم» فإنه يعود أدراجه، ويؤجل الخروج إلى يوم لاحق إجلالاً لأهالي هذه الفرقة. والتقاء غرابين يمثل طالع بركة لأنهما «سعدين والحال زين». وإذا سكنت حركة الخيل عند ترجل الفرسان سواء للإفطار أو للاستراحة، يقال: «الخيل تسمرت نبغي نسعى»(٥). أما إذا كانت قائمة الفرس الخلفية من الناحية اليمنى قائمة على طرف الحافر فتلك علامة طيبة ويقال: «يقبض». ويقال عكس ذلك إذا كانت قائمته الخلفية من الجهة اليسرى على الهيئة السابقة. وإذا كانت ناصية الفرس منفرجة يميناً وشمالاً، فذلك أيضاً طالع خير يقال «الخيل يكونوا يقسموا في السعي». وحركة الخيل عند الاستراحة غير محمودة يقال: «الخيل مغلبة». وتنفس الخيل بقوة عند السير علامة مستحبة تنبئ بالكسب والإياب بالغنيمة. وأخيرا، لا تتبادل التحية في الصباح بـ «نصبحك بالخير» ولكن «نصبحك بالفايدة»، والجواب يكون: «بل، بل وعلومها شايده»(٦) (أي إبل ذات صيت وشهرة).

وعندما يمرض فارس في الطريق يعاد صحبة أحد مرافقيه أو اثنين منهم، ويقسم زاده من الزميطة وزاد رفيقه، ما عدا القليل مما يحتاجون إليه لأوبتهم بين أفراد السبيب ليؤكدوا له ولمرافقيه أنه، على الرغم من غيابهم، يظل حقهم في الغنيمة قائماً. والسبيب الذي يلاقي نساء قبيلة من أعدائه، قل وندر أن يجردهن من حليهن.

وعند الاقتراب من مواطن الكلأ حيث ترعى الأنعام المقصودة، يتقدم أحد الرجال ليتأكد من أن الرعاة في غفلة من أمرهم، ويعود ليعلم أصحابه الذين يسارعون إلى أسر الرعاة وإرغامهم على توجيه القطيع نحو منازلهم. وحين يبتعد السبيب عن مكان الإغارة يطلق سراح الرعاة، ويستأنف سيره، وحين يصل يتقاسم الفرسان الغنيمة.

كل شيء مر على أحسن ما يرام في الحالة السابقة، ولكن ليست الحال على ما رأينا دائماً، فالرعاة لا يؤخذون على حين غفلة عادة، ولا سيما في الليل، فعوضاً عن أن يناموا مجتمعين، يتفرقون، حتى إذا أوقف واحد أو اثنان منهم، ينجو الآخر فيذهب للاستصراخ. وتتنكب القبيلة المستهدفة السلاح، وتلحق بالمغيرين، ويلتحم الفريقان، هذا لا يريد التفريط فيما غنم، والآخر لا يتخلى عما ملك. فإذا كان الأول وافر العدد يستميت دفاعاً عن مغنمه، أما إذا كان عكس ذلك فيعمد للفرار، وعادة يلاحق ويعنف. ويحدث أحياناً أن يلجأ الفرسان المجبرون على التخلي عن الغنيمة إلى قطع أذناب الماشية وحملها تفادياً للاكتفاء من الغنيمة بالإياب. وإذا كان أحد الفرسان ماهراً فإنه يوثق قوائم خروف أو اثنين ويضعهما على ظهر مطيته قافلاً بهذا المكسب الصغير. لكن ذلك ليس بالهين في كل الأحوال خصوصاً إذا كانت العودة تتطلب قطع مسافة طويلة.

الغنيمة

تسمى الغنيمة «لجاما» ومعناه قطعة من أعنة الخيل، وذلك نسبة للجواد الفتك والمقود باللجام. ولما كان الغزاة يخشون نشوب خلاف مع قائدهم أو شيخ قبيلتهم، كانوا يتنازلون له، وإن لم يشارك في الإغارة، عن جزء من الغنيمة. ولما كانوا يتصرفون عن خشية، أطلقوا على ذلك النصيب كرها اسم «لجام اليهودي». أما «لجام التكيرة» فكان نصيباً يوهب لشخص ذي كرامات، أو لمارق عندما تكون المواشي المغنومة ملكاً لقبيلة من الأولياء الصالحين. والشخص الذي حصل على ذلك النصيب إذا رفض إرجاع نصيبه للأولياء المستهدفين، كان أصحابه يضطرون إلى سلوك مسلكه مستلين عليه كل لعنات الشخص الولي.

> التقاء الغرابين طالع بركة عند السبيب، بينما حركة الخيل في أثناء الاستراحة تدعو إلى التشاؤم

الحماية

إذا وضع أحد الفرسان فارساً آخر تحت حمايته بعد أن يكون قد أسره، يسمى ذلك «صنعه» بمعنى محمي أو مدين بحياته لآسره، لا أحد من رجال الصف المنتصر يستطيع الاعتداء على ذلك المحمي. وقد حدث أن عدوا واقعاً في حماية فارس قد قتله أحد رفاق هذا الأخير، فقام الحامي بإعدام من قتل محميه.

والفارس الذي ينقذ حياة آخر له أن يجرده جزئياً، أو أن يطلق سراحه دون أن يستولي على متاعه. وعلى المحمي عند الأوبة أن يرسل هدية إلى منقذه [ويجب ألا ننسى أن من عادة العرب تجريد أسراهم. وكان الأسرى في أغلب الأحوال يعودون ولا شيء يسترهم سوى إزار مقترض من قرية يمرون

بها في طريقهم].

والحماية التي تعقد في خضم الصراع تسمى «صنعة الضيق» لانعقادها في وقت حرج. أما تلك التي تمنح في أثناء ملاحقة وحيث يريد الثائر إنقاذ حياته بالتسليم فتسمى «صنعة الوسع».

والفارس الذي يحمي أخر لصلة تربطه بقريب لهذا الأسير أو لصداقة بينه وبين عائلته فهو: «على عيون» أي: (مراعاة لـ..). والشخص المار عبر ساحة قبيلة معادية، غير مستهدف إذا أعلن أنه «قاصد»، أي في طريقه لزيارة قبيلة ما. وكل شخص من قبيلة معادية مرافق بصديق يظل آمنا حتى يخرج من ساحة تلك القبيلة لأنه «مشيّع».

التعاضد

التعاضد «نعمار» هو اتفاق مبرم بين اثنين أو مجموعة من الأشخاص لاقتسام الغنيمة المحصلة جماعيا أو من طرف واحد فقط من المجموعة ويتنوع إلى عدة أصناف:

- عمار على الفارغ: يبرم عند الانطلاق إلى الإغارة، في وقت لم يغنم فيه السبيب شيئا.

- عمار الكبس: لإعطاء مزيد من الصلاحية للتعاضد يتبادل الطرفان غطاء رأسيهما.

- عمار الضيق: (تعاضد في لحظة عصيبة)، مثلا:

(أ) و (ب) خرجا للإغارة. تماسك الأول على ظهر حصانه بينما لم يتماسك الثاني. وعند بلوغ العدو لم يتوان (أ) عن تجاوز (ب). هذا الأخير يناديه: «راك عامرين» فيجيب الأول بالإيجاب، ثم ينجح في افتكاك جواد. (ب) يصل إليه فيأخذه ويعطيه حصانه. وبموافقة (أ) يمتطيه ويواصل الملاحقة. فإذا غنم (ب) فرسا يكون مناصفة بينه وبين معاضده، وإذا حدث عكس ذلك وقتل حصان (أ) فلا جناح على (ب) وأول دابة يغنمها هذا الأخير تقسم بين المتعاضدين.

طرفة

كان أحد الفرسان مترجلا يمشي وئيد الخطو متنكبا بندقيته غير مشحونة، بينما يواصل رفاقه إطلاق النار... ثم انطلقوا فارين، وحاصرت ثلة من الملاحقين ذلك المترجل وطلبوا منه تسليمهم سلاحه، فأجابهم: «لا ينبغي أن يبعث فيكم الذعر ما دام فارغا». وطلبوا منه نزع «الوزرة» فرد عليهم: «لطالما أمرتني أمي أن أحتفظ بها لتكون كفني» وأضاف متضجرا من مطالب الأعداء الساخرة: «هذا جبن، لا تنفع السخرية من رجل أعزل، إذا كان يجب أن أقتل، فلا تطيلوا الانتظار» ساعتها أطلق أحد الفرسان عيارا ناريا تجاه ظهره وقد وجد المصاب في نفسه القوة على الالتفات إليهم وقال لهم باصقا في وجوههم: «يا لنسل الكلاب طالما خبرت - وحق عليكم القول - أنكم ضباع لا تهاجمون إلا الجيف»، مشبها بذلك حاله، ثم خر صريعا. فلم يجد الفرسان الشجاعة لتجريده من وزرته فكفنوه بها. أما البندقية فقد أرسلوها إلى أمه(٧).

فصول من قانون العرفية

يحسم شيخ العرف المسائل «بالماضي» بمعنى إقامة الحد. مشهد قضائي ينسحب على كل فصول الحكم وكيفية تطبيقها حسب الحالات التي تطرح.

> كان لا بد لقائد «السبيب» أن يكون شجاعا وخبيرا بخفايا المنطقة، وممن أثبتوا كفاءتهم ضمن فرقة «الشوافين»

ولم يكن من اليسير أن يتوافر لنا مشهد قضائي في أثناء انعقاده، فالأهالي على حذر دائم، يجدون باستمرار المسوغ لعدم إظهاره؛ لذلك لم نتمكن إلا بعد لأي من الحصول على هذه الفصول المعمول بها غير تامة.

- كل بندقية افتكها العدو واستعيدت بعدئذ، ترجع إلى مالكها الأول دون أداء.

- كل فرس انتزعه العدو وأرجع بعد مدة يعاد إلى مالكه مقابل دفع ضريبة مالية قيمتها ١٥ فرنكا لمن أعادها.

- كل جمل ينتزع ويعاد في الظروف نفسها، كان يرجع إلى مالكه بمقابل يقدر بمبلغ ٦ فرنكات وينبغي أن يحمل الجمل السمة التي يعلنها المالك.

- إذا كانت الإبل حاملة لسمة القبيلة، وارجعت من طرف أهال ينتمون إلى تلك القبيلة، وقام هؤلاء بنحر أحدها يكون الحكم كالتالي:

• إذا كان الجمل «رباعي» (عمره خمس سنوات) يعاد بدله «سداسي» (عمره ست سنوات).

• إذا كان الجمل «مسن» (عمره أربع سنوات) يعوض بـ«رباعي» إضافة إلى ذلك فإن الخاضعين للأحكام السابقة لا يحيون إطلاقا بزغاريد النساء عند ركوبهم خروجا للإغارة.

- إذا أعيدت ناقة وظلت عند معيدها سنتين، تعاد الناقة فقط إلى مالكها الأصلي إذا أعلن عن سمتها.

ـ عندما يعاد جواد «عَريف» أي أرجع بعد افتكاكه وظل عند مرجعه ١٠ أو ١٥ يوما، يدفع من أثبت أنه مالكه ١٥ فرنكا، ثم ٠.٦ فرنكات يوميا طوال المدة التي احتفظ فيها بالفرس. هذا المبلغ الأخير يمثل المقابل اليومي لمستلزمات غذائه ويسمى «رماكه». وفي الربيع بما أن الفرس يتغذى من الأعشاب فقط، لا يدفع مالكه إلا المبلغ الأول.

ـ كل فارس يعيد جوادا، ويحتفظ به مدة معينة، ويركبه في غارة تموت فيها الدابة أو تفتك، عليه دفع أربعة جمال للمالك عوضا.

ـ الشخص الذي لوحق حتى خيمته وعكس الهجوم عند وصوله إلى هناك فقتل ملاحقه، لا حق لأهل القتيل عند القاتل.

ـ إذا كانت بعض الماشية في المرعى، وجاء أحد الأهالي وحداها، ثم فوجئ فقتل، لا تدفع الفدية لأهله.

ـ إذا كانت بعض المواشي في المرعى تحت رقابة فارسين وجاء فارس آخر من القبيلة نفسها منظاهرا بالإغارة وتم قتله لا تدفع الفدية لأهله.

ـ الشخص الذي يعير فرسه إلى آخر للإغارة لا يدفع عوضا إذا افتك منه أو قتل.

ـ إذا قتل الجواد وجلب راكبه جملة من الدواب، يأخذ مالك الحصان أولا أربعة جمال ثمنا للفرس. وله الحق في نصف الباقي مما جلب راكب الجواد.

ـ وفي الحالة نفسها وعندما يجلب الراكب غنما، فلمالك الفرس ٢٥ رأسا ويقسم ما تبقى مع المغير مناصفة.

ـ الشخص الذي يعير سرجه له الحق في ربع الغنيمة.

ـ والقيمة نفسها لمعير البندقية.

ـ وإذا قتل شخص فردا ينتمي إلى عائلة أحد سبق أن أنقذ حياته، يظل خارج دائرة الفرسان المشاهير والشجعان، ويلزمه العرف ذبح ثلاث شياه.

ـ كل شخص يجرد ضيفا لدى صديق معروف، عليه ذبح ثلاث شياه وإرجاع ما استولى عليه.

ـ والشيء نفسه بالنسبة إلى من جرد شخصا كان مرافقا بصديق.

ـ الفارس الذي يقتل نظيره، ويفتك منه فرسه يصبح مالكا له.

ـ الفارس الذي يستولي على جواد كان قد أسقط راكبه، أو قتل هذا الأخير من طرف شخص لم يستطع الإمساك بالجواد يصبح الحصان لمن استولى عليه أولا.

ـ الفارس الذي يستسلم له مصارعه، له أن يفعل به ما يشاء.

ـ ليس للفارس التسلل إلى أرض قبيلة معادية دون إعلام صديقه مسبقا الذي عليه أن يعترضه في مكان محدد سلفا.

ـ الراكب العدو لا ينبغي له ـ حتى وإن كان له صديق ـ القدوم إلى «دوار» فيه يوجد شخص قتل أباه أو أخاه أو أحد أبناء أخيه. والصديق نفسه لا يجوز له اقتراف خطيئة استقدام هذا الفارس في مثل هذه المناسبة.

وعندما يلتقي صديقان في معركة يبقى كلاهما على الحياد، ويتناوبان الاستفسار عن عائلتيهما، ثم يعود كل منهما إلى رفاقه، وفي أثناء التلاحم يحاول كل منهما تجنب الآخر، وإذا سقط أحدهما يأتي الثاني ليضعه تحت حمايته.

والسبيب الذي يعود مدحورا لا يدخل «الدوّار» إلا ليلا، فإذا كان هناك جرحى وقتلى، يرسل السبيب فرسانا لتأهيل القوم لتقبل الضحايا. والنساء اللاتي يفهمن ماذا يعني ذلك، يتهالكن أمام السبيب نائحات موقدات النار في الأعشاب.

الهوامش

١. صدرت هذه الدراسة سنة ١٩٠٢م بالمجلة التونسية Revue Tunisienne N-67 /Janvier 1902/P346 وهذه المجلة الدورية، على أهميتها التاريخية، لم تنل حظها من الدراسة على الرغم من توافر كل أعدادها مجمعة في مجلدات بدار الكتب الوطنية (فرع الدوريات). وعلى الرغم مما تحتويه من وثائق مهمة جدا تحتاج إلى إعادة قراءة وطباعة تتماشى مع خصائصها الوثائقية التي ما زالت تكتسبها بمرور الأيام.

٢. لم يفهم الباحث مسألة الثأر في الحياة القبلية بمفهومها الأخلاقي فاكتفى بتفسيرها تفسيرا ماديا، على الرغم من توسع ابن خلدون في دراسة مميزات الإنسان البدوي (انظر المقدمة/باب: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل).

٣. الاسم الأول عربي حرفه الاستعمال والظاهر أن أصله «الغزاة» وكذلك الثالث. أما التسمية الثانية فيبدو أن أصلها بربري، وإن كنا نجد في مادة (ز/غ/ب) معنى مجازيا يدل على القلة والضآلة: «ما أصبت منه زغابة: أي أدنى شيء» ولعل زغب ما زال مستعملا في عامية الجنوب التونسي. يقول الشاعر الشعبي على الشين «إذا زغبوا جابوا فرسان في نهار الغزو ينصابوا» بمعنى إذا أغاروا غنموا.

٤. تفطن المحقق إلى ظاهرة لغوية مهمة دون أن يهتم بأبعادها الحضارية. فتسمية الشوك بغير اسمه تتنزل ضمن عادة التطير عند العرب ونجد صداها في وقائعهم منذ الجاهلية. هذه الظاهرة الحضارية أفرزت ظاهرة لغوية يسميها النحاة «التلطيف» أي تسمية الشيء المكروه باسم مرادفه أو مقابله المستحب، مثلما نطلق اسم «العافية» على النار.

٥. يجب التفريق هنا بين السعي في صيغته الاسمية ومعناه الماشية باللهجة العامية، وبين السعي في صيغته الفعلية، وهو فصيح من سعى يسعى أي قام بعمل مربح.

٦. الظاهر أن المحقق أخطأ في التوقيت فهذه العبارة يبدو من معناها أنها تتردد قبل الافتراق للنوم.

٧. في النص الأصلي ثلاث قصص من قبيل النوادر، إلا أننا لا نرى حدثا غير مألوف في هذه القصص، لذلك اكتفينا بالأولى فقط، وهي الأطرف لطبيعة الحوار الذي دار بين الأعزل وأعدائه. ولعل أطرف ما في القصتين المحذوفتين أن بطلتيهما من النساء في مجتمع قبلي، ولكن ذلك في تاريخ العربيات مألوف، ولدينا أقاصيص متعددة عن الشهيرات العربيات منذ الجاهلية.

لغتنا الجميلة.. والحضارة الإنسانية

سعد دعبيس
الإسكندرية - مصر

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن اللغة في أي مجتمع ليست مجرد أداة للتعبير، أو مجرد وسيلة للتفاهم، لأنها - بإيجاز - وجود الإنسان وكينونته.. إنها وجدانه ومشاعره، وفكره وعقيدته، وقيمه ومبادئه.. إنها رؤيته للكون والحياة، والوجود والعدم، والماضي والحاضر، والغدوّ والمصير، إنها إنسانية الإنسان وقد انعكست من سماء النفس إلى آفاق الآخرين..!

فالفارق الحاسم بين الإنسان وغيره من الكائنات - كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود(١) - «هو أنه ذو لغة.. لا بمعنى الإشارات المبهمة التي قد نراها في بعض أنواع الحيوان حين يصيح فرد ليتنبه بقية أفراد نوعه لخطر داهم، أو ما هو من هذا القبيل، ولكن نقصد هنا «اللغة» بالمعنى الذي نعرفه في لغات البشر. فلغة الإنسان هي فكره، وأرجو أن تلحظ أني لم أقل: إنها أداة تنقل فكره، بل إنها هي.. هي فكره، وهي.. هي «وجدانه» وهي.. هي كل حياته اللاحيوانية.. ولك أن تقول: إن ما يكتبه الكاتب، أو يقوله المتكلم.. إنما هو «عقله» وقد ظهر من مكمنه إلى العلانية، وذلك إذا كان الموضوع من موضوعات العقل، وكذلك هو «وجدانه» وقد تجسد في موجات الصوت، أو في الكتابة المرقومة على الورق.. واختصارا، فلغة الإنسان هي نفسه، هي شخصه، هي حقيقته.. فإذا بقيت بقية غير منطوقة - طواها في أحشائه - فذلك مما لا يدخل في الحساب، عندما ننظر إليه بصفته عضوا في المجتمع»(٢).

لغة علم وحضارة منذ العصر الجاهلي

ولقد كانت اللغة العربية منذ أقدم عصورها: لغة علم وحضارة.. وحتى في العصر الجاهلي.. نرى بعض المؤرخين المحدثين(٣) ينادون بأن المجتمع العربي الجاهلي كان مجتمعا آخذا ببعض أسباب الحضارة، ويستدلون على ذلك بكثرة ألفاظ اللغة الدالة على القلم والورق والكتابة، فمن الألفاظ الدالة على القلم والورق: اليراع والأنبوبة والقرطاس والطرس والرق والصحيفة. ومن الألفاظ الدالة على الكتب: "السك - الزبور - الرقيم - السفر - الوصيرة (الصك للسجلات)...وهكذا.

وهناك فريق من المؤرخين المعاصرين يرون أن الشعر الجاهلي لم يحفظ عن طريق الرواية والسماع فقط، وإنما كانت الوسيلة الأولى لحفظه هي القلم والكتابة، ويستدلون على ذلك بكثرة ورود كلمتي: الكتابة والقلم في ألفاظ الشعر الجاهلي، أو في بعض تشبيهاته وصوره.. فالمرقش الأكبر مثلا يقول مشبها بقايا أطلال منزل الحبيبة ببقايا آثار سطور خطها قلم:

الدار قفر والرسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم

ويستهل لبيد معلقته بأبيات يصور فيها أيضا بقايا أطلال منزل الحبيبة تصويرا أقرب إلى تصوير «المرقش».. ونجد هذه الصورة لدى شعراء آخرين. وكان بعض الشعراء الجاهليين يكتبون أشعارهم، بل كتب بعضهم كلقيط بن يعمر الإيادي رسائل شعرية مكتوبة إلى قومه.. وكان بعضهم يعرف لغات أجنبية كعدي بن زيد الذي كان يعمل في بلاط ملك الحيرة.

ومن يرد المزيد عن قضية كتابة الشعر الجاهلي أو روايته، فليرجع إلى المراجع الخاصة بهذه القضية.. وعلى الأخص: كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد، الذي يعد من أهم الكتب التي قدمت ردا علميا موضوعيا على ما أثاره الدكتور طه حسين حين تحدث عن قضية انتحال الشعر الجاهلي في كتابه «في الأدب الجاهلي».

لقد كانت عبقرية العرب الأولى في

لسانهم، إنهم لم يعتزوا بشيء اعتزازهم بلغتهم، إذ هي لم تكن بينهم مجرد أداة للتفاهم، بل كانت أكثر من ذلك؛ كانت هي المجال الأساسي الذي انصبت عليه طاقتهم الفنية، ولا عجب أن يكون القرآن الكريم هو معجزة الإسلام(٤)!.

هذه اللغة هي أمنا الكبرى في شتى الأقطار والأمصار؛ لأنها لغة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ولأنها لغة التراث العلمي والأدبي الرصين الذي انحدر إلينا منذ أبعد الحقب، وغابر الأزمان، إنها لغة حضارية موحدة لشتات هذه الأمة، وواجبنا أن نحرص عليها ونصونها ونرعى تاريخها الحافل المجيد.. إنها عنوان عزتنا وكرامتنا، ووحدتنا وقوتنا، وبثقافة هذه اللغة وأدبها، وفكرها وعلمها، يمكن أن نعود الأمة العربية أمة موحدة قوية متماسكة. ومما يروى في هذا المجال أن القائد الألماني (بسمارك) قال ذات يوم: «إن أهم حقيقة يجب أن نسجلها في القرن التاسع عشر هي قيام الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا».

وقد سار (بسمارك) على هذا النهج في توحيد الولايات الألمانية، كما خطب (تشرشل) في أمريكا ذات يوم، وقال في جموع الأمريكيين في واشنطن: «يجب أن نعمل في القرن العشرين على تحقيق ما قاله بسمارك في القرن التاسع عشر»(٥).

لغة تربط العقيدة بالعلم والثقافة

ومنذ ظهور الإسلام أصبحت اللغة العربية لغة عقيدة ثم أبناؤها للعالم أرقى الحضارات وأسماها. ويكفي أن نعرف أن هذه اللغة تربط العلم والثقافة بالعقيدة رباطا لا فكاك منه.. فالقرآن الكريم يرفع العلم والعلماء إلى أسمى منزلة، ويقسم الله في محكم آياته بالكتاب: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾. القلم: ١.

باللغة العربية أصبحت الحضارة العربية حضارة كتب ومكتبات

كما يحض القرآن الكريم على القراءة والتعليم في أول سورة نزلت على الرسول الأمين، محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام؛ ومن هنا فليس بغريب أن توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة كتب ومكتبات! وفي ذلك يقول الدكتور أحمد بدر(٦): «وإذا كان المصحف الشريف هو أول كتاب ظهر في لغة العرب، فقد بدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري، وشهد القرن الثاني ظهور الكتب وحركة تدوين التراث والتاريخ، متأثرة في ذلك بطريقة كتابة الحديث، أي مشفوعة بسلسلة الأسانيد التي تؤكد الثقة والأمانة فيما يكتب فيها، حتى إذا جاء القرنان الهجريان الثالث والرابع، رأينا ازدهار حركة التأليف، خصوصا بعد إقامة صناعة الورق في بغداد ابتداء من عصر الرشيد، وظهور جماعة «الوراقين» التي تمارس الاستنساخ والفهرسة وغيرهما من الأعمال التي نطلق عليها في مصطلحاتنا المعاصرة «الببليوجرافيا».

أحمد بدر

ولحب المسلمين الأوائل للعلم والكتب والقراءة، فقد انتشرت المكتبات الخاصة لدى الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم، وكان كل خليفة، منذ القرن الثالث الهجري، يحرص على أن يضم مجلسه خيرة العلماء والأدباء والفقهاء، وكان مجلسهم مجلس علم فيه المحاورة والمناظرة والمحاضرة التي تعتمد على الكتب والمكتبات.

وإذا كان إنشاء المكتبات الخاصة نمطا مميزا لتلك الفترة، فقد عرفت الدولة الإسلامية مكتبات خاصة شهيرة، أهمها: مكتبة العباسيين في بغداد، وهي المكتبة المعروفة بيت الحكمة، ومكتبة الفاطميين بالقاهرة، ومكتبة الأمويين في قرطبة، وكان لهذه المكتبات الفضل الأكبر في حفظ التراث الإسلامي بل والتراث الإنساني القديم مترجما إلى اللغة العربية، يضاف إلى ذلك مكتبات المساجد، والمكتبات المدرسية، مثل مكتبة المدرسة النظامية في بغداد التي كان فهرسها يضم ستة آلاف مجلد(٧).

بالقرآن انتشرت اللغة العربية في معظم أنحاء العالم

أعطى الإسلام دفعة قوية للاتجاه الحضاري في اللغة العربية؛ ولذلك نرى شعوب البلاد المفتوحة تسرع إلى تعلم اللغة العربية.. لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، ولم يمض نحو قرن من الزمن،


مصطفى ناصف

حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي، لا بين المسلمين وحدهم، بل بين غيرهم أيضا ممن بقي على دينه القديم، وليس في البيئات التي كانت قد أخذت تستعرب في العصر الجاهلي، بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب، بل في البيئات النائية أيضا: في إيران ومصر وبلاد المغرب، وهي بيئات لم يكن لها بالعربية عهد من قبل، فإذا هي تتعرب، وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوروبية في الأندلس. ولا نكاد نتقدم في هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد

العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة(٨).

ويكفي أن نشير هنا إلى مثل يوضح النفوذ السحري العجيب للغة العربية على أحد هذه الشعوب، وهو الشعب المصري، حيث نجد في القرن الرابع الهجري أحد كبار القسس في مصر يشكو مر الشكوى؛ لأنه ألف كتاباً في تاريخ الأقباط عنوانه: «سير الآباء البطاركة». واضطر مرغماً أن يؤلفه باللغة العربية لا باللغة القبطية، لأنه لم يجد في مصر حينذاك من يفهم اللغة القبطية، وهي لغة المصريين التي كانت شائعة بينهم عند الفتح الإسلامي(٩)، أو من يعرف اليونانية..!

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالاً منقطع النظير، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها، واتخذوها لغتهم الأدبية التي يعبرون بها عن مشاعرهم وعواطفهم، ونبغ فيها عدد كبير من علمائهم وكتابهم وشعرائهم، كبشار بن برد، وأبي نواس - في الشعر - وسيبويه في النحو، وأبي حنيفة - في الفقه(١٠) - والفيروزآبادي - التركي في المعاجم (القاموس المحيط).

ترى.. لماذا بهرت هذه الشعوب في هذه البلاد المفتوحة باللغة العربية، على الرغم من أنها شعوب ذات حضارات عريقة. كشعب فارس، وشعب مصر، والشعب التركي، وغيرهم؛ ذلك لأن هذه الشعوب رأت في هذه اللغة عقيدتها وقرآنها، وحديث رسولها، ورأت أيضاً في هذه اللغة اتساعاً لمتغيرات العصر ومتطلباته، ومكتشفات الحضارة الجديدة في كل مجالاتها.

لغة تستوعب الحضارة في شتى مجالاتها

لقد اتسعت هذه اللغة للحضارة في شتى مجالاتها، ويكفي هنا أن نشير إشارة موجزة إلى روعة تقديمها وتصويرها للعلوم والآداب، فقد استطاعت أن تقدم للعالم العلوم الإنسانية بما فيها من فلسفة واجتماع، وعلم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النبوي الشريف، والفقه، وعلوم اللغة، والتاريخ والجغرافيا، كما استطاعت أن تقدم للعالم أيضاً: العلوم التجريبية، كالطب والصيدلة والكيمياء وغيرها.

روعة تقديمها للعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية

ففي مجال الفلسفة، استطاع المسلمون في ظل سماحة الإسلام، وحرية الفكر التي نادى بها، أن يترجموا الفلسفة اليونانية، واتخذها المعتزلة - مثلاً - سلاحاً للدفاع عن الإسلام، وسلاحاً لمجادلة خصومهم في قضايا «علم الكلام»، ثم أحبوها لذاتها، لما وجدوا فيها من متعة عقلية، ثم وجدنا بعض فلاسفة المسلمين يحاول أن يوجد صيغة وفاق بين الفلسفة والشريعة، بين العقل والنقل، ووجدنا فيلسوف العرب «الكندي» يجمع بين تأثره بفلسفة «المعتزلة» وتأثره بالفلسفة اليونانية، ولا سيما فلسفة أرسطو، ويجمع في ثقافته بين الفلسفة والطب والحساب والمنطق والهندسة! كما نجد «الفارابي» يتناول جميع كتب أرسطو، ويحذق في استخراج معانيها، والوقوف على أغراضها، كما يبرع في العلوم الرياضية وعلم الطب أيضاً، ومن ثم تذيع شهرته في العالم بشروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حتى لقب بالمعلم الثاني، تمييزاً له من أرسطو الذي لقبه العرب بالمعلم الأول. كما لقب بفيلسوف المسلمين، وعد الأب الحقيقي للفلسفة الإسلامية؛ لأنه كان أعرف الفلاسفة المسلمين بتاريخ الفلسفة، ولأنه تناول في دراساته: المدارس اليونانية بتفاصيلها واتجاهاتها، ودرس مؤلفات أفلاطون وأرسطو دراسة وافية، وكتب شروحاً واسعة لها(١١).

يضاف إلى هذين الفيلسوفين، فيلسوفان آخران: أولهما ابن سينا الذي كان من كبار فلاسفة المسلمين، كما كان أيضاً من كبار علمائهم في الطب، وقد ألف نحو مئة كتاب خص الفلسفة منها بستة وعشرين كتاباً، وأما الفيلسوف الآخر فهو ابن رشد - أشهر فلاسفة الأندلس، الذي لقب بالشارح الكبير لشرحه مؤلفات أرسطو - فقد حاول في فلسفته أن يوفق بين الفلسفة والدين، وكان أثره كبيراً في فلاسفة أوربا؛ لأنه فتح عقولهم للبحث والمناقشة، وعن طريقه عرفت أوربا كتاب «فن الشعر» لأرسطو(١٢)!.



طه حسين ابن سينا

أما في مجال علم الطب فيكفي أن نشير إلى أن «ابن سينا» - مثلاً - قدم ستة عشر مؤلفاً في الطب، كان من أهمها كتاب «القانون» الذي يقع في أربعة عشر مجلداً، وترجمه الأوربيون إلى اللاتينية في طليطلة، وطبع أول مرة بالعبرية في «نابولي» سنة ١٤٩١م، وطبع بعد ذلك باللاتينية خمس عشرة مرة، وكان مقرراً في جامعة لوفان ببلجيكا حتى القرن السابع عشر. كما نشير إلى عالم آخر لشهرته في الطب، وهو ابن النفيس الذي كان أيضاً طبيباً ماهراً، وفيلسوفاً عظيماً، وعالماً جليلاً؛ ولذلك عرف باسم: ابن سينا الثاني: ومن أشهر مؤلفاته الطبية كتاب «الموجز» الذي وصف فيه أول مرة «الدورة الدموية»

وصفًا دقيقًا صحيحًا، وقد ظل هذا الاكتشاف مجهولاً عند الأطباء حتى أماطت الأبحاث عنه اللثام سنة ١٩٢٤م، وما أكثر علماء الطب في تراثنا العربي الإسلامي، ومنهم: موفق الدين البغدادي، وابن رضوان، وطبيب الأندلس الكبير «الزهراوي» صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» وقد ظل هذا الكتاب يدرس في جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر بوصفه مرجعًا من أهم مراجع الطب، ويقع هذا الكتاب في ثلاثين جزءًا، ويتناول العقاقير والأمراض الباطنة، وأوصافًا دقيقة لبعض الجراحات: كاستخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت، واستئصال اللوز، واستئصال أكياس الغدة الدرقية، وبالكتاب أيضًا أبواب في الكسور والخلوع، وهو أيضًا أول كتاب في تاريخ الجراحة، رسمت فيه آلات جراحية يزيد عددها على المئتين، وجاء أكثرها من ابتكاره(١٣)!.

شهادات عالمية للحضارة العربية التي استوعبتها اللغة العربية

هذه لمحات سريعة من موسوعة الحضارة الإسلامية التي قدمتها اللغة العربية للعالم كله شرقه وغربه خير تقديم. ولقد ثبت للعالم، وأكد ذلك علماء الغرب المنصفون، أن الأوربيين تناولوا مشعل العلم من أيدي المسلمين حين اتصلوا بهم، واطلعوا على حضارتهم، فاستضاؤوا بنورها، وبلغوا بفضل علوم العرب ما بلغوه من هذا التقدم العلمي العظيم الذي يعيشون فيه اليوم؛ ولولا هذا الاطلاع، وهذا الاحتكاك الثقافي لظلت أوربا، ربما قرونًا متعددة أخرى، تعيش في الظلام والجهالة التي رانت عليها في العصور الوسطى(١٤). وفي ذلك يقول أحد المستشرقين الأوربيين:

«لو حذف العرب من التاريخ، لتأخرت نهضة الآداب في الغرب عدة قرون»(١٥) ولقد أجمل المؤرخ الفرنسي المنصف جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» تأثير حضارة الإسلام في الغرب، وأرجع فضل حضارة أوربا إلى هذه الحضارة الإسلامية، وقال: إن تأثير هذه الحضارة «بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية كان عظيمًا» ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب، إلا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة الإسلامية إليها، حين كانت غارقة في ظلمات العصور الوسطى!.



ونستون تشرشل — العقاد

ويقرر لوبون أنه في سنة ١١٣٠م أنشئت مدرسة للترجمة في طليطلة بالأندلس، بعناية رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، ولم يقتصر هذا النقل إلى اللاتينية على كتب الرازي وابن سينا وابن رشد فحسب، بل ترجمت من اللغة العربية أيضًا كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم، ويضيف لوبون أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلاثمئة كتاب.

ويؤكد ذلك المؤرخ الأوربي أيضًا فضل العرب على أوربا في حفظ تراث اليونان القديم بقوله: «فإلى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلى رهبان القرون الوسطى، ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم لإنقاذهم هذا الكنز الثمين، وإن جامعات أوربا لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وإنهم؛ أي العرب، هم الذين مدنوا أوربا: مادة، وعقلاً، وأخلاقًا!.

ويضيف لوبون إلى ذلك «كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي احتلوها عظيمًا جدًا في مجال الحضارة، ولعل فرنسا كانت أقل حظًا في ذلك، وقد رأينا البلاد الأخرى تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلها بأسرع ما يمكن، وازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة.. أي ازدهار»(١٦).

روعة التجارب الإنسانية في الأدب العربي القديم

لقد آن لنا الآن أن نقدم بعض النماذج الحضارية من الأدب العربي القديم الذي يمثل في كثير من تجاربه مستوى من أرقى مستويات التعبير اللغوي والفكري والأدبي، وذلك بعد أن قدمنا النماذج الحضارية للغة العربية في مجالي: العلوم الإنسانية، والعلوم التجريبية، وقد آثرت أن أختار في هذه الدراسة نماذج للتجارب الإنسانية من الأدب العربي القديم؛ لأنه متهم من بعض النقاد بأنه يمثل مرحلة تخلف وجمود، في زعمهم، وهو زعم واه متهافت لا يثبت أمام واقع المنطق التاريخي!.

فلم تكن نظرة العرب للوجود والكون - كما تنعكس في أدبهم - نظرة حسية مادية كما يزعم بعض النقاد الذين تصدوا لدراسة الأدب العربي القديم؛ فالأدب العربي، وهو المرآة الصافية التي تعكس قيم هذه اللغة سواء أكانت قيمًا معنوية أم قيمًا جمالية، هذا الأدب قدم للعالم، ومازال يقدم، الكثير من روائعه التي تمثل القيم الروحية، قيم الحق والخير والجمال، ومن ثم فإننا لو تأملنا ديوان

الشعر العربي القديم لوجدنا الشعراء يتناولون هذه القيم: الله، الحب، الكمال، الجمال، الحقيقة، الحرية، السعادة، الدين، الفضيلة، العقل، الروح والنفس، الموت والمعاد والخلود(١٧).

فمنذ العصر الجاهلي نجد بعض الشعراء العرب مشغولين بقضية الألوهية، متأملين باحثين عن الخالق الأعظم لهذا الكون العجيب، فهم يرون - مثلاً - أن الله هو الحاكم الأكبر، وهو الذي يقسم الخلائق إلى درجات، وينبغي على الإنسان أن يقنع بما منح، والله يمنح السائل ولا يخذله، والله يعطي من يشاء، ويرزق من يشاء، بيده الملك كله، يقول لبيد بن ربيعة:

فاقنع بما قسم المليكُ فإنما
قسم الخلائق بيننا علاّمها..!

وقال عبيد بن الأبرص:

من يسأل الناس يحرموهْ
وسائلُ الله لا يخيبْ..!

وقال زهير بن أبي سلمى:

بدا لي أنّ الله حقٌ فزادني
إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

وقال أمية بن أبي الصلت:

كلُّ عيشٍ وإن تطاول دهراً
صائرٌ مرّةً إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي
في رؤوس الجبال أرعى الوُعولا(١٨).

وإذا كان الموت هو المشكلة الكبرى التي اهتم بها الإبداعيون (الرومانتيكيون)، واهتم بها من بعدهم الوجوديون، وإذا كان عالمنا المعاصر بالموت والغربة هو مشكلة كتّاب المسرح المعاصر، ولا سيما كتّاب مسرح العبث من أمثال (يوجين أونيكسو، وصموئيل بيكيت)، وإذا كان التفكير في الموت من أبرز القضايا التي يهتم بها الأدب المعاصر، فإن الشعر العربي القديم لم يخل من أصداء



زكي نجيب محمود — ابراهيم المازني

تقترب - إلى حد ما - من الأدب المعاصر في ذلك المجال.. ولعل في نظرة طرفة بن العبد لمشكلة الموت والفناء، بعض أصداء من إحساس الوجوديين بعبث الحياة والموت، وعدم معقوليتهما، فالإنسان عندهم موجود عرضيٌ «لا مبرر لوجوده، وزائد دائماً عن الحاجة؛ ولذلك فإن العبث هو الكلمة النهائية في رواية الإنسان»(١٩).

إنهم يرون أن العلاقات السببية والمنطقية بين ظواهر الوجود مفقودة، ومن ثم فهم يعانون من إحساسهم بالضياع والنفي في الكون، وربما ترددت أصداء قريبة من هذه الأصداء الوجودية في شعر طرفة بن العبد وهو يعلن غربته وضياعه في مجتمعه، وإفراده فيه إفراد البعير المريض المعزول عن باقي القطيع، وذلك نتيجة لتحقيقه إمكاناته الوجودية الفردية - كما يحب ويشتهي - ويمكن أن نجد شيئاً من هذه الأصداء في قوله:

ومازال تشرابي الخمور ولذّتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلُّها
وأُفردتُ إفراد البعير المعبّد..!
ألا أيهذا اللائمي.. أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات.. هل أنت مُخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرْها بما ملكتْ يدي
كريمٌ يروّي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غداً.. أيُنا الصدي

أرى قبر نحّام بخيل بماله
كقبر غويٍ في البطالة مُفسد..!
ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صمّ من صفيح مُنضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطِّول المُرخى وثنياه باليد(٢٠)

إن طرفة هنا - كما يقول الدكتور مصطفى ناصف - «يقف موقف التحدي من الشعور الديني السائد بين الناس، ولكن هذا التحدي يحمل طابع المأساة.. طابع العجز والقدرة.. طابع الإنسان المحدود، والعقل غير المحدود»(٢١).

وواضحٌ أيضاً من الأبيات السابقة، أن موقف طرفة من الوجود والمصير والقيم والمبادئ، والحياة والموت، متأثر بقلق عنيف أقرب إلى القلق الوجودي الذي يحاصره الشك والحيرة وفقدان العلاقات السببية بين ظواهر الحياة، ومن ثم فهو لا يؤمن إلا بتحقيق وجوده الفردي، وإمكاناته الذاتية في اللحظة الحاضرة فقط:

كريمٌ يروّي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غداً أيُنا الصدي

فمصير الإنسان، أياً كان هذا الإنسان، عبث الموت ولا معقوليته، وعبث الموت عند «طرفة» واضح في عدم تفريقه بين الكريم والبخيل والصالح والطالح:

أرى قبر نحّام بخيلٍ بماله
كقبر غويٍ في البطالة مُفسد..!
ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صمّ من صفيح مُنضد

هذه صرخات إنسان حائر أدمن التفكير في الموت، ومزقته الحيرة في بحث أسرار الوجود والعدم، والبدء والنهاية، وحاول أن يروي ظمأه في متاهات الوجود، ولغز العدم، فلم يظفر ولو بقطرات قليلة من

ضوء اليقين، فكان تخبطه في ممارسات الحياة اليومية الثائرة على قيم المجتمع، وانهماكه في مغامرات اللذة المتمردة على التقاليد المألوفة، وكأنه يتحدى لغز الموت الساخر، وأسرار الوجود المحجبة، وغموض المصير الرهيب، باستنفاد كل طاقة للحياة.. حتى إذا أتى الموت لم يجد أمامه شيئاً يفنيه:

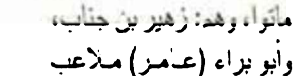
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

نعم هذا تفكير طرفة الشاعر الشاب الذي يريد أن يتكشف فكرة المصير التي تطرق وجدان الشعوب في بداية السلم الحضاري، هذه هي الشخصية القوية التي تحس وجودها على نحو قوي، ومن ثم تفكر في الموت، فالمصير لا يمثل إشكالاً بالنسبة إلى ضعيف الشخصية أو لا يصل إلى جعل هذه الأفكار قضية بالنسبة إليه(٢٢).

ويلتقي مع طرفة في نظرته إلى عبث الموت ولا معقوليته، شاعر جاهلي آخر وهو أبودؤاد الإيادي الذي يتهم الموت بالجنون، ويتهم الحياة أيضاً بالعبث واللامعقولية، فهي تلتهم أبناءها وتفترسهم، فلا تبقي منهم إلا بقية فاسدة(٢٣).

إنما الناس. فاعلمن طعام
خبل خابل لريب المنون..!
عطف الدهر بالفناء وبالمو
ت عليهم يدور.. كالمجنون..!

وإذا كانت النظرة المتشائمة إلى الحياة والموت تسري في بعض الشعر الجاهلي، فإن هناك نظرة أخرى تحل محلها أحياناً في نماذج أخرى من ذلك الشعر، حيث نلمح أحياناً إيماناً بجمال الحياة وروعتها، وحب الحياة والإقبال على متعها وملذاتها، وهو الذي يدفع شاعراً جاهلياً كزهير بن جناب إلى تفضيل الموت في الشباب على العيش في الشيخوخة؛ ذلك لأن الشباب إذا ولى ولت معه متع الحياة وملذاتها، ولا خير في الحياة عند ذلك الشاعر بعد مباهج الشباب وأفراحه. ويبدو أن ذلك الشاعر الجاهلي كان أحد الشعراء الذين نهلوا من ملذات الحياة وعلوا، ويصفه صاحب كتاب «الشعر والشعراء»، فيقول: «وهو أحد النفر الثلاثة الذين شربوا الخمر صرفاً حتى ماتوا، وهم: زهير بن جناب، وأبو براء (عامر) ملاعب الأسنة عم لبيد، وعمرو بن كلثوم التغلبي»(٢٤).



صموئيل بيكيت

ويقول ذلك الشاعر في تفضيل الموت في الشباب على العيش في الشيخوخة:

الموت خير للفتى
فليهلكن وبه بقيه
من أن يرى الشيخ الكبير
ر يقاد يهدى بالعشيه..!
من كل ما نال الفتى
قد نلته إلا التحيه(٢٥)

ولقيط بن زرارة يرى أن الحياة أولى بالاهتمام من الموت، وأن الأموات يجب ألا يحملوا أبناءهم الأحزان، بل ينبغي أن يواصل هؤلاء الأبناء استمتاعهم بأفراح الحياة ومسراتها، ولذلك فإنه يدعو ابنته «دختنوس» وكانت عروساً، ألا تخمش خديها بعد موته، وأن تواصل استمتاعها بأفراح الحياة، ومباهج الزواج، وفي ذلك يقول مخاطباً ابنته «دختنوس»(٢٦):

ياليت شعري عنك دختنوس
إذا أتاها الخبر المرموس(٢٧)
أتخمش الخدين أم تميس
لا بل تميس إنها عروس..؟

ولعل ذلك الاتجاه المتفائل الذي يطالبنا بأن نبتسم للموت لا أن نصرخ ونبكي أمامه، وأن نغني له بدلاً من أن ننتحب، لعل هذا الاتجاه في الشعر العربي قديماً وحديثاً نجده في آراء الأمم الأخرى وأشعارها.

ويكفي أن نشير الآن إلى منهج يمكن أن يقدم لنا عدداً من هذه التجارب الإنسانية التي تقترب من أزماتنا المعاصرة، وذوقنا المعاصر.

إن هذه التجارب قد يصعب تلمس الكثير منها عند بعض الشعراء المشهورين وقد يخفى أمرها في معظم أغراض الشعر المعروفة الخاضعة للتصنيف التقليدي، ولذلك فكم هو جميل ورائع، أن نجد بعض المختارات الشعرية القديمة تهتم بروائع فنية لشعراء مجهولين أو شبه مجهولين في تاريخ الأدب العربي، أو بشواعر لا يعرف عنهن إلا القليل والقليل، وعلى رأس هذه المختارات التي نجد فيها ذلك الطابع التصنيفي: ديوان الحماسة لأبي تمام، ففي ذلك الديوان نجد مقطعات شعرية رائعة لشعراء مجهولين أو شبه مجهولين، أو لشواعر من ذلك الطراز...!

تيارات شعرية

ولذلك ينبغي - في رأيي - أن نبحث عن التجارب الإنسانية في الشعر العربي القديم في التيارات الشعرية الآتية:

- شعر الغربة والحنين إلى الأوطان: وتجربة الغربة من التجارب الأصيلة في الأدب العربي القديم، نلمسها في اغتراب الواقفين بالأطلال، واغتراب الشعراء الصعاليك الذين اضطهدوا عنصرياً كعنترة، أو الذين خلعتهم قبائلهم وطردتهم إلى منافي الصحراء الموحشة.

كما نلمس تجربة الغربة في العصور التالية للعصر الجاهلي ماثلة في: اغتراب الجنود في معارك الفتوح الإسلامية، واغتراب البدو في المدينة، واغتراب العشاق، واغتراب المشردين العقائديين، والاغتراب الإقليمي داخل الوطن الإسلامي الكبير، والاغتراب الفكري

داخل المجتمع، واغتراب الصوفية..!

ـ الشعر الذي تمرد على طابع العنف في المجتمع الجاهلي، ودعا إلى الأخوة والتسامح والمحبة والسلام.

ـ الشعر الذي يصور حيرة الإنسان أمام المجهول، كحيرة الشاعر الجاهلي أمام لغز الحياة والموت، والوجود والعدم، وحيرته أمام الأطلال الدارسة، ورسوم الديار التي عفتها الرياح والأمطار.

ـ الشعر الذي يصور تآلف الإنسان مع الكون، واندماجه في مظاهر الطبيعة ومنه: الشعر الذي يصور التعاطف بين الإنسان والحيوان والطيور.

ـ الشعر الغزلي العفيف الذي يعبر عن تجربة الحب المرتبطة بالفروسية العربية النبيلة، أو الذي يعبر عن تجربة الحب العذري التي تقوم على التضحية والصبر والكتمان، والعفة، والبراءة، والحزن، والألم، والنظر إلى المرأة نظرة روحية، ومن ذلك أيضاً: الشعر الذي يعبر عن تجربة الحب الإلهي عند الصوفية.

ـ الشعر الذي يصور جزئيات الحياة البسيطة البعيدة عن مراكز الأضواء في المجتمع، كأغاني الأمهات لأطفالهن، وأغاني الأعراس وأراجيزها، وحنين الإنسان العادي لأطفاله وزوجته، وإشفاقه

عبقرية العرب الأولى في لسانهم، فكانت اللغة المجال الأساسي الذي انصبت عليه طاقتهم الفنية

عليهم عندما يرحل بعيداً عنهم، بحثاً عن لقمة العيش كما يبدو في قصيدة حطان بن المعلى التي يقول فيها:

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض..!

ـ الشعر الذي يصور فجيعة الإنسان العربي المسلم، وهو يشاهد بلاده تتساقط بمآذنها ومساجدها، ونسائها وأطفالها وكرامتها وعزتها في أيدي أعداء الإسلام!!

ومن ذلك روائع الشعر الأندلسي التي نظمت في بكاء الديار المحتلة، ورثاء المدن الزائلة، كقصيدة أبي البقاء الرندي، ومطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان..!

وبعد، فهل نختتم هذه الدراسة بالعودة مرة أخرى إلى أهمية اللغة والأدب في بناء حياة الإنسان الوجدانية والعقلية، وبناء مجتمع متماسك يتوافر بين أبنائه الانسجام الروحي والفكري، على الرغم من اختلاف ميولهم وأهوائهم، ومدارسهم وكلياتهم؟ هل نعود إلى التذكير بأن دراسات اللغة والأدب، لازمة لطالب القسم العلمي كما هي لازمة لطالب القسم الأدبي لأنه لا يوجد في حياة أي إنسان تلك الانفصالية المزعومة بين العقل والقلب؟؟ حسناً.. فلنختتم هذه الدراسة بقول الدكتور زكي نجيب محمود: «إن اللغة التي كتب بها أسلافنا ما كتبوه وخلفوه لنا، هي أقوى صلة تربطنا بهم في استمرارية تاريخية، ونستطيع القول بأن من قرأ صفحة من تراث الآباء، فقد طالع عقله، وأحس مشاعره، ومن ثم فقد عاش معه بمقدار ما قرأ، على أن كتابات السلف ليست كلها سواء في إظهار لفتات عقولهم، ونبضات قلوبهم، وإنما هي درجات تتفاوت بتفاوت كاتبيها، فإذا أحسنا اختيار ما يقرؤه طلاب العلوم، وما يقرؤه طلاب الإنسانيات (القسم الأدبي) زرعنا بذلك في أفئدتهم ليس فقط إحساساً بانتمائهم إلى خط تاريخي واحد مع هؤلاء السلف، بل إننا لنزرع كذلك في تلك الأفئدة تعاطفاً إنسانياً يجاوز حدود الوطنية والقومية، ليشمل صلة الإنسان بالإنسان أينما كان»(٢٨).

المراجع والهوامش

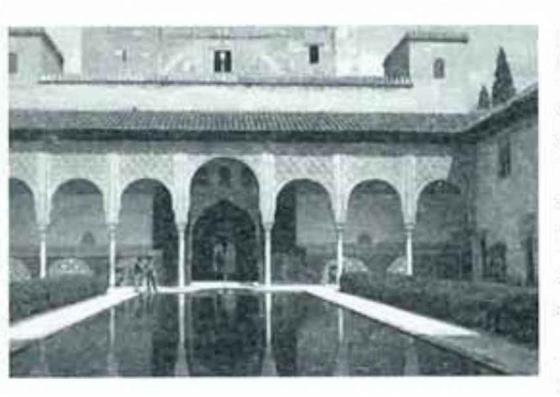
١. انظر دراسة للدكتور زكي نجيب محمود بعنوان: «في تحديث الثقافة العربية: اللغة منتقى الثقافة». جريدة الأهرام، ص١١، الثلاثاء ٦ يناير ١٩٨٧م.
٢. المرجع السابق، الصفحة نفسها.
٣. كالدكتور أحمد الحوفي في كتاب «المرأة في الشعر الجاهلي» وجرجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، ج١.
٤. «في من التراث»، ص٨ وما بعدها، للدكتور زكي نجيب محمود.
٥. «فصول مقارنة بين أدبي: الشرق والغرب»، للدكتور جمال الدين الرمادي، ص٥٥.
٦. «المدخل إلى: علم المعلومات والكتب»، ص٣٤ وما بعدها.
٧. المرجع السابق، ص٣٤ وما بعدها.
٨. «تاريخ الأدب العربي»، ج٣، ص٩٠ وما بعدها، الدكتور شوقي ضيف.
٩. «أدب مصر الإسلامية» (عصر الولاة) ص١٤٤، الدكتور محمد كامل حسين.
١٠. «تاريخ الأدب العربي»، ج٣، ص٩١، دكتور شوقي ضيف.
١١. «الحضارة الإسلامية»، الدكتور عطية القوصي، ص٢٠١ وما بعدها.
١٢. المرجع السابق، ص٢٠٦.
١٣. المرجع نفسه، ص٢٤٢ وما بعدها.
١٤. المرجع نفسه، ص٢٩٨، (نقلاً عن كتاب: الحضارة الإسلامية، ص٢٩٨).
١٥. «الإسلام والحضارة العربية»، ج١، ص١٩١، محمد كرد علي.
١٦. «حضارة العرب»، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ٣٦، ٥٦٦، ٥٦٨.
١٧. «القيم الروحية في الشعر العربي»، ثريا ملحس، ص٧١ وما بعدها.
١٨. «الشعر والشعراء»، ج١، ص٤٦١، ابن قتيبة، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر.
١٩. «مشكلة الإنسان»، الدكتور زكريا ابراهيم، ص٢٨٥.
٢٠. معلقة طرفة بن العبد، ص٦٧، ص٧٢، شرح المعلقات السبع للزوزني.
٢١. «قراءة ثانية لشعرنا القديم»، دكتور مصطفى ناصف، ص١٧٠.
٢٢. المرجع السابق، ص١٧١.
٢٣. «قراءة جديدة لشعرنا القديم»، صلاح عبدالصبور، ص٣٠، وما بعدها.
٢٤. «الشعر والشعراء»، ج١، ص٣٧٩.
٢٥. المرجع السابق، المكان نفسه، و«سحبة»، البقاء أو الملك، قال ابن الأعرابي: أراد البقاء، لأنه كان ملكاً في قومه (انظر هامش ص٣٧٩، من المرجع نفسه).
٢٦. المرجع السابق، ج٢، ٧١٠.
٢٧. المرموس: المدفون في التراب، وكل ما أهيل عليه التراب فقد رمس، وهو مرموس.
٢٨. جريدة الاتحاد، الإمارات العربية، ٦من يناير ١٩٨٧م.

مصير الموريسكيين

من سقوط غرناطة إلى طردهم من الأندلس

عبدالجليل التميمي
زغوان - تونس

من خلال حصيلة تقويمية سبق أن قدمناها لتوجهات البحوث الدولية عن الموريسكيين الأندلسيين وإشكالياتها ومسارها، واختلاف الرؤى في طرق هذا الموضوع الحيوي في دراستنا عن: «واقع ومستقبل الدراسات عن تاريخ الموريسكيين - الأندلسيين»(١)، يتأكد لنا أن هذا التخصص يسجل كل خمسة أيام تأليفاً أو مساهمة علمية جديدة، وأصبح اليوم محوراً جوهرياً يستقطب أكثر من مئتين وخمسين باحثاً في مختلف التخصصات للعلوم الإنسانية(٢). وقد ظهرت الدراسات الغربية منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن لتعزّز بشكل ملموس في النصف الثاني من هذا القرن، وتسيطر سيطرة كاملة على هذا الحقل من الدراسات خلال الثلاثين سنة الماضية.



إن مخابر المعرفة والدراسات التي أنشئت في بعض جامعات إسبانيا وفرنسا وأوروبا عموماً وبورتوريكو، أظهرت من التفاني والحرص والعناية الفائقة بهذا الموضوع، ما مكنها من نشر مئات الدراسات والنصوص الجديدة التي ترجمت واقعاً وحقيقة عن تراث ضخم ورصيد مهم للمعلومات حول الموريسكيين الأندلسيين، وتبلور هذا الاهتمام الغربي خلال السنوات الماضية في العمل على إعداد دائرة معارف، بينما لم تظهر الجامعات العربية والإسلامية، ولا الجيل السابق من الجامعيين والباحثين العرب - المسلمين، اهتماماً متواصلاً ومجدداً ومساهماً في جدلية المعرفة عن تاريخ الموريسكيين الأندلسيين. وعندما عقد الأستاذ لوي كرنياك مؤتمره الأول في مونبلييه سنة ١٩٨١م، ودعا، أول مرة، أربعة باحثين عرب ضمن عشرات الدارسين الغربيين، اكتشفنا يومئذ مدى الهوة العلمية التي تفصل بين الجانبين على جميع المستويات، بدءاً بنوعية الاهتمامات والمصطلحات المستعملة، وأرصدة الوثائق التي وظفت، وهو ما انعكس بوضوح على غائية تلك الدراسات الغربية.

كذلك فإن دراسة متفحصة للإنتاج العربي والإسلامي على ندرته، حيث لم يتجاوز مئة بحث تم تعريب نصفها عن اللغات الأجنبية، تبين أنه قد ركز على الجوانب العاطفية لهذه المأساة، كإجبار المجموعات الإسلامية على ترك دينها وتعميدها ومراقبتها والتضييق عليها وحرقها. وأخيراً قرار الطرد النهائي وما صاحبه من مآس، وهي المعلومات التي تتكرر تباعاً في كل الكتابات العربية بأساليب مختلفة، ومصدرها دوماً التآليف العربية القديمة، أو تعريب بعض الأعمال الغربية. ولا شك أيضاً أن تلك المساهمات تخلو حتماً من إلقاء أضواء كاشفة حقيقية، إذا قيس ذلك بعمق الإنجازات المعرفية التي سجلتها الجامعات ومراكز البحوث الغربية.

مصير شعب

إن التاريخ الموريسكي ليس حدثاً أو أحداثاً أو مواثيق لم يقع احترامها، وهو ليس مأساة فظيعة ترتكب في حق شعب فحسب، وإنما هو أعمق من ذلك بكثير، هو مصير شعب سجل حضوره بالأندلس طوال ثمانية قرون، وتأصل وجوده المادي

من خلال نبوغه وإبداعه وتفانيه في صنع مجتمع وحضارة ومدنية، تعد اليوم من مفاخر الإبداع البشري على الإطلاق والإسباني بصفة خاصة.

ووفاء لهذا التاريخ حرصنا خلال العقدين الماضيين على تنظيم عدد من المؤتمرات الدولية المهمة حول موضوع الموريسكيين الأندلسيين، وهي المؤتمرات التي نشرنا بحوثها باللغات العربية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية. كما أننا، من خلال بحوثنا، سعينا إلى تعزيز هذا الحقل من الدراسات المتخصصة بتعريب بعض تلك الدراسات الغربية. ومن هذا المنطلق، هل يقبل أن يهمش التاريخ الموريسكي الأندلسي، ويهمل أساسا من طرف الجامعات ومراكز البحوث العربية.

١٥٧٦ و١٥٩٥م، في مدينة ليفرنو Legreno مثلا بأنها سجلت قمة القمع ضد الموريسكيين.. وأنه من ضمن ٨٤ شخصا قد حكم عليهم بالحرق أحياء يوجد ٥٤ منهم من الموريسكيين و٢١ قد حكم عليهم بالإعدام؛ وفي الفترة ما بين ١٥٦٦ و١٥٨٥م كان يوجد ٦٦٩ ملفا ضد الموريسكيين في بلنسية وحدها، ووصل القمع مداه في الفترة ما بين ١٥٦٦ و١٥٩٦م حيث سجل ١٠٨٤ ملف محاكمة للموريسكيين؛ وأن من بين المحكوم عليهم بالإعدام يمثل الموريسكيون نسبة ٥٠٪ في المئة، وهو ما يوضح كيف أن الخوف من هذا الإسلام المناضل والمنظم قد برز جليا في ملفات محاكم دواوين التفتيش، وهذا ما نتج منه وصول غضب الموريسكيين مداه سنة

التاريخ الموريسكي ليس مأساة فظيعة فحسب، وإنما هو مصير شعب سجل حضوره بالأندلس طوال ثمانية قرون، وصنع مجتمعا وحضارة ومدنية تعد اليوم من مفاخر الإبداع البشري

الإسلامية، وعلى الخصوص من طرف مؤرخينا وباحثينا، بينما يولي الآخرون اهتماما متزايدا ومتواصلا ومؤثرا جدا في فلسفة البحث وغائيته ومستقبله حول هذا الموضوع التاريخي العربي - الإسلامي؟ ذلك هو عين الجحود وعدم الوفاء لهؤلاء الموريسكيين حتى بعد مماتهم! وتلك مظلمة كبيرة، ومسؤولية حضارية يتحملها المجتمع العربي والإسلامي الذي تجاهل تماما التفاصيل الدقيقة التي صاحبت تصفية الوجود العربي - الإسلامي بالأندلس؟

إبادة جماعية

فمأساة الإبعاد القسري الجماعي وغير الإنساني لهؤلاء الموريسكيين البؤساء تشهد أنه لم يكن طردا ولا استنزافا للمواطنين فحسب، ولكن كان في حقيقته إبادة جماعية. وانطلاقا من ذلك، فقد فرضت بالقوة سياسة الاحتواء الثقافي والديني، ومارست محاكم دواوين التفتيش قمعا حقيقيا، وتكالبت بشكل شرس ضد الموريسكيين، والأرقام التي لدينا تشرح كيف تميزت الفترة بين

١٥٨٣م، حتى امتلأت سجون محاكم التفتيش بالموريسكيين رجالا ونساء، وهم الذين تحملوا كل أنواع القمع والتعذيب حتى الموت.

مظاهر المأساة

نعم إنها لمأساة شنيعة، تلك التي تعرض لها الموريسكيون في الأندلس طوال القرن السادس عشر وحتى الطرد النهائي، فقد اقتفت محاكم دواوين التفتيش في تتبعهم يوميا، وملاحقتهم أينما كانوا، ومحاكمتهم أبشع وأظلم وأحقر محاكمة في تاريخ البشرية، بسبب رفضهم سياسة التعميد القسري، ومحافظتهم على شعلة إيمانهم بدينهم ولغتهم وحضارتهم وتقاليدهم وتاريخهم، وإليك المظاهر والأشياء التي أوخذوا عليها:

«- وإذا سمعنا أن الدين المحمدي هو الأحسن.

- وأنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة.

- وأن المسيح كان نبيا وليس إلها.

- وأن والدته لم تكن عذراء.

- وأنه إذا سمعنا أو رأينا أن المسيحيين الذين تم تعميدهم يقومون ببعض شعائر أعياد الدين المحمدي مثل الاحتفال بيوم الجمعة بأكلهم اللحم وقولهم بأنه حلال، وكذلك تزيينهم بقميص نظيف، وألبسة أحسن من بقية الأيام الأخرى.

- إذا ذبحوا الدواجن أو الحيوانات، قاطعين العنق بسكين، وتاركين إشارة على الرأس، ومحولين وجهة الرأس نحو المشرق، وقائلين «باسم الله»، ورابطين أرجل الحيوان المذبوح.

- إذا رفضوا أكل لحم الحيوانات غير المذبوحة أو تم ذبحها من طرف النساء.

- إذا ختنوا أبناءهم أو لقبوهم بأسماء عربية، أو أظهروا الفرح بتلقيبهم بتلك الأسماء ونادوهم بها.

- إذا قالوا: إنه وجب الإيمان بالله وبمحمد نبيه.

- إذا حلفوا بحق الأيمان القرآنية.

- إذا قاموا بصيام رمضان، وراعوا ذلك في أثناء عيد الفصح، وسلموا بعض الصدقات، وإذا لم يأكلوا ولم يشربوا حتى يلاحظوا النجمة الأولى.

- إذا قاموا بالسحور، واستفاقوا ليأكلوا قبل طلوع النهار، أو غسلوا أفواههم ورجعوا إلى فراشهم.

- إذا قاموا بالوضوء، وغسلوا السواعد والأيدي حتى المناكب والوجه والفم والأنف والأذنين والساقين.

- إذا قاموا بالصلاة وحولوا وجههم إلى الشرق، وتم ذلك فوق حصير أو قطعة قماش، ثم قاموا ونفضوا رؤوسهم قائلين بعض الكلمات العربية، وقائمين بغيرها من الصلوات المحمدية.

- إذا احتفلوا بعيد الأضحى بعد قيامهم بالوضوء.

- إذا تزوجوا على النهج المحمدي.

- إذا غنوا الأغاني العربية ونظموا حفلات أو رقصات، وغنوا بآلات موسيقية ممنوعة.

- إذا وضعوا على أبنائهم أو أشخاص

آخرين شكل يد بها خمس أصابع كذكرى للأوامر الخمسة.

- إذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة.

- إذا غسلوا موتاهم ولفوهم في كفن من قماش أبيض، ودفنوهم في أرض بكر أو في مقبرة ذات عمق مضطجعين وقد وضعوا حجارة تحت رؤوسهم، وتركوا على اللحد غصونا خضراء وشيئا من العسل والحليب وأكلات أخرى.

- إذا تذكروا محمدا عند الحاجة، وأنه نبي الله ورسوله، وأن أول معبد لله هو بيت مكة، ويقولون إن محمدا دفن بها!!

- إذا قالوا: إن العربي ينقذ بالتجائه إلى دينه وأن اليهودي إلى عقيدته.

- وإن أحدهما اجتاز إلى بلاد المغرب أو غيرها وارتد عن المسيحية.

- إذا قالوا أو فعلوا أي شيء مرتبط بالدين المحمدي ورسوله».(٣)

فبتاريخ ٢ كانون الثاني/يناير من كل سنة، وهو تاريخ سقوط غرناطة، يتحول فريق من المسلمين الإسبان إلى سفح قصر الحمراء للتذكير بهذه الفاجعة الأليمة التي احتلت، وما زالت، مكانا متميزا في قلوبهم ووجدانهم، وفي وجدان كل الواعين من أمتنا. وهم الذين تعرفوا عن قرب ودرسوا تفاصيل هذه الفترة الحرجة من تاريخنا. ومع هذا، لن نعيد اليوم تفاصيل الأحداث وما صاحبها من قرارات. فالدراسات الموثقة التي أشرفنا على نشرها وتعريبها في مؤسستنا منذ عقدين، قد غطت، أول مرة، عددا من جوانب هذا الموضوع. كذلك فإن أعمال الفهارس (البيبليوغرافيا) التي أعددناها ونشرناها، تشكل هي الأخرى أداة عمل أساسية وجوهرية لمن يروم حقا الاهتمام بهذا الموضوع.

ولكننا أردنا من مساهمتنا هذه التركيز على عدد من المسائل التي تحتاج إلى عناية جديدة، فالدراسات تؤكد أن نتائج سقوط غرناطة في ١٤٩٢/١/٢م كانت بداية النهاية لمأساة شعب برمته قضى عليه تدريجيا بإعلان الحرب على مقدساته ولغته وحضارته ودينه وتراثه، بتبني كل القوانين والقرارات الدينية والوضعية والإدارية التي تسهل مهام آلاف الموظفين الإداريين والمخبرين والعسكريين الإسبانيين عبر خمسة أجيال كاملة للإشراف، وبطريقة جهنمية، على القضاء نهائيا على هذا الشعب الموريسكي المسلم، واجتثاثه تماما من أندلسيته التي منحها أفضل القيم والمبادئ والإنجازات الحضارية الكبرى.

لنتذكر أولا أن الخريطة الجغرافية لسكان الأندلس تؤكد وجود أكثر من مليون نسمة قبيل السقوط منتشرين في كل التراب الأندلسي، وأن قوافل الهجرة الأندلسية بدأت قبيل سقوط غرناطة، واستمرت حثيثة طوال القرن السادس عشر بأكمله، لتختم بإعلان الطرد سنة ١٦٠٩م. ومع هذا، فإن موضوع أعداد هذه الهجرة

تؤكد الدراسات أن سقوط غرناطة كان بداية النهاية لمأساة شعب برمته قضي عليه تدريجياً بإعلان الحرب على مقدساته ولغته وحضارته ودينه وتراثه

وتواريخها التقريبية وتوجهات أصحابها في الفضاء الجغرافي العربي - الإسلامي، ما زال موضوعا يكتنفه الغموض.

طرد ودمج

ويمكننا أن نؤكد، في ضوء ذلك، أن نصف مليون نسمة أجبروا على ترك وطنهم الأندلسي ما بين سنة ١٤٨٥ و١٦١٥م، وأن مثل هذا العدد نفسه وقع دمجه تماما في المجتمع الإسباني، بعد أن فرض عليه التعميد القسري، والتخلي عن جميع مقوماته.

إن دراسة متفحصة لكل القرارات التشريعية الصادرة عن جميع السلطات السياسية والدينية والإدارية العليا طوال القرن السادس عشر، التي ترمي إلى القضاء نهائيا على كل مظاهر التبعية للوجود العربي - الإسلامي، تعد قرارات جائرة غير قانونية، ومتنكرة لأبسط قواعد التسامح الحضاري والديني التي نادى بها السيد المسيح نفسه، ومارسه بكل نبل وسمو وإيمان المجتمع الإسلامي الأندلسي، وهذا بشهادة أشهر المؤرخين الباحثين الغربيين اليوم.

لقد نجحت تلك القرارات في تضييق الخناق على الموريسكيين تضييقا كاملا، ولاحقتهم في مقارهم ومدنهم وحياتهم ومنازلهم، وبثت العيون في العائلة الواحدة نفسها لضرب لحمتها ووحدتها، فقضت تدريجيا على مميزات هويتهم ولغتهم، وأضعفت إسلامهم نتيجة الإرهاصات والملاحقات اليومية التي مورست ضدهم، ولم يعد هناك ملجأ للخلاص من هذا الكابوس المفروض حولهم: فأسماؤهم كلها لاتينية حيث حرم عليهم التقلد بالأسماء العربية، ونجد على ذلك مثلا: الفقيه جون شبكو، ثم من جهة أخرى كان أبناؤهم لا يختنون، وإذا قاموا بذلك سرا، فمصيرهم الحرق أحياء، وعربيتهم أكثر من هزيلة وممسوخة، وهذا بسبب حرق مئات الآلاف من كتبهم في الساحات العمومية ابتداء من ١٥٠٠م، وإغلاق مدارسهم ومكاتبهم ومعاهدهم وحلقاتهم الدراسية، ومنعهم من تعلم الكتب العربية أو اقتنائها، حتى أمرت المجالس الحكومية ابتداء من عام ١٥٦٤م، في بلنسية وفي كل المملكة الإسبانية بحرق كل الكتب العربية التي تعثر عليها محاكم التفتيش، وفرضت على الموريسكيين تعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات وعدم التخاطب باللغة العربية أو استعمالها، وقد سجلت لنا محاكم التفتيش من خلال ملفات الاستجوابات التي أجرتها مع الموريسكيين المتهمين، العثور في بيوتهم على بعض الورقات البسيطة التي حررت فيها بعض أسماء الله الحسنى أو الأحاديث، تبركا بها وإصرارا منهم على اللجوء إليها في أوقات الضيق الروحي والنفسي. وقد انطفأت نتيجة لذلك جذوة ذكائهم وعلمهم وثقافتهم، وهمشوا تهميشا كاملا على جميع المستويات. وقد صودرت أملاكهم وكل

الأملاك المحبوسة باسم الجوامع والمدارس لتستولي عليها جميعاً الكنيسة الكاثوليكية، وفرضت على المواطنين الموريسكيين أقصى أنواع الضرائب قصد الإجهاز عليهم اقتصادياً، ومنعوا من استيطان الموانئ لقطع الصلة بينهم وبين أبناء المغرب العربي، وحوّل عدد من نبلائهم وأشرافهم إلى درجة عبيد، وامتهنوا أشنع وأقسى وأحقر المهن نكالة بهذا الشعب، ذلك أن محاكم التفتيش كانت ترمي أساساً لا إلى القضاء على الإنسان الموريسكي مادياً، وإنما خططت لتحطيم ذاتيته وشخصيته وثقافته وحضارته ودينه قبل كل شيء.

تفاصيل مروعة

لقد تركت لنا مخطوطات (أرشيفات) محاكم التفتيش في التراب الإسباني كله

مات أكثر الموريسكيين في الملابسات الرهيبة التي حفت بعمليات التهجير، والتجأ بعضهم إلى بلدان المغرب العربي وفرنسا وإيطاليا والباب العالي ومصر وأمريكا اللاتينية

مئات الآلاف من الملفات والتقارير، واستجوابات الآلاف من الموريسكيين، وهي المادة الوثائقية التي وظفها المؤرخون في بحوثهم ودراساتهم، وكشفت لنا عن تفاصيل مروعة وغير منتظرة لفظاعة هذه المأساة الإنسانية التي عرفها المجتمع الموريسكي يومئذ، حيث لم يحصل للمجتمع البشري في تاريخه الطويل أفظع ولا أشنع مما حصل لهؤلاء البؤساء العزّل، الذين حرموا حتى من استعمال السكاكين، نعم السكاكين العادية. لقد أمكن اليوم حصر مئات القرى الأندلسية التي اندثرت تماماً من الخريطة الجغرافية الأندلسية، بعد أن كانت عامرة، ثم أمكن أيضاً معرفة أفضل وأدق لعمليات الحرق أحياء، ونسبهم المئوية وجنسهم وأعمارهم وأماكنهم والمآخذ التي أخذوا بها، والتي ترجمت عن واقع ممارساتهم الإسلامية السرية في أبسط مظاهرها. وقد ضرب حولهم حصار نفسي واقتصادي وحضاري رهيب جداً، وأدى ذلك إلى إيقاع الكثير منهم في السجون مدى الحياة، أو التجديف على السفن الإسبانية مدى الحياة، ليعرفوا أشق المتاعب والمصاعب اليومية التي قتلت فيهم كل شيء، حتى التذكر بأنهم مسلمون. وكان الهم الأكبر الذي تحقيهم هو تأمين لقمة العيش في أبسط مظاهرها، مما دفعهم طوال القرن السادس عشر كله، إلى القيام بالانتفاضات والثورات التي هزت المجتمع برمته وليس المسؤولين السياسيين والعسكريين فحسب.

كذلك نطور رصيداً من المعلومات عن السجناء والمساجين والعمل التأطيري الديني الذي قامت به الكنيسة الكاثوليكية لتسهيل عملية التعميد والاندماج التدريجي في المجتمع الإسباني. كما درس النسيج الاجتماعي للجماعات الإسلامية ومقاوماتها وبطولاتها وثمن التمسك بعقيدتها الذي دفعته غالياً بقيامها بمئات الانتفاضات والثورات وعلى الأخص ثورة البشرات سنة ١٥٦٨م التي استمرت أكثر من سنتين كاملتين في محيط ومناخ معاديين تماماً، والمسلمون محاصرون من جميع الجهات، وليس لهم أي منفذ على الإطلاق لطلب النجدة التي استحال وصولها. وقد أمكن القضاء على الانتفاضة لاستنفاد طاقاتهم العسكرية والبشرية وخصوصاً التمويلية. وساهمت المجموعات الموريسكية في توسيع جبهات المقاومة، وقام الفقهاء والعلماء بدور طلائعي فيه، حتى إن المرأة الموريسكية كانت عنصراً فاعلاً ومحركاً لتلك المقاومة البطولية، بوصفها آخر الرموز الصامدة للحفاظ على سلامة العقيدة، بل وجب القول: إن المرأة الموريسكية بطلة بأتم معنى الكلمة، وكانت أكثر إصراراً ومقاومة من الرجل لمجابهة محاكم التفتيش. ألم تستمر في حمل أزيائها التقليدية البحت طوال القرن السادس عشر، بينما تبنى الرجل الموريسكي مكرهاً الزي الإسباني منذ أوائل القرن السادس عشر؟ ثم ألم يقم بعضهن بالإشراف على الحسابات المالية للجماعات الإسلامية، وتنظيم لقاءات يوم الجمعة، ومساعدة النساء على الولادة، وإجراء مراسم الدفن على الطريقة الإسلامية! وعوضت المرأة الموريسكية النقص الحاصل للزعماء الروحانيين لتتحمل بكل مسؤولية دورها زعيمة من دون جدال.

لقد استعملت السلطات السياسية والدينية كل إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية للقضاء على تلك الانتفاضات والثورات، وتمكنت من إخمادها والقضاء عليها تماماً، وأصدرت قراراً بتهجير كل الغرناطيين إلى مناطق الريف الأراقوني والبلنسي، وتحول الآلاف منهم إلى عبيد بعد أن صودرت أملاكهم وفقدوا كل شيء على أثر ذلك، وتم توزيع الأشراف منهم في بلاطات النبلاء أو قصورهم، ووضع الآلاف منهم في خدمة الأرض أو كمجدفين على متون السفن الإمبراطورية الإسبانية. أين هي الدراسات التي تناولت إشكاليات هذه الهجرة القسرية، وتأثيراتها السلبية، الاقتصادية منها والاجتماعية على المجموعات الموريسكية بصفة عامة؟

وكانت هناك بعض الدراسات الديمغرافية والاجتماعية التي تناولت هؤلاء «العبيد» المهجرين الذين بيعوا في الأسواق، إلى درجة أن ٨٥٪ من نشاط عدلين اثنين فقط بغرناطة في أثناء انتفاضة البشرات، كانت تتمحور حول تسجيل مبيعات العبيد الموريسكيين في أسواق غرناطة وأعدادهم. إلا أننا لا نعلم بالضبط مصيرهم بعد ذلك، وحتماً فإنهم قد ذوبوا تماماً في المجتمع الإسباني، ونسيت قيمهم، وضاعت علينا بذلك آثارهم إلى الأبد، إلا من بعض الوثائق المحررة بالقشتيلية في بلديات المدن والقرى، والتي جمعتها محاكم التفتيش وعثرت عليها في بيوت الموريسكيين.

ومن جهة أخرى حوّل آلاف آخرون من الموريسكيين القرويين إلى عبيد انتقاماً منهم

لتعاونهم مع الحملات العثمانية البحرية على النواحي الأندلسية، والتي خططت ونجحت في إنقاذ الآلاف منهم، وحملهم إلى المغرب العربي. واضطر بعض الموسرين من هؤلاء الموريسكيين العبيد افتداء أنفسهم. أما الجزء الأكبر منهم فانتهى آخر مآسيهم بعبوديتهم إلى آخر يوم في حياتهم.

إن تفاصيل المآسي اليومية قد غابت عن الاهتمامات التاريخية الحقيقية للباحثين، وهذا ما يجعلنا نقر أننا نجهل تماماً مدى عمق المآسي البشرية والإنسانية التي تعرض لها المواطنون الموريسكيون، ولا سيما عنصر الأطفال والنساء؛ فالنساء وقع تهميشهن تماماً شيئاً فشيئاً من خلال إكراههن على الزواج بالمسيحيين القدامى، أو دفعهن قسراً، بسبب الفقر الذي ضرب فئات المجتمع بأكمله، إلى ممارسة البغاء العلني، وفصلن بذلك عن جسم مجتمعهن إلى الأبد.

منع اصطحاب الأطفال

أما أطفال الموريسكيين فنشؤوا منذ صغرهم على الولاء الكنسي في المعابد الخاصة بذلك، وسخرت الإمكانات المادية لإنجاح عملية التبني الاندماجية في المجتمع الإسباني الكاثوليكي. ومع هذا استحال على الباحثين المتخصصين معرفة أعداد هؤلاء الأطفال، وعلى الخصوص بعد القرار الذي اتخذ على أثر الطرد الجماعي سنة ١٦٠٩م بعدم السماح للموريسكيين بأخذ أطفالهم دون سن السابعة معهم إذا ما توجهوا إلى مدن المغرب العربي، الأمر الذي حدا بالآلاف منهم على أخذ قرار البقاء الصعب في الأندلس، مع ما يستوجبه مثل هذا القرار من ثقل وخطورة على مصيرهم المهدد.

إن تفاصيل عمليات الطرد الجماعي سنة ١٦٠٩م تشكل هي الأخرى حلقة جديدة ومكملة لمسلسل الإقصاء الديني والاجتماعي والثقافي والحضاري والاقتصادي الذي مارسته السلطات الإسبانية يومئذ بكل عنف وقسوة تجاه الشعب الموريسكي الأعزل، حيث هاجر قسراً نحو ٣٠٠ ألف نسمة وفقاً للإحصاءات الغربية المعتمدة التي أجريت على دفاتر الهجرة ووثائق البلديات ويوميات التهجير التي كان يسجلها القائمون على ذلك. ولكننا نذهب إلى الاعتقاد، استناداً إلى نوعية الدراسات التي تكشف لنا من حين إلى آخر جوانب جديدة للفضاء الجغرافي الأندلسي وأهمية الكثافة والعنصر الموريسكي، أن هذا العدد المقدم اليوم من طرف المؤرخ الفرنسي هنري لا بير Henri Lapeyre ليس عدداً نهائياً. لقد تم التهجير القسري في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم تحديدها بأمانة ودقة؛ وذلك لما حفت به من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد، وإصرار على تجريد هذا الشعب من أبسط حقوقه المدنية، ومنعه ليس من حمل ثروته وماله أو بيع أملاكه ولو بأبخس الأثمان فحسب، وإنما منع حتى من جلب أبناء صلبه معه في هذه العملية التهجيرية غير الإنسانية على الإطلاق. بل إن الملك فيليب الثالث حرم شراء دورهم وأراضيهم وأملاكهم من طرف الإسبان، وعوقب من خالف هذه القرارات الملكية!

آثارهم في أمريكا اللاتينية

وقد سيموا الخسف والذل وأجبروا على العمل كمجدفين على مئات السفن التجارية المعادية لهم، والتي احتالت للاستيلاء على الكثير منهم، وترك بعضهم في قرى مهجورة من دون تمويل أو ذخيرة، وعموماً فقد مات أكثرهم في الملابسات الرهيبة التي حفت بتلك العمليات في موانئ فرنسا وإسبانيا والأندلس، والتجأ بعضهم إلى بلدان المغرب العربي وفرنسا وإيطاليا والباب العالي، وعلى الأخص الأناضول، ثم مصر وأمريكا اللاتينية، حيث عثر على آثارهم المعمارية في أهم إنجازات أمريكا اللاتينية اليوم، كبناء الجامعات والكنائس والبلديات وقصور النبلاء، ووضع المؤرخ المكسيكي Manuel Toussaint كتاباً مهماً جداً منذ أربعين سنة بعنوان: «الفن المدجن بأمريكا»، حيث لم يقع الانتباه إليه ومن ثم لم يجر تعريبه، وقد أثبت فيه كشافاً تحليلياً مفصلاً لتلك المعالم جميعها، وهو ما يبرز مدى التأثير الموريسكي الأندلسي في الفن المعماري بأمريكا اللاتينية. ومع هذا فإننا نؤكد اليوم أن وثائق مدن أخرى بالبحر الأبيض المتوسط وغيرها لم تكشف لنا بعد عن أعدادهم ووجودهم وآثارهم وتأثيرهم المباشر في جميع المجالات الصناعية، الحربية منها على الخصوص، ثم التجارية والمعمارية، ثم تميزهم بمعرفة لغات المجتمع الإسباني ودينه وتقاليده والصراعات الداخلية فيه.

> **المرأة الموريسكية كانت عنصراً فاعلاً ومحركاً لتلك المقاومة البطولية، بوصفها آخر الرموز الصامدة للحفاظ على سلامة العقيدة**

والسؤال الذي يفرض نفسه: هل استمر الوجود الموريسكي الأندلسي المادي والحضاري والديني بعد الطرد النهائي سنة ١٦٠٩م؟

والجواب نعم، لقد استمر الوجود العربي - الإسلامي في جزء أساسي من المجتمع الإسباني حياً متفاعلاً في السلوك والعقلية والسمات العضوية (الفيسيولوجية) وطريقة الهندسة البيتية نفسها التي استمدت أريحيتها من الفن المعماري العربي الإسلامي الأصيل والمغذى بأنواع متميزة من الشبابيك المعلقة والغرف المغلقة والزخارف الخشبية، ثم هذا الشعور بالنخوة والاعتزاز الذي اتخذ أشكالاً وقنوات متعددة للتعبير عنه في طريق الرقص الشعبي بحركاته البديعة. ثم لا بد أن نؤكد أن عملية التهجير لم تطل كل الموريسكيين، فهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً، فالأطفال الصغار لم يهجروا وآلاف أخرى من الموريسكيين الذين عمدوا بدءاً من سقوط غرناطة حتى الطرد النهائي، استمر بقاؤهم بالأندلس،

على أن هذا المجال من الدراسات لم يقع الاهتمام به حتى اليوم، فكم من عائلات شريفة ونبيلة وكم من قائد وفقيه وعالم وقع تعميدهم قسرا، ومنحت لهم الأوسمة والرتب والمناصب العليا في الدولة.

قساوسة مسلمون

لقد كشفت بعض الدراسات الحديثة التي نشرناها في مؤسستنا كيف أنه في سنة ١٧٢٧م - أي بعد ١١٨ سنة من الطرد - اكتشفت محاكم التفتيش ستة قساوسة في أهم كنيسة بغرناطة، نعم ستة قساوسة، يمارسون شعائر الدين الإسلامي سرا، وهو أمر مدعاة حقا للدهشة والحيرة

تفاصيل المآسي اليومية قد غابت عن الاهتمامات التاريخية الحقيقية للباحثين، مما يجعلنا نقر أننا نجهل تماما مدى عمق المآسي البشرية والإنسانية التي تعرض لها المواطنون الموريسكيون

وعدم التصديق. ومع هذا تؤكد الوثائق الإسبانية هذه الظاهرة وهذا الحادث بالذات. وأكدت السفارة الفرنسية بإسطنبول وصول عدة عائلات موريسكية في الربع الثاني من القرن الثامن عشر إلى الباب العالي. والملاحظ أن عددا آخر من الإداريين والعسكريين الإسبانيين كانوا موريسكيين أصلا حتى أواخر القرن الثامن عشر، وهذا من خلال بعض مظاهر الممارسات الإسلامية لدى المجتمع الأندلسي الإسباني. وإن التحريات الأثرية الراجعة إلى الفترة الموريسكية نادرة وضعيفة المردود أصلا، إذا قيس ذلك بالاهتمام بالفترات الأخرى. وهذا ما يشكل جانبا تعتيميا ومستمرا على هذا الجانب الحيوي من الاهتمامات البحثية. إن عدم وجود متحف واحد في العالم بأسره متخصص في تتبع الآثار المادية لهؤلاء الموريسكيين وتسجيلها لتكون مرجعا ثابتا لدراسة هذه الفترة التاريخية، يعد هو الآخر حلقة مكملة لهذه المظلمة التاريخية التي استمرت فصولها، وما زالت، أكثر من أربعمئة سنة.

وللتذكير فإن متاحف أوربا وإسبانيا على الخصوص تعج بعشرات اللوحات والرسوم التي سجلت النكسة والسقوط ومآسي الهجرة، فقد برع الفنانون في تقديم روائعهم بحيث إن ثلث الإنجازات التي تحققت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثلا، تناول سقوط غرناطة، بينما لم تول المتاحف في عالمنا العربي - الإسلامي ولا الرسامون ولا القائمون على الفن السابع وهم المعنيون حتما بهذا الموضوع، أدنى عناية واهتمام للإحاطة بهذه الأحداث الجسام، وتسجيلها في لوحات أو أفلام سينمائية أو مسرحيات حية لتستمد منها العبرة والدرس، وكأن عالمنا العربي - الإسلامي لم يقرأ شيئا، وإذا قرأ فإنه لا يستفيد.

إن دراسة الماضي بإيجابياته وسلبياته تشكل قضية جوهرية في هذه المعركة الحضارية والبحثية لأمتنا اليوم وغدا. لقد أكدنا في أكثر من مناسبة أننا دعاة حوار حضاري مسؤول، وأن لا شيء يمكن أن يحجب أو يقلل في أعيننا مآسي الماضي القريب أو البعيد، أو يصدنا عن الصدع بالحقيقة التاريخية مهما كانت صعبة وحرجة، إيمانا منا بأن عقلية التسامح والشفافية والسعي إلى صنع المستقبل الحضاري للإنسان العربي والإسباني، هي التي وجب أن تكون مثلنا الأعلى والتي نسعى جميعا إلى تحقيقها. كما أننا ما زلنا نذهب إلى الاعتقاد أن ما حصل للموريسكيين يشكل مظلمة حضارية كبرى اقترفها التعصب الديني الأعمى، وعدم التسامح الحضاري، والإصرار على رفض الأطراف الأخرى المتباينة دينيا وحضاريا وقوميا وقبولها.

إن هذه المظلمة شكلت إنكارا قاسيا وفظيعا للعطاءات والأبعاد الحضارية التي تميز بها الوجود العربي - الإسلامي بالأندلس. وعليه فإن النداء الذي نوجهه به منذ خمس سنوات ونصف السنة إلى جلالة الملك خوان كارلوس وإلى المسؤولين في الدولة يتمثل بضرورة السعي لتبني موقف جديد أكثر عدلا وإنصافا وسموا، يبقى دوما نداء الوفاء والمحبة والمسؤولية الحضارية لأندلسيتنا التي يعتز بها العرب والإسبانيون على حد سواء. وسوف نبقى ننتظر أي رد فعل كإعلان اعتذار من طرف أعلى السلطات السياسية الإسبانية، وبالإقرار بهذه المظلمة التاريخية في حق هؤلاء الموريسكيين الأندلسيين البؤساء، كما قدم مؤخرا رئيس الجمهورية البرتغالية رسميا وعلنا، في مؤتمر عقد ببرشلونة، الاعتذار عما حصل للموريسكيين في بلاده.

إن عدم مطالبة العالم الإسلامي برمته إسبانيا إلى اليوم بمثل هذا الاعتذار لهاته المظلمة التاريخية في حق أندلسنا العظيمة، يشكل إحدى الانتكاسات الحضارية التي لا تشرف لا العالم العربي ولا الإسلامي ولا إسبانيا أيضا. وهو أمر مدان من طرف الجميع عربا ومسلمين وإسبانا. فهل من استفاقة ضميرية؟!

الهوامش والمراجع

١. نشرت هاته الدراسة في أعمال المؤتمر السادس حول وضعية الدراسات الموريسكية الأندلسية خلال الثلاثين سنة الماضية. ص٣٦٨. منشورات المؤسسة. ١٩٩٥م.

٢. راجع كتابنا: الببليوغرافيا العامة حول الدراسات الموريسكية - الأندلسية في العالم. وهي الببليوغرافيا التي أحصينا فيها ٣٥٧٧ مرجعا ومصدرا منذ بداية الاهتمام بهذه الدراسات على المستوى الدولي. منشورات المؤسسة. ١٩٩٥م.

٣. راجع لوي كارداياك. الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (١٤٩٢ - ١٦٤٠م). مع ملحق لدراسة عن الموريسكيين بأمريكا. تعريب د. عبدالجليل التميمي. ص١١٥ - ١١٤. الطبعة الثانية. منشورات المؤسسة. زغوان ١٩٨٩م.

نصير الموت

خالد بن الوليد

هزّاع بن عيد الشمري
الرياض - السعودية

إنّا من النفرِ الذين جيادُهم
طلعت على كسرى بريح صَرْصَرِ
وسَلَبن تاجي ملك قيصرَ بالقنا
واجتزْنَ بابَ الدرب لابن الأصفرِ
كم قد وَلدنا من كريم ماجدٍ
دامي الأظافرِ أو ربيع مُمطرِ
خُلقتْ أناملهُ لقائمِ مُرهَفٍ
ولبذلِ مكرُمةٍ وذِروة مِنْبَرِ
يلقى الرماحَ بوجهِهِ وبصدرهِ
ويُقيمُ هامتَهُ مقامَ المِغْفَرِ

هكذا قال حسان بن ثابت أو غيره من الشعراء، وكأنه عنى أبا سليمان خالد بن الوليد وأضرابه من فرسان العرب المسلمين وشجعانهم حينما طلعت خيلهم على كسرى، فقوضوا سلطانه، وفتتوا مملكته في الصدر الأول من الخلافة الإسلامية المباركة.. ثم توجهت خيلهم كالشهب المرسلة، يسرة، فسلبت تاج قيصر، ودحرته عن الشام في هزيمة منكرة معلومة حتى أجحرته وراء قيسارية.

إنه تاريخ مجيد ومشهد فذ تجلّت فيه بطولات رائعة خالدة لا يزال الفرس والروم يتجرّعون مرارتها.

كانت لخالد بن الوليد اليد الأولى من هذه البطولات حين قاد الجيوش فزعزع الحكم الفارسي الساساني في العراق، فأكمله بعده سعد بن أبي وقاص وصناديد العرب الذين معه؛ إذ صار خالد إلى الشام، وفيها زحزح الروم عنها في معركة مهولة حاسمة سجل شجعان العرب وفرسانهم فيها أروع فداء بالنفس، فكان النصر لهم، اضطر القيصر إلى القول: سلام عليك يا سورية سلام لا لقاء بعده. فودع يلملم جراحه.

خالد وأهل بيته

ينتمي خالد بن الوليد إلى بني مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وهم بيت مشهور من قريش، سيادة وشرفًا في الجاهلية، وصنو لبني عبد مناف، وربما فاق بعض رجاله حينذاك أمثالهم من الآخرين، ولا بأس من إيراد شيء من النبذ عن بيت خالد لبيان مكانة رجاله قبل إعطاء النبذة عن خالد نفسه.

فأعمام خالد كلهم وجوه في قريش، وأصحاب شأن فيها، وهم: هاشم، وهشام، وأبو أمية، وأبو

حذيفة، وأبو ربيعة (ذو الرمحين) واسمه عمرو، وخداش، وزهير، وأبوزهير، والفاكه، وعبد شمس، وحفص، وعثمان، بنو المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. وأم المغيرة بن عبدالله هذا هي: ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهم رهط أبي بكر الصديق. أما أم بني المغيرة: هاشم وبه كان يكنى، وهشام، وأبو حذيفة واسمه مهشم، وأبو ربيعة، وأبو أمية واسمه حذيفة، وخداش، وزهير، وأبو زهير واسمه تميم والفاكه، فهي ريطة بنت سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وهم رهط عمرو بن العاص القائد الشهير الأمير. وكانت ريطة شريفة نبيلة ممدحة مشهورة كان يمدح أبناؤها بها. أما عثمان بن المغيرة فكانت أمه هي: بنت شيطان واسمه عبدالله بن عمرو بن

وأمها عاتكة بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو أمية جواداً سيداً، وهو من أزواد الركب القرشيين، وهاشم بن المغيرة هو والد حنتمة أم عمر بن الخطاب. وأما الفاكه بن المغيرة فكانت عنده هند بنت عتبة رضي الله عنها قبل أبي سفيان، وكان جواداً صاحب أندية. وهشام بن المغيرة كان شريفاً ذائع الصيت ممدحاً، وكانت قريش تؤرخ بموته تسع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة فأرخوا بها. وفيه قال أبوبكر بن شعوب يرثيه:

ذريني أصطبحْ يابكرُ إني
رأيتُ الموتَ نقّب عن هشام
تخيّرهُ ولم يعدلْ سواه
ونعم المرءُ من رجلٍ تهام

وقال بحير القشيري أو الحارث بن أسد:

فأصبح بطنُ مكة مقشعراً
كأنّ الأرضَ ليس بها هشام

وهشام هذا هو والد الحارث بن هشام، أم حكيم بنت الحارث بن هشام، نعم المرأة هي، رضي الله عنهم.

أما الوليد بن المغيرة والد خالد فكان عظيم القدر عند قريش، لقبته «الوحيد» إجلالاً له، وكان سيداً جواداً حكيماً، وقد مات كافراً. وبنوه السادة النجباء الذين منهم: عبد شمس وبه كان يكنى الوليد، وعمارة بن الوليد وكان يقال له «الوحيد» أيضاً، وهو أحد أزواد الركب، وكان فخوراً معنّى متعرضاً لكل ذي عارضة، أي يحمل نفسه فوق ما يطيق لكل ذي حاجة، وكان من فتيان قريش، وكان جميلاً وشاعراً، وأمه: حنتمة بنت عبدالله بن عمرو بن كعب بن وائلة بن الأحمر أحد بني عبد مناة، من كنانة. ومات عمارة بأرض الحبشة.

وهشام والوليد أمهما أميمة وقيل عاتكة بنت حرملة بن شق بن صعب القسري وقد أسلم الوليد قبل خالد. وقد قتل أبوقيس بن الوليد بن المغيرة بمكة كافراً. أما فاطمة بنت الوليد بن المغيرة فقد أنجبت للحارث بن هشام«عبدالرحمن وأم حكيم»، وقد مر بنا ذكرهما.

وأما خالد بن الوليد فأمه: العصماء وهي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبدالله بن هلال بن عامر بن صعصعة، وأمها فاختة بنت عامر بن معتّب بن مالك الثقفي، رهط الحجاج بن يوسف، أسلمت العصماء رضي الله عنها بعد الهجرة وبايعت، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن، وأختهما أم الفضل لبابة الصغرى بنت الحارث أم عبدالله وعبيد الله ومعبد وقثم وعبدالرحمن وأم حبيب بني العباس بن عبدالمطلب. وعمتهن صفية بنت حزن بن بجير أم أبي سفيان بن حرب.

وكان خالد مزواجاً أنجب نحواً من أربعين ولداً، ومن ولده: سليمان وبه كان يكنى، وأمه كبشة بنت هوذة بن أبي عمرو.

ينتمي خالد بن الوليد إلى بني مخزوم وهم بيت مشهور من قريش، سيادة وشرفًا في الجاهلية

الحارث بن مالك بن عبد مناة بن كنانة. وأما حفص بن المغيرة فأمه من بني الأحمر بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة. وأما عبد شمس بن المغيرة فهو شقيق الوليد بن المغيرة، وأمهما صخرة بنت الحارث بن عبدالله بن عبد شمس من بجيلة ثم من بني قسر، وهم رهط أمير العراق، الجواد الشهير خالد بن عبدالله القسري، كان من وجوه العرب، ولبيته سيادة في الجاهلية.

وأبو أمية بن المغيرة هو والد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، واسمها هند،

أحد فرسان قريش وساداتها وكان شريفاً جواداً، وابنه عبدالرحمن بن الحارث كانت قريش ترغب في الزواج من بناته لشرفهن، وهو الذي هاجر إلى الشام في الفتوح، فلما سار من مكة بكت قريش لفراقه. وأبو جهل بن هشام المشهور كان أحد سروات قريش المعدودين وقد ود رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أسلم وقال: «إنه سري ابن سري». وابنه عكرمة بن أبي جهل أحد فرسان قريش في الجاهلية، وكان أحد أكابر قواد أبي بكر الصديق، وقد أبلى بلاء حسناً في حروب الردة، غير منكر، كما كان له مشهد بطولي عظيم يوم اليرموك. وزوجته

وعبدالرحمن والمهاجر وعبدالله بني خالد أمهم بنت أنس بن مدرك الخثعمي، سيد خثعم وفارسها في الجاهلية، وكان عبدالرحمن بن خالد ممدحاً عظيم القدر، وكان مع معاوية يوم صفين، ثم كان أحد قواده الفاتحين الولاة، وله غزوات مشهورة بأرض الروم، وعبدالله بن خالد - وأظنه غير عبدالله الأول - وأمه أم تميم الثقفية.

وحفيد خالد، خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد، أمه مريم بنت لجأ بن عوف بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة، كان خالد بن المهاجر مع ابن الزبير، وهو من رجال الحديث روى عن ابن عمر وابن عباس، وروى عنه الزهري، ومحمد بن أبي يحيى، وثور بن يزيد.

كان خالد بن الوليد جسيماً طويلاً، وكذلك كان عمر بن الخطاب، وكان أشبه الناس بخالد حتى إن من رآه أول وهلة ظنه خالداً. وكان خالد أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكانت إليه القبة والأعنة في الجاهلية، والقبة وظيفة حربية يعني صاحبها بجمع ما يجهز به الجيش، وأما الأعنة فإنها مهمة قائد الخيول في الحرب. وكان على خيول قريش في غزوة أحد، فلما رأى ثبوت النبي صلى الله عليه وسلم في يوم أحد انحاز وانسحب من المعركة، وقد شهد مع كفار قريش حروبهم ضد المسلمين إلى عمرة الحديبية إذ كان على خيولهم، وكان مهيباً أليس، لا تداني شجاعته، شديد البطش قاسياً على الأعداء، يضرب بشجاعته المثل، وكان مباركاً ميمون النقيبة تتحطم نفسيات الأعداء ومعنوياتهم عند سماع خبره.

إسلام خالد رضي الله عنه

هاجر خالد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل الفتح وبعد الحديبية، فلما رآهم عليه السلام قال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها». وكانت هجرة الثلاثة وإسلامهم دفعاً للمسلمين ونصراً لهم، ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل غازياً مع الرسول عليه السلام أو يقود بعض السرايا له أو جندياً يحارب تحت راية قواد آخرين يختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكان له من الشهرة بصحبة الرسول، صلى الله عليه وسلم، والغناء في حروبه المحل المشهور، وقد كتب للنبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه الحديث، وحمل عنه. ولانشغاله رضي الله عنه بالغزوات والحروب أيام الرسول وأبي بكر وعمر فقد



صورة متخيلة لخالد بن الوليد

قال يعتذر: «شغلني الجهاد عن تعلم كثير من القرآن».

رآه النبي صلى الله عليه وسلم متدلياً من هرشى فقال: «نعم الرجل خالد بن الوليد». وهذا من مناقبه. وهرشى ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر وقيل جبل قريب من الجحفة.

حروبه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

فيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لاتؤذوا خالداً فإنه سيف الله صبه الله على الكفار» (الخيل للغرناطي). وهذا من مناقبه أيضاً، وشهادة ممن لا ينطق عن الهوى وكفى بسيف الله الذي صبه على الكفار شجاعة ونصراً.

وكانت له وقائع على المشركين تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم، وقاد له بعض السرايا أيضاً. روى البخاري في صحيحه بسنده عن سالم عن أبيه قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين».

وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة، فكان أول من دخلها من المهاجرة من أسفلها، روى البخاري في صحيحه أن رسول الله أمره يومئذ أن يدخل من أعلى مكة من كداء ودخل النبي صلى الله عليه وسلم من كُدا، فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان؛ حبيش بن الأشعر، وكرز بن جابر الفهري.

وكان رضي الله عنه على مقدمة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة حُنين فأصابته جراح كثيرة، فأتاه رسول الله بعد هزيمة المشركين فنفث على جراحه فاندملت ونهض.

وشهد خالد يوم مؤتة، فلما قُتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، ورأى خالد أن لا طاقة للمسلمين بالقوم انحاز بهم، وحامى عليهم حتى سلموا، فلقبه رسول الله يومئذ «سيف الله».

وروى النويري أنه لما قُتل عبدالله بن رواحة، وكان آخر القواد، أخذ الراية ثابت

ابن أرقم وقال: يامعشر الناس اصطلحوا على رجل منكم فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، وانكشف، فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون، فقتل من قتل من المسلمين، ورفعت الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظر إلى معترك القوم، فلما أخذ خالد بن الوليد اللواء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الآن حمي الوطيس».

وروى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم «نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

وروى البخاري بسنده عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم موتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

في عهد الشيخين رضي الله عنهما

كان خالد أثيراً عند أبي بكر الصديق، وقال أبو بكر يوماً: «عجز النساء أن يلدن مثل خالد»، فلما تولى أبوبكر الخلافة ارتد من العرب قبائل ورجال ذوو بأس، وامتنع عدد منهم عن دفع الجزية، فثقل ذلك على أبي بكر وكيف به وقد وسع الشق، فشاور الصحابة، فأشار عليه بعضهم بالتريث وأخذ المرتدين والممتنعين بالملاينة. ولكن رأى أبو بكر ذلك اللين والتريث مدعاة للقوم بأخذ القوة والحيطة، ووهناً للمسلمين أنفسهم وذريعة لقوم آخرين، فيحذون حذو المرتدين، فكيف بأبي بكر وهو المسؤول عن حماية الإسلام، فنهض نهوض الليث، وقرر الحرب حتى يعود الأمر إلى نصابه الصحيح، وهو موقف يحمد أبوبكر عليه.

فأحضر أبوبكر عمرو بن العاص، وسأله عن من يوليه حرب الردة، وكان هوى أبي بكر في ذلك يميل إلى خالد بن الوليد لكفايته في الحرب وسوسها، ولكنه - رضي الله عنه - أراد مشورة مجرب آخر في سوس الحرب ودهاء الرأي، فقال عمرو في حق خالد: «بسوس للحرب، نصير للموت. له أناة القطاة، ووثوب الأسد» فعقد له أبوبكر وجاس خالد ومن معه من رجال الصحابة وفرسانهم بلاد العرب حتى أثخن في المرتدين ودحرهم في

كان إسلام خالد ومعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بعد الحديبية دفعاً للمسلمين ونصراً لهم

بزاخة - وهي اليوم جنوب غرب مدينة حائل نحو من ٤٠ كيلو متراً، ثم توجه إلى فلول تميم شرقاً في القصيم اليوم وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم المشهور مالك بن نويرة اليربوعي. وكان لخالد الوقعة المشهورة باليمامة من وسط نجد حيث قبيلة حنيفة وزعيمها مسيلمة الذي ادعى النبوة، وجمع حوله الفرسان البواسل، وتحصن ببلدة باليمامة ذات نخيل ومزارع، ولكن خالداً لا ينفع معه مثل هذا، فهو جبار مدبر باطش صنديد ومعه صناديد، مجربون في معامع الحرب يدفعهم دين قويم يحرم الفرار يوم الزحف، ويضمن الجنة للشهداء. فكانت حديقة الموت إذ استبسل بنو حنيفة دفاعاً، وزحف خالد زحفاً في سبيل النصر أو الموت، وكانت الوقعة على بني حنيفة ومقتل مسيلمة وعدد كبير من بني حنيفة وأنصارها مقابل عدد كبير أيضاً من المسلمين حتى عد يوم اليمامة من الوقائع المشهورة في تاريخ الإسلام، وكان سبباً لأبي بكر في الأمر بجمع القرآن وكتابته لما رأى من مقتل الصحابة الحفاظ في اليمامة.

وكان خالد يقاتل يوم اليمامة على فرسه العيار، قال مضرس بن أنس المحاربي:

ولقد شهدت الخيل يوم يمامة
يثني المقانب فارس العيار

وفي الوقت الذي قاتل خالد المرتدين من قبائل نجد بأمر أبي بكر الصؤول، فإن دوراً من هذا القبيل قد وكله أبو بكر لمخزومي آخر فارس شجاع هو عكرمة بن أبي جهل؛ إذ جاس أرض المرتدين من قبائل اليمن حيث الأسود العنسي صنو مسيلمة الحنفي في ادعاء النبوة، ورفض ولاية أبي بكر. وهنالك أمثال خالد وعكرمة من القواد، والكل عاد منتصراً، وكان نصرهم قوة أعادت إلى الإسلام قوته من جديد.

فلما صفت جزيرة العرب لأبي بكر رمى العراق بخالد، فأوقع بالفرس، وفتح الحيرة وما حولها، وكانت إمارة عربية تحت نفوذ فارسي فخسر الفرس موقعاً مهماً تحطمت معنوياتهم بعده، ودب الذعر في قلوبهم، فخسروا البقية الباقية على يدي العرب المسلمين أيام المثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص بعد خالد بقليل.

وكان أبوبكر بعد حروب الردة رمى الشام بجيوش أربعة، عليها قواد أربعة، هم بعض صفوة أهل الحرب في التاريخ على مرور عصوره. فأبو عبيدة عامر بن الجراح وجهه إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان وجهه إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة الكندي إلى الأردن، وعمرو بن العاص ومعه علقمة بن مجزز إلى فلسطين فلما فرغا منها نزل علقمة وسار إلى مصر.

ولما علمت الروم بقدوم جيوش أبي بكر

حشدت لهم مئتين وأربعين ألفاً في وادي اليرموك، وهو مكان مفترق الطرق التي تتفرع متجهة إلى الولايات هذه، فكانت الحرب بين كر وفر وغزوات واستطلاع؛ إذ إن كل أمير من أمراء جيوش المسلمين على جيشه، ثم إن أبا بكر أراد أن يحسم الحرب مراعاة للوقت وللوضع المالي وإبقاء للمعنويات الحارة لأهل الجهاد، فأمدهم بخالد بن الوليد ومعه عشرة آلاف من رجال الفتح في العراق، وأمره أن يستخلف على عمله بالعراق المثنى بن حارثة الشيباني في نصف الناس فإذا فتح الله على المسلمين الشام، أن يرجع إلى عمله، وفي رواية أنه وجهه أميراً على الأمراء الذين بالشام وفيهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وغيرهما من وجوه الصحابة. وإذا كان كذلك فهي إمرة حرب لا إمرة ولاية.

استعجل أبو سليمان السير يطوي الأرض ويدليه أحد رجال طيء الذي سار به وبجيش لجب مستعملاً أقصر الطرق، فلما قدم إلى اليرموك طلب من الأمراء الأربعة تعاور الإمارة قائلاً «فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني أليكم اليوم» فأمروه. ثم خرجت الروم في تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط في مئتي ألف - حسب البلاذري - أو مئتين وأربعين ألفاً - حسب الطبري - وخرج خالد بن الوليد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك في أربعة وعشرين ألفاً - حسب البلاذري - أو في ستة وأربعين ألفاً - حسب الطبري - في ستة وثلاثين كُردوساً (وهو القطعة العظيمة من الخيل) إلى أربعين كردوساً، وجعل على كل كردوس أميراً، أورد الطبري أسماءهم، وهم من وجوه الصحابة، ووجوه فرسان العرب في زمانهم ذوي النجدة والحرب، وجعل على القضاء: أبا الدرداء، وعلى الطلائع: قباث بن أشيم، وعلى الأقباض: عبدالله بن مسعود، وكان القارئ: المقداد، والقاص: أبا سفيان بن حرب. ومن السُنة التي سن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي «الأنفال» ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك، كما ذكر الطبري.

فدارت رحى الحرب واستبسل المسلمون أمام جيش يفوقهم كثيراً في العدد والعدة، وهو على أرض توطنها عشرات السنين، ومهر الفرسان وأهل المروءات في طعن وكر بعد فر، وفيهم ألف من الصحابة، بينهم نحو مئة من أهل بدر، وشاركت الصحابيات الصحابة وذوي النجدات فجادت نفوسهن وقاتلن قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة تقول: «عضدوا الغلفان بسيوفكم» وقتلت أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية تسعة من الروم بعمود خيمتها، وخرجت جويرية بنت أبي سفيان في جولة مع زوجها فأصيبت بعد قتال، وكذلك فعلت الصحابيات الشاهدات.

وحمي الوطيس، فتكاثرت الروم، وبلغ القتال الذروة حتى قرب من فسطاط خالد فترامى فرسان العرب وشجعانها إلى الموت دفاعاً عن الدين والأرض والعرض فأبلى السمط بن الأسود الكندي، وحبيب بن مسلمة الفهري، وذهبت عين الأشعث بن قيس الكندي، وعين هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعين قيس بن المكشوح المرادي وعين أبي سفيان بن حرب، وكانت عينه الأخرى فقئت يوم الطائف. واستشهد عدد كبير من المسلمين بينهم عامر بن أبي وقاص، وهو الذي كان قدم الشام بكتاب عمر إلى أبي عبيدة بولايته على الشام.

فلما رأى عكرمة بن أبي جهل جند الروم يتكاثرون بحماسة شديدة واندفاع متدفق نحو فسطاط خالد مقابل قلة ثابتة من المسلمين بدأ الوهن يظهر عليها قال: «قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن، وأفرُ منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع على الموت»، وثبت فبايعه الحارث بن هشام بن المغيرة، وعمرو بن عكرمة، وضرار بن الأزور في أربعمئة من الوجوه والفرسان، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلا من برأ.

وسهر خالد نفسه إلى الفجر يقاتل ببسالة منقطعة النظير وجاش جياش (حباس) بن قيس بن الأعور القشيري، وهو من رهط الإمام مسلم، والأمير بلج بن بشر أمير الأندلس فيما بعد، فقاتل أشد قتال حتى ذكرت السير والأدبيات أنه قتل بيده ألفاً من الروم، وقطعت رجله يومئذ وهو لا يشعر بها حتى رجع بعد هزيمة الروم فأنشد يقول:

أقدم خذام إنها الأساورة
ولا يغرّنك رجلٌ نادرة
أنا القشيري أخو المهاجرة
أضرب بالسيف رؤوس الكافرة

فدارت الدائرة على الروم الذين هزموا هزيمة منكرة، وقُتل منهم سبعون ألفاً، وهرب الباقون، فلحقوا بفلسطين وأنطاكية وحلب والجزيرة وأرمينية، فلما بلغ هرقل خبر اليرموك هذا - وكان بأنطاكية - هرب إلى القسطنطينية فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو.

وقد اختلف المؤرخان الطبري

> كان خالد أثيراً عند أبي بكر، وقال عنه عمرو بن العاص: «بسوس للحرب، نصير للموت، له أناة القطاة ووثوب الأسد»

والبلاذري في تاريخ يوم اليرموك، فجعله الطبري سنة ١٣، وجعله البلاذري سنة ١٥ للهجرة.

وكان خالد بن الوليد أثيراً عند أبي بكر كما مر بنا، وكان إذا أصاب المال قسمه في أهل القتال، ولم يدفع إلى أبي بكر حساباً، وكان فيه تقدم على رأي أبي بكر يفعل أشياء لا يراها أبو بكر، ولم ير أن يعزله، وكان عمر ينكر هذا على خالد وشبهه. وشكي خالد إلى أبي بكر فقال أبوبكر: «لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين» أي لا أغمده.

كان عمرو بن أحمر الباهلي، الشاعر المشهور في خيل خالد حين وجهه أبوبكر من العراق إلى الشام فقال عمرو:

إذا قال سيفُ الله كرُّوا عليهمُ

كررتُ بقلبٍ رابط الجأش صارمِ

قال اليعقوبي: إن عمر بن الخطاب ولّى خالداً الرها، وحران، ورقة، وتل موزن، وآمد، فأقام بها سنة، ثم استعفى، فأعفاه، وقدم المدينة، فأقام بها أياماً، ثم توفي بالمدينة، بينما يرى الواقدي أن وفاة خالد كانت بحمص، وهو أثبت عنده. وقيل: إن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة، ولزم حمص حتى توفي بها سنة إحدى وعشرين، وأوصى إلى عمر، ولما ورد إلى عمر خبر وفاته بكته حفصة وآل عمر وكثر بكاؤهن عليه، فقال عمر: حق لهن أن يبكين على أبي سليمان، وأظهر عليه جزعاً، وتولى وصيته.

وحسب الأصفهاني، فإنه لما مات خالد لم تبق امرأة من بني المغيرة إلاّ وضعت لمتها على قبره، يعني حلقت رأسها، ووضعت شعرها على قبره.

وإن عمر رضي الله عنه قال حينئذ: دعوا نساء بني المغيرة يبكين أبا سليمان ويرقن من دموعهن سجلاً أو سجلين مالم يكن نقع أو لقلقة. قال: والنقع: مد الصوت بالنحيب، واللقلقة: حركة اللسان بالولولة.

ورواية الأغاني هذه تشير إلى أن وفاة خالد كانت بالمدينة.

وحسب الأعظمي، أنه نقل بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب أنه قال في خالد بعد مماته: «يرحم الله أبا سليمان، لقد كنا نظن به أموراً ما كانت».

وروى البخاري بسنده في التاريخ الكبير، قال: سمعت عمر بالجابية اعتذر من خالد، فقال: أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس والشرف، فنزعته، وأمرت أبا عبيدة. فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي: والله ما أعذرت يا عمر، نزعت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعت لواء نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطعت الرحم، وحسدت ابن العم، فغضب في ابن عمه، فقال عمر: إنك قريب القرابة حديث السن.

أورد النويري أن خالداً رضي الله عنه كان لا يقاتل إلاّ على أنثى؛ لأنها تدفع البول وهي تجري، والفحل يحبس البول في جوفه حتى ينفتق ولأن الأنثى أقل صهيلاً.

وفسر الغرناطي سبب هذا القتال على الأنثى الذي كان يجريه خالد في حروبه أنه أمر خاص به، وليس بموجود لغيره، وذلك أنه كان من شأنه أن يقتحم المخاوف، ويتجشم المتالف، ويتولّج المهالك، ثقة منه بنفسه، وإدلالاً بشجاعته، فإن وجد من العدو فرصة انتهزها ونجا بفرسه غانماً، وإن لم يجد فرصة نجا بفرسه سالمًا، فكان لا يزال في طلب وهرب وكر وفرّ وجري دائم وعدو لازم فناسب ذلك أن يكون فرسه أنثى لأن الأنثى تدفع البول وهي تجري لسعة السبيل وسهولة المخرج بخلاف الذكر، فإنه لا يستطيع دفع البول وهو يجري، فيحبسه في جوفه، فيثقل به، وتقصر خطاه، ويقلّ جريه.

وكانت آخر كلمة لخالد حين وفاته حين تحسر على الزحف والحرب ولام الجبناء، هي قوله: «لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم هاأنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء».

وذهب هذا المجاهد الغازي الفاتح في رحمة الله بعد أن سجل قدراً جليلاً من الشجاعة والبطولة والذكر الذي لا ينسى إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ولا شك أن خالداً ينال إعجاب المسلمين ومحبيهم، وكذلك أفاد من بطولته وخططه الحربية الفذة كبار القواد، وأساطين الفكر العسكري.

وكان أول من صنف في فتوح خالد بن الوليد هو الزهري، الأموي العصر التابعي، فله «كتاب فتوح خالد بن الوليد». وأبو بكر محمد بن حيدرة بن مفوز المعافري فإن له جزءاً فيه مسألة تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم في خالد بن الوليد رضي الله عنه «إن خالداً قد احتبس أدراعه وأعتده» واختلاف الرواية في ذلك. ذكر ذلك ابن خير في فهرسه.

المراجع

١. تاريخ الطبري وكذلك ذيوله.
٢. فتوح البلدان للبلاذري.
٣. الأغاني للأصفهاني.
٤. نسب قريش للزبيري.
٥. جمهرة أنساب العرب لابن حزم.
٦. نهاية الأدب للنويري.
٧. الخيل للغرناطي.
٨. لسان العرب لابن منظور.
٩. أسماء خيل العرب للغندجاني.
١٠. فهرسة ابن خير.
١١. الفهرست للنديم.
١٢. معجم الشعراء للمرزباني.
١٣. تاريخ اليعقوبي.
١٤. كتاب النبي للأعظمي (مصدر حديث).
١٥. الكاشف للذهبي.
١٦. التاريخ الكبير للبخاري.
١٧. صحيح البخاري.
• أخذت هذه المادة بتصرف في كثير منها من هذه الكتب.

شاعر من مكة

محمد العيد الخطراوي
المدينة المنورة - السعودية

الشاعر جاهلي، وأخباره في كتاب «الأغاني ٢٠٤/١٧» للأصفهاني، و«نسب قريش ٤٠٣» للزبير بن بكار. وهو نُبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب، فهو يلتقي مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤي.. إلخ، ويلتقي معه من جهة أمه في قصي بن كلاب؛ إذ إن أمه وأم أخيه منبّه هي أروى بن عميلة بن السباق بن عبدالدار بن قصي. فهو إذن من حيث النسب كان في ذرى قريش نسباً، واستطاع هو وأخوه منبّه أيضاً أن يصنعا لهما حساً مرعياً، فقد كانا من وجوه قريش، ومن ذوي النباهة والمكانة فيهم، بحيث توجه لهما الشعراء من داخل مكة وخارجها بالمديح والثناء. ومن ريطة بنت منبّه تزوج عمرو بن العاص فولدت له عبدالله بن عمرو.



وممن مدحهما الشاعر الأعشى بن النبّاش بن زُرارة التميمي، المعروف بأعشى تميم، وهو من ذوي المكانة في قومه بني تميم، فقد استطاع أخوه أبوهالة بن النباش أن يتزوج خديجة بنت خويلد - أم المؤمنين - في الجاهلية، وهي من هي في نساء قريش، قال أبوالفرج: «ولها منه أولاد لهم عقب إلى الآن» يعني زمن أبي الفرج. كما اشتركا في حرب يوم بدر مشركين، وقتلا فيها، فرثاهما هذا الشاعر المخلص في حبهما، بمراث باكية، قال أبوالفرج: «لم أستجد ذكرهما، لأنهما قتلا مشركين محاربين لله ورسوله»، وهذا يعني أن جزءاً من الشعر الجاهلي أعدم لهذا السبب وأشباهه.

ومما قاله الأعشى في مدحهما قصيدته التي منها:

لله دَر بني الحجاج إذ نُدبوا(١)
لايشتكي فعلَهم ضيفٌ ولا جارُ
إن يَكسِبوا يُطعموا من فضل كسبهمُ
وأوفياءُ بعَقد الجار، أحرار

وفي نُبَيْه يقول أيضاً:

إن (نُبَيْها) أبا الرزّام أفضلهمْ
حلْماً، وأجودُهم، والجودُ تفضيل
ليس لفعل (نُبَيْه) إن مضى خلفٌ
ولا لقول أبي الرزّام تبديل
ثَقْفٌ(٢) كلقمان، عدْلٌ في حكومته
سيفٌ - إذا قام وَسْط القوم - مسلول

وإنْ بيت (نُبيه) منهجٌ فلجٌ(٣)

مُخضَرٌ بالندى ما عاش، مأهول

من لا يَغُرُّ(٤)، ولا يؤذي عشيرته

ولا نداه عن المعترّ معدول

صفات السيادة

ومع أن نُبَيْهًا من المدّحين فإنه لم يكن له شهرة أبي سفيان وأبي جهل والوليد بن المغيرة في تاريخ قريش، وذلك إما لأنه في مرتبة تالية لهؤلاء، وإما لكون أسمائهم ارتبطت بمصادمة الدعوة الإسلامية وصاحبها، وإما لكون نُبيه ممن عدا عليهم التاريخ.. لكن أعشى تميم مدحه ولم يمدح تلك الأسماء التي تردنا في التاريخ ضخمة، أو مضخمة بعض التضخيم. فماذا قال؟

إن الأعشى وسمه بالنجدة، وإكرام الضيف، وإيواء الجار، والوفاء بالعهود، ومدحه مرة أخرى بالحلم والجود، والحفاظ على الوعود، وبأن لا أحد يسدّ مسده، وبالحذق والعدل في الحكومة.

وتلك - لعمري - هي رأس صفات السيادة في كل بيئة من البيئات العربية؛ الرعوية منها، والزراعية والتجارية، ولكن كم من سادات خفر بذمتهم التاريخ، ونسيهم ضمن من نسي!

إنه المال!!

وكان (نُبيه) يضم إلى هذا العقل والمكانة المرموقة فضلاً آخر لم يتيسر لغيره من ذوي الأحساب والأنساب في قريش، ذلكم أنه كان إلى سيادته شاعراً مجيداً، وكان العرب يلقبون الرجل الذي يجمع خصال الفروسية والكرم والشعر بالكامل، كما هو الحال في الشاعر الأوسي: سويد بن الصامت، فربما ظفر (نُبيه) بذلك، ولم تذكره لنا المراجع، وشعره الذي وصلنا، على كل حال، أجمل بكثير مما وصلنا من شعر سويد، ومن شعره في شكواه من الفقر وضيق اليد:

قصّر العُدم بي، ولو كنتُ ذا ما

ل كثير لأجلب الناس حولي

ولقالوا: أنت الكريم علينا

ولحطّوا إلى هواي ومَيْلي

ولكلتُ المعروف كيلاً هنيئاً

يَعجِزُ الناس أن يكيلوا كَكَيْلي

ولعله هنا يشير بشكل أو بآخر إلى تأخر مكانته عن المشاهير من قريش، كأبي جهل وأبي سفيان، إنه المال، الذي يجتمع الناس حول صاحبه ويُجلبون، ويجعلهم يوافقون على كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وبتعبير آخر يجمع من حوله الأنصار والأتباع.. وواضح أنه لم يكن يسعى وراء جمع المال لبخل فيه أو مجرد حب للمال وتكديسه، ولكن ليصنع به المجد، وليبذله للآخرين في كرم وسخاء، وليباري به الكرماء والأجواد، واثقاً أنهم حينذاك لا يطيقون الدخول معه في مباريات الكرم والجود، ولا يكيلون كيله فيها، ولا يزنون بميزانه.

وفي أبيات أخرى يشير إلى استخدامات أخرى للمال استوجبها الخلق الاجتماعي السائد في نساء عصره، ولعله مع الأسف لا يزال سائداً في أكثر الأحياء مهما ادعت المدعيات، وشهقت الشاهقات، يقول نُبيه:

قالت سُليمى إذ طرقتُ أزورها:

لا أبتغي إلا امرأ ذا مال

لا أبتغي إلا امرأ ذا ثروة

كيما يَسُدّ مفاقري(٥) وخلالي(٦)

فلأحرصَنّ على اكتساب محبَّبٍ

ولأكسبَنّ في عفةٍ وجمال

فصاحبته سليمى ومثيلاتها لا يتزوجن إلا رجلاً ثرياً ذا مال تسد به المفاقر، والخلال خضوعاً لرغباتهن في الامتلاك، أو نزولاً عند ضغط متطلبات الحياة.

ويعقد الشاعر العزم على تحقيق ما تريد منه سليمى في كسب المال، فيقسم على السعي في اكتسابه بكل عفة وشرف ونفس لا تهون.

ويبدو أنه حاول التجارة، فانخرط في بعض القوافل الذاهبة إلى الشام، وحين نزل (قُدَيْدًا) سطا بعض لصوص بني بكر من قطاع الطرق على ناقته، يريدون منه أخذ الجعالة عليها فقال في ذلك:

وردتُ(قُديدًا) فالتوى بذراعها

ذُوبانُ بكرٍ، كلُّ أطلس(٧)، أفحَجِ(٨)

رجلٌ صديقٌ ما بدت لك عينُه

فإذا تغيَّبَ، فاحتفظْ من دَعْلَجِ(٩)

وظلت لعنة العُدم، وقلة ذات اليد، وفقد المال تلازمه طوال حياته فيما يبدو، حتى كانت سبباً في أن يطلّق زوجتيه جميعاً، ويسجل ذلك الموقف شعراً فيقول:

تلك عِرسَاي تنطقان بهُجر(١٠)

وتقولان قول زورٍ وهِتْر(١١)

تسألاني الطلاق إذ رأتاني

قلّ مالي، قد جئتماني بنُكر..!

فلعلي أن يكثـر المالُ عندي
ويخلّى عن المغـارم ظهـري
وترى أعبـدٌ لنا وجيـادُ
ومناصيفُ(١٢) من ولائد عشـر
ويكأنْ من يكن له نشبٌ يحـ
بَبْ، ومن يفتقر يعش عيش ضُرِ
ويجنّب يُسْرَ الأمور، ولكنْ
نْ ذوي المال حُضّر كلّ يُسْرِ

إن زوجتيه على الرغم من أنهما تعرفان أن الذي قلل ماله هو تحمله المغارم والديات، وتصديه للمكارم، فإنهما تسألانه الطلاق، ولا تتحملان معه نبعة مكارمه، ولهذا نعت نطقهما بالهجر وهو القبيح من الكلام، والزور والهتر، وهما الكذب والبهتان، ثم يرشدهما إلى أنه ربما تغيرت الحال، ورزقه الله مالاً نكثر به أعبده وجياده وخدمه، وتنصلح به أحواله، وما بين ذلك وتحققه إلا أن تصبرا كصبره، وتتفاءلا كتفاؤله، ثم يذكر بكل مرارة حقيقة حياتية واقعة، وهي أن الناس إنما يقدر بعضهم بعضاً بالمال فمن اغتنى سعد، ومن افتقر ذل وناله كل ضر، ولعمري تلك مأساة الإنسان في كل عصر.

لايخاف الفضول!!

ولنبيه أيضاً شعر رقيق تغنّى به المغنون، قال في امرأة من خثعم «من قبائل الجنوب» هويها، وتعلق بها قلبه، وقصتها ـ كما ذكر أبوالفرج ـ: «أن رجلاً من خثعم قدم مكة تاجراً، ومعه ابنة له يقال لها القتول، أوضأ نساء العالمين وجهاً، فعلقها نُبيه بن الحجاج بن عامر بن حُذيفة بن سعد بن سهم، فلم يبرح حتى نقلها إليه، وغلب أباها عليها، فقيل لأبيها: عليك بحلف الفضول. فأتاهم فشكا ذلك إليهم، فأتوا نُبيه بن الحجاج فقالوا: أخرج ابنة هذا الرجل، وهو يومئذ متبد بناحية مكة، وهي معه، فقال لا أفعل. قالوا: فإنا من عرفت. قال: يا قوم، متّعوني بها الليلة. فقالوا: قبحك الله، ما أجهلك. لا والله ولا شخب لقحة، فأخرجها إليهم، فأعطوها أباها، وركبوا وركب معهم الخثعمي».

ومضى نُبيه يقول:

راح صحبي، ولم أحيّ (القتولا)
لم أودّعهم وداعاً جميلا
إذ أجدّ (الفضول)(١٣) أن يمنعوها
قد أراني ولا أخاف (الفضولا)
لا تخالي أني عشيّة راح الر
ركبُ هنتم عليّ ألا أقولا
إنني والذي له حجّ شمْط
من إياد، وهلّلوا تهليلا
لا تبرأتُ من (قُتيلة)(١٤) بالنا
س، وهل يبتغون إلا (القتولا)
لم أخيّر عن الحديث، ولا من
أنا رسُ الحديث(١٥) والتقبيلا
ومبيتا بذي المجاز ثلاثاً
ومتى كان حجّنا تحليلا؟
لن أذيع الحديث عنها، ولا أنـ
قاد ـ لو أبتليتُ فيها ـ فتيلا(١٦)
أتلوّى بها كما تتلوّى
حيّةُ الماء بالأباء(١٧) طويلا
ثم عادوا عداء (نخلة)(١٨) مايدْ
رك منهم أدنى رعيل رعيلا(١٩)
وبنو غالب أولئك قومي
ومتى يفزعوا تراهم قبيلا
وندامى بيض الوجوه كهول
وشباب أسهرتُ ليلاً طويلا
غير هجْن ولا لئام ولا تعـ
رفُ منهم إلا فتى بُهلولا(٢٠)

الأبيات تمثل اعتذاراً لنفسه ولصاحبته القتول في عدم دفاعه عنها، وفي نزوله على حكم (الفضول)، الذي أصبح جهة حكم ملزمة في مكة كلها، وهو حلف ظهر في مكة لمنع الظلم عن الناس ومناصرة الضعيف، وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلف الفُضول، أما لو دُعيت إليه اليوم لأجبت، وما أحب أن لي به حمر النّعم وأني نقضته.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم في دار ابن جُدعان قبل أن يوحى إليه، وهو ابن خمس وعشرين سنة، حيث اجتمعت بنو هاشم وأسد وزُهرة وتيم، وكان الذي تعاقدوا عليه هو: ألاّ يُظلم بمكة غريب، ولا قريب، ولا حر، ولا عبد، إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه، ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم. ثم عمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه، ثم أتوا به فشربوه.

فالقتول استردوها من نُبيه بقوة حلف الفضول، وإلا فهو قد أحبها حباً جماً، كما يبدو أنها بدأت تبادله الحب

نفسه، ولذا فهو يحاول أن يقنعها أن نزوله على حكم الفضول ليس تخليًا عنها، ولا قلىً لها، وأنه سيظل حافظًا لسر أحاديثها وحياتها معه. وفخر أيضًا بقومه بني غالب بن فهر وسيادتهم وعزتهم. ولكنهم مثله يخضعون لحكم الفضول.

وهذا المسلك على العموم مما تميّز به المجتمع التجاري المتحضر من بين البيئات الأخرى في الجزيرة العربية. ولعله كان ضمن الإرهاصات التي بدأت تهيّئ العرب للقيام بدورهم الذي وضعهم فيه الإسلام بعد ذلك، من اجتماع على الحق، وتصدٍّ للقيادة.

ولم يستطع نُبيه أن ينسى القتول، مما يدل على حبه الصادق لها، فلم يكتف بكتابة قصيدته السابقة فقط، بل كتب فيها قصيدة أخرى وربما قصائد أيضًا لم تصل إلينا، وهذه القصيدة استحسنها المغنون فغنوها، ولعل استجادتهم لها ولسابقتها تعطيهما بعدًا فنيًا، وذلك لما وجدوا فيهما من رقة وخفة على الأسماع، ومسارعة لمخالطة الوجدان، يقول نُبيه:

حيَّ الدُّوَيْرة إذ نأت
منا على عُدَوائها(٢١)
لا بالفراق تُنيلنا
شيئًا ولا بلقائها
أخذت حُشاشة قلبه
ونأت، فكيف بنائها(٢٢)
حلّت (تهامة) خُلّة(٢٣)
من بيتها ووطائها
ولها بمكة منزل
من سهلها وحرائها(٢٤)
رفعوا المحلة فوقها
واستعذبوا من مائها
تدعو شهابًا حولها
وتعمُّ في حلفائها
لولا (الفضول) وأنه
لا أمْن من عُدَوائها
لدنوتُ من أبياتها
ولَطفتُ حول خبائها
ولجئتها أمشي بلا
هادٍ لدى ظلمائها
فشربتُ فضلة ريقها
ولبثْ في أحشائها
فسلي بمكة تُخبَري
أنَّا من اهل وفائها
قِدْمًا وأفضل أهلها
منَّا على أكفائها
نمشي بألوية الوغى
ونموتُ في أدوائها

والذي نعجب منه بحق هو: كيف أباح لنفسه أن يستولي على القتول من أبيها، وهو الرجل المتمسك بصفات الكمال من كرم وفروسية وأدب وشعر، ومن نسب وحسب ظاهرين، فأين الحكمة والعقل؟، ويبدو أن اجتراحه لمثل هذه الأخطاء هو الذي أخره قليلاً عن مواقع بعض رجالات قريش، كما حرمته من أن يحظى بلقب «الكامل».

ومع ذلك كله يظل نُبيه بن الحجاج شاعرًا مكيًا جاهليًا مجيدًا ذا مكانة في قومه، أنطقت ألسنة الشعراء بمدحه، وهو أيضًا على حصافته ورجاحة عقله، كان يضم بين جنبيه قلبًا رقيقًا يهتز للجمال، وينسى، من أجل الوصول إليه، والحصول عليه، كل دواعي العقل والتعقل.

الهوامش

١. ندبوا: دعوا إلى القيام بأمر من الأمور.
٢. ثَقِفٌ: حاذق.
٣. الفلج: المقصود هنا: الواسع. والفلج أيضًا: الصبح، فيكون معناه كالصبح.
٤. لا يعرُ: لا يسوء غيره. المعترّ: الفقير المعترض للمعروف من غير سؤال.
٥. المفاقر: وجوه الفقر.
٦. الخلال: جمع خلّة، وهي الحاجة والفقر.
٧. الأطلس: الذئب المتساقط الشعر ذو اللون الأغبر الضارب إلى السواد.
٨. الأفحج: المتداني صدور قدميه، المتباعد عقباه.
٩. الدّعلج: الكلب والذئب، وكل مختلس من السباع، والدّعلجة: الاختلاس، والمقصود بها هنا هي السرقة، وبدعلج: السارق.
١٠. الهُجر: القبيح من الكلام.
١١. الهتْر: الكذب.
١٢. المناصيف جمع مَنْصف: وهو الخادم.
١٣. أجد الفضول: اجتهدوا.
١٤. قُتيلة: هي صاحبته القتول، أتى بها على هذا الوزن تدليلاً لها.
١٥. رسّ الحديث: ذكره.
١٦. كذا في الأصل، ولعلها: «لو أن أبيت فيها قتيلاً».
١٧. الأباء: أجمة الحلفاء والقصب.
١٨. لعله يقصد بنخلة: المكان الذي يقع بينه وبين الطائف: «سوق عكاظ»، شرقي مكة وهو حينئذ محل تبدّيه.
١٩. الرّعيل: جماعة الخيل.
٢٠. البُهلول: الجامع لكل خير.
٢١. عُدَوائها: بُعدها.
٢٢. نائها: نأيها، أي بُعدها.
٢٣. خُلة: صديقة أو صاحبة.
٢٤. حرائها جمع الحراء، وهو الناحية والجانب، أو كناس الظبي، ويجمع أيضًا على أحْراء.

تعليب اللحوم
خطواته ومحاذيره

فؤاد نعمة
حماة - سورية

نشأت فكرة تعليب اللحوم عندما أقدم الطباخ الفرنسي نيكولاس آبرت Nicolas Apert عام ١٧٨٠م، على وضع اللحوم المطبوخة في أوانٍ زجاجية مفرغة من الهواء. ثم استعاض بيتر ديوراند Peter Durand بعد سنة عن الأواني الزجاجية بمعلباتٍ من الصفيح الأسود، وهكذا بدأت فكرة التعليب، وأخذت تتطور إلى يومنا هذا، وقد أنشئت مؤسسات كبيرة لهذه الصناعة في مختلف بلدان العالم لتنتج كماً كبيراً في النوعية والمظهر، لترضي ذوق المستهلك الذي ضاق وقته بسبب المدنية، والذي يبحث دائماً عن النوعية الجيدة من الغذاء، وبأسهل الطرائق.

ويقف المستهلك حاليًا حائراً أمام هذا الكم الهائل من الأغذية المعلبة لاختيار ما لذّ وطاب. فما المعلبات الغذائية؟ وما قيمتها الغذائية؟ وما أخطارها؟

واللحوم المعلبة هي مواد غذائية تحتوي على كمية عالية من البروتينات والدهون والأملاح وقليل من الفيتامينات، ومحضرة بطريقة تناسب ذوق المستهلك، ومعلبة في عبوات معدنية محكمة الإغلاق.

ومن أنواعها لحوم الأبقار والجواميس، والأغنام والماعز والخنازير، والدواجن والأسماك، كما يمكن تعليب منتجات الذبائح، مثل اللسان والكبد والكلى والمخ وغيرها، بالإضافة إلى معلبات النقانق، والخضار مع اللحم.

خطوات تعليب اللحوم

- تحضير المادة الأولية: يتم تقطيع الذبيحة، ثم يخلص اللحم من النسج الضامة، وبقايا الغضاريف، والأوعية الدموية، وكذلك الأوتار

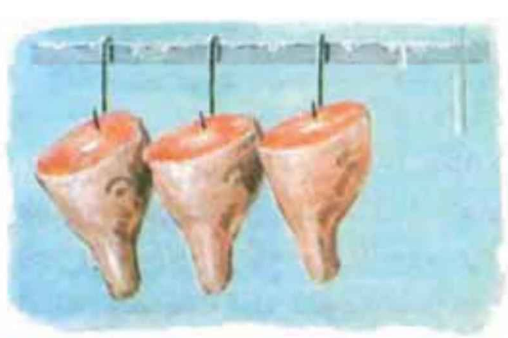


«حساء كامبل» لوحة مشهورة للفنان أندي ورهول

والأعصاب والدهون التي تحت الجلد. ويقطع اللحم إلى قطع صغيرة حسب الرغبة، أو يفرم باستخدام المفارم الناعمة، ثم يضاف إليه الملح، وأحيانًا يضاف إليه نتريت الصوديوم ٢مغ/١٠٠غ لإكساب اللحم اللون الزهري المرغوب فيه للمستهلك. وتضاف أحيانًا التوابل والدهن الحيواني أو النباتي والملح والسكر وغيرها حسب نوع المنتج.

ـ التسخين الأولي: وهو تسخين بعض الأنواع من معلبات اللحم مدة قصيرة، ونحصل بهذه العملية على محلول مائي أو مرق اللحم الذي قد يستخدم في بعض معلبات اللحم.

ويفقد اللحم من مائه في هذه العملية من ٤٠ ـ ٤٥٪ من وزنه بسبب التبخر. ويمكن أن يتم التسخين الأولي بواسطة البخار، أو بالماء، أو بمرق اللحم نفسه، وقد يضاف في بداية التسخين الماء إلى اللحم حتى يعادل تقريبًا الماء الذي سيفقد خلال التبخر، وهناك منتجات لا تحتاج إلى التسخين الأولي، وتبقى نيئة في المعلبات.





التعقيم العادي يؤدي إلى تغير في الطعم

ـ **تحضير الخضار**: في حالة استخدام الخضار في تعليب اللحوم مثل الفاصولياء، والبازلاء، والفطر، والجزر، وغيرها، فإنها تغسل جيدًا، وأحيانًا قد تحتاج إلى تسخين أولي.

ـ **تحضير العلب**: يفضّل نقل المعلبات الفارغة إلى مصنع التعليب وفوهاتها للأسفل بغية تقليل التلوث بالأتربة والأوساخ أو بالملوثات الأخرى، كما يجب غسلها قبل استعمالها، ثم تعقيمها بالبخار أو بالماء الساخن، ويتم ذلك قبل التعبئة مباشرة.

وتتم التعبئة يدويًا أو آليًا بالخلطات المنتجة بعد عملية الفرم أو التنعيم مع مراعاة عدم ترك فراغات هوائية داخل العلبة.

ـ **سحب الهواء وإغلاقها**: أي سد العلب تحت التفريغ الآلي (الإغلاق المزدوج)، حيث تفرّغ العلبة من الهواء، ويتم الإغلاق بأن واحد، ويراعى عند غلق العلب وجود حلقة رقيقة مطاطية في غطاء العلبة.

ـ **وضع العلب داخل سلة التعقيم**: تجرى عملية التعقيم بوضع العلب داخل سلة التعقيم، ثم تدخل في الصاد الموصد (اوتوكلاف)، ويغلق ويضبط على درجة الحرارة المطلوبة والضغط الجوي والزمن المناسب للتعقيم، كما تتوقف مدة التعقيم وحرارته على:

ـ درجة نظافة المادة الغذائية المعلبة، والأدوات المستخدمة في مراحل التعليب المختلفة.

ـ طريقة انتقال الحرارة داخل العلبة: يتم انتقال الحرارة بطريقة الحمل إذا كان المحتوى حاويًا على المرق، ويكون انتقال الحرارة بالتوصيل إذا كان المحتوى خاليًا من المرق أو السوائل الأخرى؛ إذ يكون انتقال الحرارة في الحالة الأولى أسرع.

ـ حجم العبوة: بزيادة حجم

العبوة تزداد المدة الزمنية لوصول الحرارة إلى مركز العلبة. وعموماً تعقم معلبات اللحوم ذات عبوة ١/٢ إلى ١كغ على درجة ١١٠ ـ ١٢٠م مدة ٦٠ ـ ٩٠د، وفي حالة إضافة صلصة تكفي حرارة ١٠٥م مدة ساعة واحدة.

ـ طريقة تعقيم العلب في الوضع الثابت أو المتحرك، حيث يسرع تحريك العلب في الصاد الموصد من نفوذ الحرارة.

ـ درجة البي أتش PH للمنتج: تُعد اللحوم والأسماك من الأغذية القليلة الحموضة، لذا تحتاج مثل هذه المنتجات إلى درجات حرارة عالية وبحدود ١٢٠ ـ ١٣٠م، وللتقليل من مساوي رفع درجة حرارة التعقيم، يمكن استخدام الطريقة (التندلية)، وهي التعقيم المتكرر، فيجري التعقيم مرتين، وبفاصل زمني من ٢٠ ـ ٢٨ ساعة بين كل مرة وأخرى على درجة حرارة ١٠٠م ومدة زمنية من ٦٠ ـ ٧٠ دقيقة، وبهذه الطريقة تحافظ اللحوم على ليونتها وطراوتها، وتزداد لذتها.

ومن الناحية الميكروبيولوجية، فإن التعقيم بالطريقة التندلية يؤمن في المرة الأولى القضاء على غالبية الخلايا الخضرية للبكتيريا، بينما نجد قسماً منها يحمي نفسه متحولاً أبواغاً تنمو في الفترة الزمنية الفاصلة إلى أشكال خضرية سرعان ما تموت في أثناء المعاملة الحرارية الثانية.

ـ محتوى العلبة بالدهون والزيوت: تعمل على حماية الأحياء الدقيقة من تأثير الحرارة، لذا يجب تعقيم الأغذية المحتوية على هذه المواد فترة زمنية أكثر من المعتاد.

ـ وجود المضادات الحيوية Antibiotics: إن وجود بعض المواد الكيماوية، ولاسيما ذوات الأصل النباتي مثل الزيوت والمواد الطيارة الموجودة في البصل والثوم والبندورة والفلفل والتوابل الجافة يؤدي دوراً في زيادة تأثير التعقيم وتقليل زمنه.

ـ وجود الملح والمحاليل الملحية: تعمل التراكيز القليلة من الملح على حماية الأحياء الدقيقة في أثناء التسخين، إلا أن زيادة نسبة المحتوى الملحي تعمل على انكماش سيتوبلازما الخلايا نتيجة الضغط الأسموزي للوسط؛ لأن ارتفاع تركيز الملح يزيد من ميل بروتينات الأحياء الدقيقة إلى التخثر ومن ثم ينخفض زمن الإبادة.

أما طرائق التعقيم فتختلف أجهزة التعقيم (الصاد الموصد) في أشكالها وأحجامها والطريقة التي تسخن بها، ومن هذه الأجهزة: المعقم الثابت، والمعقم الدوراني، والمعقم المائي الساكن، والمعقم ذو السيور المتحركة. وجميع هذه الأجهزة تعمل على رفع درجة الحرارة بوساطة الماء مع التحكم بالضغط الجوي المطبّق، وفي الفترة الأخيرة أمكن استخدام الأمواج فوق الصوتية في تعقيم معلبات اللحوم، فالتعقيم العادي يؤدي إلى تغيير في الطعم وهدم جزء كبير من الفيتامينات بسبب ارتفاع درجة الحرارة، بينما استعمال الموجات فوق الصوتية لا يحدث ذلك بسبب عدم رفع درجة الحرارة، وفي الوقت نفسه تقضي هذه الموجات على الأحياء الدقيقة الموجودة في اللحم، ويزداد تأثير الموجات الصوتية عند رفع درجة



للتعليب أثره في المكونات الغذائية للحوم والخضار

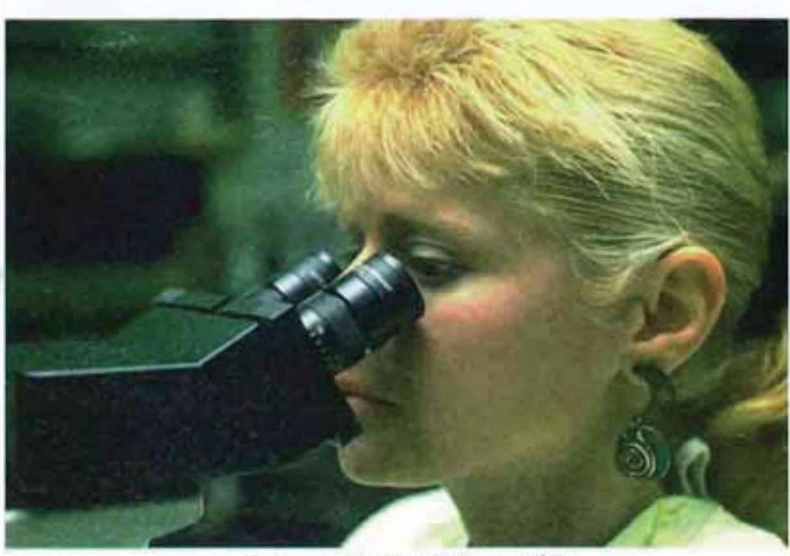
حرارة المنتج إلى ٢٧ْم في إتلاف الأحياء الدقيقة بمقدار ٥ أضعاف. والموجات فوق الصوتية هي ذبذبات أو اهتزازات مصدرها أجهزة خاصة تعتمد حركتها على حركة ترددية قوية إلى الأمام والخلف، وهذه الذبذبات لا تصل إلى سمع الإنسان؛ لأن تردد موجاتها أعلى، علماً أن الترددات التي يمكن أن يسمعها الإنسان تكون بحدود ١٦ كيلو سايكل.

- التبريد: تبرد المعلبات داخل الصاد الموصد بوساطة الماء البارد ذي الحرارة من (٣٥ - ٤٠) ْم وبصورة سريعة ومفاجئة لإحداث الصدمة الحرارية (لقتل جميع ما تبقى من الأحياء الدقيقة وأبواغها).

- التحضين: توضع المنتجات المعلبة في الحضانة فترة تراوح بين ٢ و ٤ أسابيع وفي درجة حرارة مئوية ٣٧ْ، ثم تؤخذ عينات الفحص الجرثومي والحسي للتأكد من سلامتها.

- تخزين العلب: تخزن العلب السليمة في أماكن باردة نسبياً (٥ - ١٠ْم) ورطوبة ٧٥ - ٧٨٪. بعد لصق بطاقة من المعلومات تبين اسم الشركة المنتجة، ونوع المنتج، وتاريخ التعبئة، ومدة الصلاحية، بالإضافة إلى المكونات الداخلة في العلبة.

- التغليف والخزن: تغلف المعلبات بوضعها في صناديق خشبية، أو كرتونية، أو أغلفة صناعية مثل بولي إيتيلين، ثم ترسل بعد ذلك للاستهلاك.



التأكد من سلامة خطوات التعليب مجهرياً

تأثير التعقيم في مكونات اللحم الغذائية

- تحدث حلمهة للبروتينات: فتحول إلى ببتيدات متعددة، منها ثنائية أو ثلاثية بالإضافة إلى تحول الكولاجين إلى جيلاتين. والحلمهة الزائدة تؤثر سلباً في بروتينات اللحوم، فتزداد كمية الأمونيا، والبروتينات المسؤولة عن الطعم والنكهة في اللحوم، فتتعرض لتغيرات كيماوية معقدة، ومن هذه المواد الغلوتامين والغلوتاميك والغلوتاتيون الذي يتفكك نتيجة التعقيم معطياً H_2S.

- يحدث تحلل بسيط للمواد الدهنية، فتزداد نسبة الحموضة الدهنية الحرة.

- يزداد الفقد في الفيتامينات بحدود ٤٠ - ٧٠٪ ولا سيما عند وصول درجة حرارة التعقيم إلى ١٢٠ - ١٣٠ْم، ويلاحظ مقاومة كل من فيتامين E و K للحرارة، بينما يكون فيتامين A مقاوماً عند غياب الأكسجين.

لمحة عن المعلبات المستخدمة في التعليب

يستخدم في صناعة المعلبات الحديد الأسود والمصنوع على شكل ألواح، ثم يطلى الحديد من كلا الوجهين بالقصدير السائل عن طريق غمر الألواح، أو عن طريق الترسيب الكهربائي (الطريقة الغلفانية). وقد يسبب الصفيح المطلي أو غير المطلي بالقصدير تغيراً في لون المواد الغذائية المعبأة، بالإضافة إلى احتمال تفاعل بعض مكونات الأغذية مع القصدير مما يسبب تدهوراً في صفات الأغذية أو فسادها، لذلك تعامل ألواح الصفيح بحيث يطلى أحد وجهيه بمواد عضوية، وهي محاليل من الصموغ الراتنجية مذابة في مذيبات عضوية أو مواد أخرى،



التعليب يفقد المواد الغذائية كثيراً من خصائصها

لتقف حائلاً بين الغذاء والقصدير، وتسمى هذه المواد بالورنيش Enamel، وهي ذات لون ذهبي، وتتمتع بالصفات التالية:

- تكون هذه المواد مرنة، وتتحمل التصنيع الميكانيكي، ولا ينتج منها قشور في أثناء صناعة العلب.
- لها القدرة على الاحتفاظ بشكلها وخواصها في أثناء فترات التخزين والحفظ.
- لا تتأثر بالقلويات والحموض والأملاح.
- لا تتأثر بدرجة حرارة التعقيم العالية بعد تعبئتها بالمادة الغذائية.
- غير سامة مع خلوها من المعادن الثقيلة ولا سيما (الرصاص، الكادميوم، الزرنيخ، الزئبق، والأنتموان).
- تمنع التفاعل بين معدن الصفيح ومكونات المادة الغذائية.
- لا تضر بصفات المادة الغذائية المعبأة من طعم ولون ونكهة.
- لها قوة التصاق عالية بمعدن الصفيح، ولا تنفصل بالمعاملات الحرارية.



عند استخدام الخضار في تعليب اللحوم لا بد من غسلها جيداً

أهم العيوب التي تصيب المعلبات

- **التشويه:** تصاب المعلبات أحياناً بتشوهات في الصفيح مما يؤدي إلى تغير في شكل العلبة ويحصل هذا التشوه في أثناء عملية التعقيم أو في أثناء التعامل معها (نقل، تخزين وغير ذلك). وقد يسبب التشزيه تخرب الطبقات الواقية للصفيح ويعطل الإغلاق المحكم للغطاء.
- **الانتفاخ المؤقت:** إن سبب حصول الانتفاخ هو الانخفاض السريع في الضغط الجوي في الصاد الموصد في أثناء عملية التعقيم والتبريد، ويعود الغطاء إلى وضعه الطبيعي بالضغط عليه. كما يمكن أن يحصل هذا الانتفاخ في أثناء تخزين المعلبات في درجات منخفضة تحت الصفر.
- **الصدأ:** يفهم من ذلك أن تخريباً عميقاً قد وصل للمحتوى، ودخلت شوارد المعادن المكون منها الصفيح إلى اللحم. ويؤدي صدأ الطبقة الداخلية للعلبة إلى تشكل بقع سوداء هي ماءات وكبريتات الحديد. أما الصدأ الخارجي فقد يؤدي إلى ثقب الصفيح، ومن ثم تصبح الفرصة مهيأة لدخول المسببات المرضية (جراثيم، مواد معدنية وغيرها) وتزداد فعالية الصدأ بوجود الأوكسجين والماء والوسط الحمضي.
- **التبرقش:** هو تلون الطبقة السطحية لصفيح الحديد

المقـصـدر، مـشكلاً بـذلك لوحـة لامعة وملونة من الأصفر الفاتح إلى الأزرق، ومن البنفسجي إلى الأسـود، وسـبب التـبـرقش هو دخول الماء خلال عمليات التعقيم، كـمـا أن درجـة PH (البي أتش) المتعادلة مع محتوى كـبـير من البـروتينات الغنيـة بالكـبريـتات تساعد على تكون التبرقش.

ـ اسوداد محتوى المعلبات: يسود المحتوى أحيانًا على الرغم من عـدم اتصـاله بالمعدن ويكون سبب ذلك وجـود مـحـتـوى غني بالبروتينات والكبريتات وحموضة متـعادلة. كما يكون في أغلب الأحيـان تفاعل الصدأ الحديدي مع مـحـتـوى المادة المعلبـة مشكلاً كبريتات الحديد، أو بإضـافـة الماء الحـاوي على شـوارد الحـديد، وأيضــا يمكن أن يشكل اسوداد المعلبات احتواؤها على كـمـيـة عـاليـة من الجيلاتين، وهناك سبب آخر للاسوداد في المعلبات وهو وجـود الجـراثـيم اللاهوائـيـة المتـبـوغـة والمتحملة للحرارة حيث تنتج هذه الجـراثـيم Desulfoto-maculum Nigrificans غـــاز كبريت الهيدروجين H2S نتيجة تحلل البروتينات.

ـ تغيرات في الطعم:

ـ فقدان الطعم الطبيعي: بسبب تفـاعل المحـتـوى والصـفـيح، أو أكسدة الدهون ومواد أخرى.

ـ الطـعـم المر: يـظـهـــر فـي المعلبات المطلية بالورنيش، وكذلك بمركـبـات المنغنيـز مـع المطاط وغـالبـا مـا يكون الطعم المر ناتجا من زيادة فـتـرة تعـقـيم المعلبـات وبدرجـات عالية من الحـرارة مما يؤدي إلـى تحـويـل الكرياتـين إلى كرياتين حر.

ـ الطعم المعدني: ينتج عندما



المعلبات أصبحت جزءا مهما من الحياة المعاصرة

تكون الشـوارد المـعـدنيـة زائدة في محتوى المادة المعلبة خصوصًا في أثناء الصـدأ. وتـتـوضـح درجـة انحـراف الطـعم مع زيادة فـتـرة التخزين.

ـ عـدم إحكام إغـلاق العلب: وهي من أهم العـيـوب التي تؤدي إلى إفساد المحتوى، نتيجة عيب أو خلل في الغطاء أو القعر، أو نتيجة دخـول الجراثيم عـبـر الثقوب في الصـفـيح حـيث تـتكاثر وتـطلق الغازات، أو لضـعـف الارتباط مع جـسم العلبـة، أو بـسـبـب تثـقـب الصفيح. وهناك سبب آخر يجعل الإغلاق غير محكم وهو التعبئة الزائدة لمحـتـوى العلب. فـوجـود الأحـيـاء الدقيـقـة غيـر المحـتملة للحرارة داخل المعلبات هو دليل على أن الإغلاق غير محكم.

ـ الانتـفــاخ الدائم: إن الانتـفـاخ الشـائـع هو من الدرجة المعتدلة، أي انتفاخ الغطاء أو القـعـر من دون تشـوه في جـسم العلبـة. ويكون الانـتـفـاخ حـسـب المسـبب (جـرثـومي، أو فيزيائي، أو كيماوي).

فـالانـتـفـاخ الجـرثـومي يكون بـسـبـب فـعـاليـة الجراثيم التي بقيت حية أو التي قد دخلت المعلبات بعد التـعقيم من خـلال الغطاء غـيـر المحكم الإغلاق، أو نتيجة تسربها إلى المحتوى وتكاثرهـا مـسـبـبـة بذلك انطلاق غـازات مـثـل (NH_3، H_2S، CO_2) والتي بدورها تسـبب دفع الغطاء إلـى الخـارج، ومن ثم انتفاخ العلبة.

إن المطثيـات مـثـل Cl. Putrificum تشكل كـمـيـات كـبـيـرة من الغازات وتـتـصـاعد فـقـاقـيع غازية من السـائل داخل العلبـة، وفي

النهاية تصبح المحتويات كلها فاسدة عكرة رغوية، بالإضافة إلى تلون جدار العلبة الداخلي باللون الرمادي أو الأسود. وهناك جراثيم أخرى لكنها هوائية مثل E. Coli والمكورات مثل Streptococcus وهي تسبب انطلاق الغازات وتغير اللون، بالإضافة إلى ظهور رائحة عفنة، كما يصبح الوسط حمضيًا. ولا تعد المعالجة الحرارية هي البديلة لعمليات التنظيف الضرورية؛ إذ إن بعض الجراثيم لا يمكن القضاء عليها كليًا بالحرارة حتى ولو كانت مرتفعة. وتعد المعالجة الحرارية الناقصة أحد أهم أسباب تلف المعلبات.

أما الانتفاخ الكيماوي فيحدث لسببين: أولهما لتحرر الغازات من المحتوى في أثناء المعاملة الحرارية للمعلبات، أي خلال التعقيم للمحتوى، حيث تتحرر الغازات المتصة في اللحم قبل التعليب، وكذلك في أثناء تحطيم البروتينات، وفي أثناء التبريد. وعلى كل فالغازات المتكونة لا تعمل على تغيرات واضحة في المحتوى، أما الغازات الناتجة من تحطم البروتينات فلها علاقة واضحة في تغيرات المحتوى مما يؤدي إلى ظهور CO_2 قبل كل شيء. فالزيادة في تحرر مثل هذا الغاز هي السبب في الانتفاخ الكيماوي ولا سيما عندما يكون المحتوى غنيا بالكولجين، كما أن له تأثيرا على الصفيح الأبيض.

وثانيهما لتشكل الصدأ أو التبرقش؛ فتشكل الصدأ قد يسبب في أغلب الأحيان انتفاخا كيماويًا نتيجة تحرر H_2، وبالمثل فإن تشكل التبرقش في المعلبات في أماكن حارة ولفترة طويلة، ولاسيما المعلبات ذات المحتوى الحمضي، قد يسبب انتفاخا كيماويًا.

أما الانتفاخ الفيزيائي فيحدث نتيجة للتعبئة الزائدة التي تسبب الانتفاخ الدائم. أما الانتفاخ المؤقت فيمكن إعادة الغطاء إلى وضعه الطبيعي بعد توقف التبريد، وهناك انتفاخ مختلط ينشأ عن تشارك أكثر من سبب في تكوينه مثل (جرثومي وكيماوي وفيزيائي) في وقت واحد.



التأكد من إحكام إغلاق العلب ضرورة صحية

التسمم الغذائي الناتج من استهلاك معلبات اللحم

يكون التسمم عادة نتيجة أحد السببين التاليين:

– التسمم الجرثومي: يمكن أن يحصل تسمم جرثومي ناتج من وجود المطثيات الوشيقية في المعلبات Cl. Botulinum فتصاب المعلبات بالانتفاخ نتيجة تكوين الغازات مثل(H_2S، H_2، CO_2) مع وجود رائحة حامضية أو زنخة، وأحيانا لا ينتج انتفاخ، ولا يحصل تغير بالرائحة والطعم. كما قد تسبب السالمونيلا، والمكورات العنقودية الذهبية التسمم الغذائي من طريق تسرب هذه المسببات عبر الثقوب إلى المحتوى.

– التسمم الكيماوي: ينتج من تلوث المحتوى بالمعادن مثل القصدير، أو الزرنيخ وغيرها.

المراجع

1. J.F. Gracey & D.S. Collins. Meat Hygiene 9th. 1992
2. Matyas Z & Heiss J. Technologie Potravin A Surovin Zivocisneho Puvodu Praha. 1977
3. Matyas Z & ... Hygiena A Potravin Masa A Masnych Vyrobku Praha. 1965
4. Mikalik A & Dolezal M. Nektere Zmeny Na Biologicka ... masa A Masnych Vyrobku Praha. 1983
5. Lamanna C. THE most poisonous poison. Science. 1959



التضامن الإسلامي
الفكرة والتاريخ
ودور
المملكة العربية السعودية

يا من عليك المعتمد

صلاح عفيفي
القاهرة - مصر

يا مَنْ عطاؤك للأبدْ
غطى الوليدَ وما ولدْ
يا من تعهدتَ الورى
عطفاً على طول الأمدْ
ومن الثُّريا للثَّرى
لم ينقطعْ منك المَدَدْ
عند الشدائد لا نرى
يارب غيرَك من سَنَدْ

◦◦◦

أنت العليُّ فمن سواكْ
رفع السماء بلا عَمَدْ
أنت القويُّ فمن عَداكْ
بالملك والعرش انفردْ
أنت الوليُّ وفي حِماكْ
عبدٌ توكّلَ واجتَهدْ
أنت الغنيُّ ومن نداكْ
نبعُ الهدايةِ والرشدْ

◦◦◦

ياذا الجلالة في علاهْ
والواحد الفرد الصمدْ
يا مَنْ له تجثي الجباهْ
والقربُ منك لمن سجدْ
يا مَنْ ترى ما لا نراهْ
ما كان مثلك من أحد
بك نستَعين على الحياهْ
يا مَنْ عليك المعتَمدْ

◦◦◦

بدوام حمدك يا حميد
نعمٌ تدوم لمن حمدْ
وبرحمةٍ لك بالعبيدْ
أطعمت حتّى من جحدْ
ولأنك الهادي الرشيدْ
تدعو إليك من ابتَعدْ
بالرحب تقبل ما تريد
والتوب مدخل من وفدْ

◦◦◦

النبض في قلب سليمْ
تَرديدُهُ أحَدٌ أحَدْ
وعلى صراطٍ مستقيم
من لا يحيدُ فقد صعَدْ
في الأرض من فيض الكريم
ما فاق آفاق العدد
وبعرض جنات النعيم
ما لا يدور على خَلَدْ

◦◦◦

ندعوك باسمك يا صبورْ
بالصبر تنفتح العقدْ
والشكر لله الشكور
باليسر يسمح والرَّغدْ
والذكرُ شرحٌ للصدورْ
والطهرُ روحٌ للجسدْ
والطيرُ سبّحَ في البكورْ
والنورُ مسبحٌ من عبدْ

◦◦◦

البيت مرفوع العمادْ
والجمع للفرض احتشدْ
والصوم في يوم المعادْ
زادُ العبادِ ومبتَردْ
والبر والمعروف سادْ
جاد الجواد فما افتقدْ
والأجر أضعاف وزادْ
من يزرع الحسنى حصدْ

◦◦◦

يا مَنْ وليُك لا يضامْ
يا من عدوُك في كَمَدْ
ثبّتْ فؤادَ من استقامْ
وأزلْ غشاوة من شرد
أدِمِ المحبةَ والوئامْ
وأعنْ يداً مُدّتْ ليدْ
واغْنِ الحلالَ عن الحرامْ
واحرسه من عين الحسدْ
يا واحداً دون العناءْ
والغيرُ يفقد إن وجدْ
يا ماجداً ولك البقاءْ
وخلافُ ما تُبقي بَدَدْ
إن قلت كن كان القضاءْ
والأمر أمرك لا يُردْ
تؤتي وتنزع ما تشاء
والملك لله الأحدْ

◦◦◦

يا من رضاك هو النجاهْ
ما كان دونك ملتحدْ
في اليسر علّمْنا الأناهْ
في العسر ألهمْنا الجلدْ
وأنر مصابيح الهداهْ
واحم العقيدةَ والبلدْ
والنصرُ وعدُكَ يا إلهْ
ولأنت أصدقُ من وعدْ



نبيل السيد رمضان
مكة المكرمة - السعودية

تركنا الأهل والولدا
وجئنا ذلك البلدا
سألنا اللهَ مغفرةً
فأنجزَ ما به وعدا
وطُفْنا حولَ كعبتِه
ووفْدُ الله قدْ حَشَدا
فمنهم من دعا الله
فقام له يمُدُّ يدا
ومنهم راكعٌ يبكي
ومنهم مَنْ لهُ سجدا
ومنهم خاشعٌ وَجِلٌ
مقامَ الخوفِ قدْ شَهِدا
فجاءَ البابَ مُلتزِمًا
يُناجي الواحدَ الأحدا
ومنهمْ طائفٌ رَمَلاً
يَحُثُّ القلْبَ والكَبِدا
فجاءَ الركْنَ مُستلِمًا
وسُقْيا زمزمٍ وَرَدا

وقد خلعوا ثيابهم
ومنْ يخضعْ له سَعِدا
أمامَ الحِجْرِ صلَّيْنا
فسرَّ القلبَ ما وجَدا
وجئْنا للصَّفا صُعُدا
وفازَ اليومَ منْ صَعِدا
سعيْنا نَحْوَهُ رَمَلاً
فقرُبْنا وما بَعُدا
وفوقَ المرْوةِ اجتزْنا
نُتمُّ السَّعْيَ والعَدَدا
وحلَّقْنا وقصَّرْنا
وفَضْلُ اللهِ ما نَفِدا
فأشكُرُهُ وأحمَدُهُ
بأبلغِ ما به حُمِدا
وصلَّى اللهُ مولانا
وسلَّمَ دائمًا أبدًا
على المختارِ من مُضَرٍ
وأكْرَمَنا به وهُدَى



المأساة

شعر: أسدالله غالب*

ترجمة: سمير عبدالحميد إبراهيم

الرياض - السعودية

أيها الغافل! الحياة قصيرة كلمح البصر
وهذا الحفل الصاخب ما هو إلا كرقص الشرر
لا يدوم لحظة.. فاحذر.. فأنت في خطر
يا إلهي! لم تمسحني من صفحة هذه الدنيا
أنا لست صورة معادة على لوح الأيام
مقامي لا يقل عن مقام الشمس والقمر
لماذا منعتني من السجود على عتبات الآخرين؟
أليس ذلك لأن مقامي عال علو السماوات!
لكني ورثت عن آدم طبعه.. فأنا ابن آدم
وها أنا ذا أعترف بارتكابي المعاصي
يا إلهي!
إذا كان هناك من عقاب على ما اقترفت من ذنوب
فاغفر لي.. وهب لي ثوابا
على خفرات الذنوب التي لم ترتكب

ooo

لا عزة ولا كرامة لتلك الوردة
التي نزعت من الروضة
فعزة الفرد في أن يظل قابضاً على تلابيب الأمة
أيها القلب اغتنم الفرصة
وأخرج نغمات الحزن
فلم يعد هناك وقت
فذات يوم ستصمت فجأة إلى الأبد
قيثارة الحياة.

ooo

آهـ.. ما الخريف؟
وما الفصل الذي يطلق عليه فصل
الأزهار؟
فليكن أي فصل
فنحن كما كنا، والقفص كما كان
والندب على الريش
والجناح مكسور
منذ زمان...

الهوامش

* أسد الله غالب من شعراء الهند الكبار. توفي سنة ١٨٦٩م، ولا تزال أشعاره وكتاباته النثرية تطبع وتدرس في مدارس الهند وباكستان وجامعاتهما. وقد ترجمت للغات عدة.
ولد وعاش ومات في دهلي، وشهد فيها الثورة ضد الإنجليز عام ١٨٥٧م، تلك الثورة التي أدت إلى قتل مئات الآلاف من مسلمي الهند. فعاش غالب مأساة الأمة الإسلامية، وأصبحت الحياة أمامه تمضي على وتيرة واحدة، لافرق بين يومه وأمسه، وبين يومه وغده. فقد شعر أن الحضارة الإسلامية في الهند باتت ذكرى، تراوده أحياناً. فيشعر بالأسى؛ لأنه مثل الطائر الذي لم يعد يقدر على الطيران. فقد نزعت منه أجنحته. وهكذا جاءت أشعاره معبرة عن أحاسيسه. وقد جعل من البيت الشعري وحدة قائمة بذاتها من حيث المعنى، يحتاج إلى تفسير وشرح. وهذه أبيات مقتطفة من ديوانه المعروف باسم «ديوان غالب».

زمزم.. الماء والشفاء

فوزي عبدالقادر الفيشاوي
أسيوط - مصر

إنها هاجر .. زوج خليل الله إبراهيم.. وهي تحمل وليدها الرضيع، وتمضي إلى حيث أراد الله، لم تسأل زوجها إلى أين الرحيل؟ لم تقل: لماذا؟ بل امتثلت في هدوء، وسارت معه حيث يسير، إلى أن بلغا - بعد أيام - بقعة مهجورة إلى جوار أطلال الكعبة... يتوقف إبراهيم عليه السلام عن السير، ثم ينظر إلى زوجه وولده مودعاً، ويمضي راجعاً إلى الشام. لم تزد هاجر، وهي تراه يتركها في هذه الأرض المجدبة القاحلة الغليظة، على سؤاله: أتتركنا بهذا الوادي، وليس فيه ماء ولا زرع، ولا أنيس؟

ويصمت إبراهيم، ولا يلتفت إليها، فتعود تسأله:

- آلله أمرك بهذا؟

يرد الخليل في رفق: نعم.

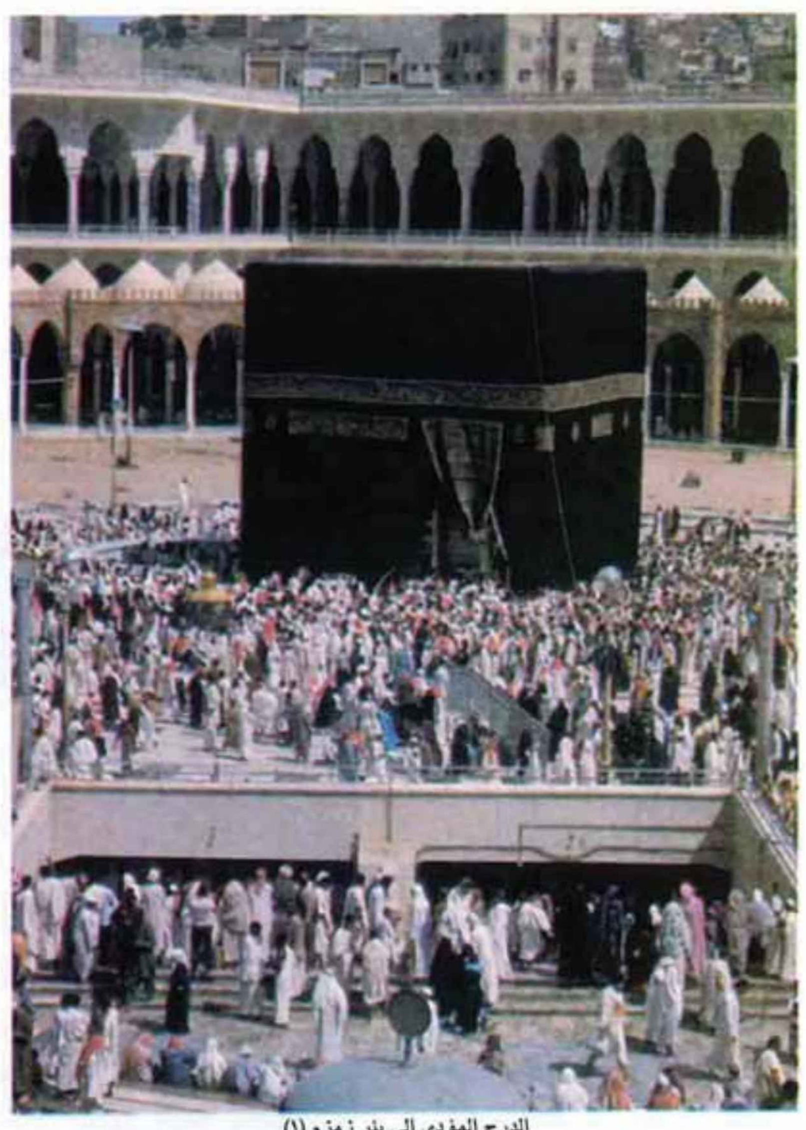
لم تكن عينا هاجر تبصران في هذا البلقع المهجور غير أسباب الضياع محققة، لكنها أبصرت بنور إيمانها كل أسباب النجاة ماثلة في قلبها، فتقول في هدوء وثقة ويقين: إذن لا يضيعنا.

وينصرف إبراهيم ويتركهما، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ورفع يديه إلى السماء داعياً: *ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون*. إبراهيم:٣٧.

أي وحشة عميقة تشي بها هذه البقعة، غير ذات الزرع والضرع .. الجبال القاسية التي ترقد في صمت.. والرمال الصفراء الفاتحة، التي تخطف بصفرتها الأبصار.. وحتى الهواء الساخن هنا يبدو بغير صوت.. تخيل أم إسماعيل، وسط هذا السكون والجفاء، ليس ليوم واحد أو ليلة واحدة، ولكن على مدى أيام طويلة.

وينفد ما لدى هاجر من تمر وماء، وينقطع معهما غذاء الرضيع من ثدييها، ويأخذ الجوع والظمأ يلهب أحشاء الطفل الرضيع، وتكاد الأم تفقد رشدها، وهي تستمع إلى أنين ولدها وبكائه المتقطع الموصول، وتتلفت فيما حولها مكروبة ذاهلة، تتلمس الماء.. ولكنها لا ترى غير الجبال السود والأودية المتقاحلة.

لا أحد يعرف - غير الله تعالى - عمق المشاعر المهلكة التي كانت تفتت قلبها.. وهي تهرول في هذا الخلاء المجدب، بحثاً عن شربة ماء تبل الظمأ، وتنقع الغلة.. تسوقها أقدامها المكدودة إلى أقرب جبل إليها.. إلى الصفا.. وخيل إليها أن ولدها كف عن البكاء والصراخ، فتهبط مسرعة مهرولة، حتى إذا جاوزت الوادي وصعدت إلى المروة تستجمع أنفاسها اللاهثة، وتقلب طرفها



الدرج المؤدي إلى بئر زمزم (١)

الواهن، علّها تعثر على أحد، ولكنها لا ترى أحداً.. وما تزال على هذا الحال، تتجاذبها اللهفة والقلق والإشفاق، حائرة بين الصفا والمروة، سبعة أشواط.. كانت وهي تهرول، تتلفت وراءها إلى حيث تركت وليدها، وتتسمع صوت بكائه من بعيد.. كان يضنيها بكاؤه، ولكن سكوته، كان يفزعها أشد الفزع.. فما دام يبكي، فهو على قيد الحياة.. فالأحياء هم الذين يبكون!

هكذا، سبعة أشواط، وهي تسعى وتهرول بين الصفا والمروة، ولا ينقطع بكاؤها.. وفجأة يختفي صوت طفلها، بعد نوبة هادرة من الصراخ الجريح.. هل مات الصغير؟ تذكرت لحظتها، ما قالته لإبراهيم، عن أهل الله الذين لا يضيعهم.. وبكت ورفعت صوتها بالبكاء فانفجرت أعين زمزم، وظهر ماؤها المبارك.

هكذا في غمضة عين استحال الهلاك المحقق إلى نجاة وأمل وبشريات طيبة. وأقبلت هاجر تشرب من الماء، وتسقي إسماعيل الرضيع. وفي لهفة الأم الحانية، أخذت تحيط مكان خروج الماء المتدفق بما استطاعت جمعه من الحصى والرمال، لئلا يسيل يميناً وشمالاً، ولئلا يغيض في رمال الصحراء. وهي لا تدري أن هذه العين سوف تبقى جارية متدفقة على مدى آلاف السنين، والناس يردون إليها ويصدرون. وهي لا تدري أن عين زمزم المباركة سوف تحيل هذه البقعة الصحراوية القاحلة إلى واحة وارفة الظلال، تهفو إليها قلوب الناس وتحن، تماماً كما دعا الخليل إبراهيم. وهي لا تدري أيضاً أن هذه العين سوف يفد إليها من شتى بقاع الأرض الملايين من حجاج البيت ومن المعتمرين، في كل عام، ليشربوا من مائها المبارك الطهور.

في محراب النبوة

لم تكن عين زمزم خيراً وبركة على هاجر وابنها فحسب، بل كان فيها الخير والبركة جميعاً لهذه البقعة من الأرض. فزمزم - في الحقيقة - كانت هي مقدمة عمران مكة التي سمت مكانتها بين العرب، بعد بناء الخليل إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام البيت الحرام. وعلى مدى تاريخ زمزم، الذي يبلغ نحو أربعة آلاف عام، ظلت هي المصدر الرئيس لسقاية حجاج بيت الله الحرام.

ومع سطوع شمس الإسلام، ازدادت أهمية زمزم، وزاد إقبال المسلمين على مائها، وخاصة بعد أن رأوا حرص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليها، وبعد أن أشاد بفضل مائها وبركته.. فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - شرب من ماء زمزم، وقال: «إنها مباركة، إنها طعام طعم وشفاء سقم». وقد ذكر، أنه عليه الصلاة والسلام - بعث إلى سهيل بن عمرو: «إن جاءك كتابي هذا ليلاً، فلا تصبحن، وإن جاءك نهاراً فلا تمسين، حتى تبعث إليّ بماء زمزم».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «سقيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من زمزم، فشرب وهو قائم» أخرجه البخاري. وفي لفظ آخر «أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب دلواً من ماء زمزم قائماً» أخرجه ابن خزيمة. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل ماء زمزم في الأداوى والقرب، وكان يصب على المرضى ويسقيهم» أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي.



تشوق إلى الشرب من المعتمرين والزوار (٢)

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شُرب له، إن شربته تستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله» رواه الدارقطني والحاكم، وزاد: «وإن شربته مستعيذاً أعاذك الله». وروى سعيد بن منصور في سننه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «خير بئر في الناس زمزم». وروى الطبراني في الكبير، وابن حبان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام الطعم، وشفاء السقم».

فهذه كلها إشارات تدعونا أن نسأل عن طبيعة بئر زمزم، وحقيقة مائها الذي يوصف بأنه ماء معدني مبارك.

عين ماء معدني

«عين زمزم»، هي بحق أشهر عيون المياه المعدنية في عالمنا، على الإطلاق. والعيون المعدنية هي التي تنشأ من تدفق المياه من تحت الأرض، عبر الفتحات الأرضية والشقوق، إلى سطح الأرض، في شكل مجرى مائي أو نافورة أو ينبوع.

ومياه العيون هي في الأصل مياه المطر، التي تسربت إلى باطن الأرض، ثم انحدرت فيها إلى مسافات بعيدة. ولنلاحظ أن مياه المطر تكون صافية تماماً وخالية من الأملاح حينما تسقط من السحاب، ولكنها عندما تتسرب إلى باطن الأرض، وتمر ببعض طبقات قشرتها التي تحتوي في تركيبها على معادن وأملاح معدنية، فإنها تذيب ما تيسر لها إذابته. وإذ تختلف نوعية الأملاح من منطقة إلى أخرى في

انتشرة الأرضية، فإن التركيب الكيماوي للمياه التي تتفجر بها العيون، لابد أن يختلف. ولأن هذه المياه تحتوي على أنواع متعددة من الأملاح الذائبة، فإنها تدعى «مياه معدنية».

والواقع أن الخبراء يصنفون العيون والينابيع - حسب كمية المياه المتدفقة منها - إلى ثمانية أنواع، يعطي أكبرها ما يزيد على مئة متر مكعب في الثانية، مثل ينبوع «فونتان دي فوكلوز» في فرنسا، والذي يضخ ما يربو على ١٥٠ مترًا مكعبًا في الثانية..بينما لا يتجاوز إنتاج أصغر العيون لترًا واحدًا من المياه في الدقيقة.

ووفقًا لهذا التصنيف تعدّ «عين زمزم» من النوع المتوسط العطاء، حيث تعطي نحو ١١ - ١٨,٥ لترًا في الثانية الواحدة.

ولو أوجزنا المعلومات المتوافرة لدينا عن طبيعة هذه العين، لعلمنا أن لها فتحتين أساسيتين، يمدانها بالقدر الأكبر من المياه: إحداهما تكون متجهة إلى الكعبة المشرفة في اتجاه الركن المواجه لحجر إسماعيل، بينما تتجه الفتحة الثانية نحو اجياد.

وبالإضافة إلى هذين المصدرين الرئيسين، ثمة مجموعة من الفتحات الصغيرة تخرج منها المياه؛ خمس منها تقع في المسافة بين موقعي الفتحتين الأساسيتين، كما توجد أيضًا إحدى وعشرون فتحة أخرى تبدأ من جوار الفتحة الأساسية الأولى، وباتجاه جبل أبي قبيس والصفا والمروة حتى تصل إلى الفتحة الثانية. وفي الحقيقة، فإن هذه الفتحات الصغيرة تكون موزعة، لا في مستوى واحد، ولكن في مستويات مختلفة، كما تتدفق مياهها بكميات متفاوتة.

مياه بلا ميكروبات

إن أول ما يلفت النظر في مياه زمزم، هو خلوها التام من الكائنات الحية الدقيقة كالميكروبات والطفيليات. وقد لا يبدو ذلك، أول وهلة، أمرًا على قدر كبير من الغرابة؛ لأن المياه تحت السطحية تخلو دومًا من غاز الأكسجين اللازم لحياة هذه الكائنات. ولقد دلت التحاليل الميكروبيولوجية المتواصلة التي أجريت على عينات مأخوذة من مصادر مياه زمزم الأساسية (العين الكبرى والصغرى معًا) على نقائها التام، وخلوها من سائر أنواع البكتيريا المرضية مثل السالمونيلا Salmonella، والشيجلا shigella، والبكتيريا القولونية E.Coli.

ولكن الخبراء لا يكتفون بهذه الدرجة العالية من النقاء البكتيري، فيعمدون إلى تعقيم مياه زمزم، قبل ضخها في الصنابير. لتحقيق درجة أعلى من النقاء، تصل إلى مئة بالمئة. ولإعطاء فكرة عن عملية التعقيم تلك، نقول: إن الخبراء زودوا البئر بمعدات وأجهزة متطورة تؤمن سحب مياهه، ثم ضخها عبر أنابيب مصنوعة من الصلب الذي لا يصدأ، إلى خزانات ضخمة، يسع الواحد منها ستين مترًا



صورة من أعلى للحرم يبدو فيها الخزان العلوي لمياه زمزم (٣)

مكعبا. ويعقب ترشيح المياه إمرارها على مصابيح زنبقية خاصة تولد أشعة فوق بنفسجية بطول ٢٥٣٧ وحدة أنجستروم. وبفعل قوة الأشعة نفسها تتطهر المياه «تماما» بعد مدة زمنية مقدرة.

ولعلنا نذكر أن المتخصصين أجروا دراسات كثيرة، لبحث تأثير طريقة تعقيم المياه بالأشعة الخواص التركيبية للمياه، ولا في خواصها الطبيعية، وكذلك من دون حاجة إلى إضافة أية كيماويات، فضلاً عن بساطة جهاز التعقيم المستخدم، وفعاليته العالية في تخليص المياه من أي نشاط ميكروبي. وهي النتيجة التي تدل عليها التحليلات البكتريولوجية التي تجري بصفة دورية على عينات مأخوذة من



مهنة الزمزمي من أعرق المهن في مكة المكرمة (٤)

فوق البنفسجية، موازنة بتأثير طرق التعقيم التقليدية الأقل كلفة، مثل طريقة المعاملة بالكلور. وقد استبان للباحثين أن طريقة التعقيم بالإشعاع هي الأكفأ، وهي الأسلم، وهي الأنسب لمياه زمزم. وعلة ذلك أنها تكفل تعقيم المياه خلال ثوان معدودات، ومن دون أية أخطار من الإفراط في المعالجة، وبلا أية تأثيرات لا في محطات تنقية المياه وتعقيمها.

ومن جهة أخرى، فقد أثبتت التحليلات نقاء العينات المأخوذة من سائر أنواع عبوات توزيع المياه، سواء منها عبوات الخزانات، أو العبوات البلاستيكية «الترامس»، وهذا يشير إلى حقيقتين مهمتين: كفاءة نظام تنقية المياه وتعقيمها في المحطات المختلفة، إلى جانب كفاءة طريقة التبريد الميكانيكي للمياه، موازنة بطريقة التبريد بإضافة الثلج.

مياه معدنية نموذجية

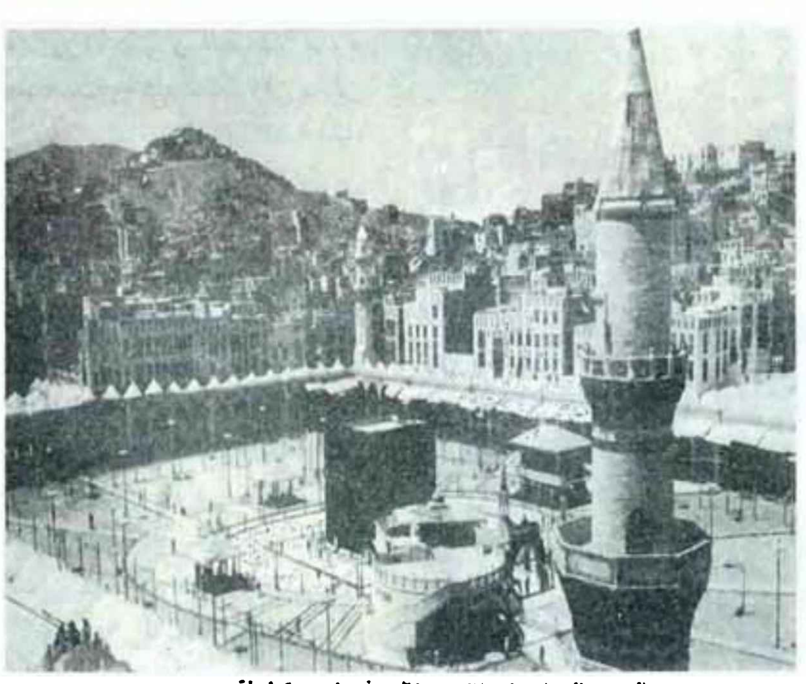
المياه المعدنية هي المياه التي تحتوي على قدر وافر من الأملاح المعدنية، مثل بيكربونات الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والحديد، وكذا كلوريد الصوديوم، وكبريتات المغنسيوم والصوديوم، وبعض المواد النادرة مثل الفلورين، واليود، والسيلنيوم، والليثيوم، والمنجنيز، والموليبدنوم، والنحاس، والزنك، والكوبلت، كما تحتوي على غازات ذائبة مثل ثاني أكسيد الكربون.

إذن فمن البديهي أن يختلف لون المياه المعدنية وطعمها، وفقًا لمحتوى كل منها من المعادن والأملاح المعدنية. صحيح أن غالبية أنواعها رائق شفاف عذب، ولكن لبعضها طعم كبريتي مثل عيون حلوان بمصر، وعيون فرجينيا بأمريكا، ولبعضها طعم قلوي مالح مثل عيون ساراتوجا الأمريكية. وقد يكون لأنواع منها طعم واضح المرارة، إذا احتوت على أملاح كبريتات المغنسيوم، أو أكسيد الصوديوم، وقد يكون لها طعم قابض إذا احتوت على مركبات الحديد، أو طعم كربوني، إذا احتوت على ملح كربونات الصوديوم.

ويميل لون أنواع من المياه المعدنية إلى البياض، لوجود كربونات الكالسيوم، ومنها ما يميل لونها إلى الزرقة، لاحتوائها على الإردواز، أو حتى اللون

الأحمر، لوجود تركيزات من أكسيد الحديد.

ومياه زمزم المعدنية، لها كذلك صفاتها المتميزة، التي تنفرد بها حتى عن مياه بقية آبار مكة التي تقع على مقربة منها. خذ - على سبيل المثال - صفة الثراء المعدني.. فمياه زمزم تعد - في الحقيقة - من أغنى أنواع المياه المعدنية، في محتواها من المعادن، ذلك أن المياه تغدو غنية بالمعادن، إذا تجاوز محتواها من الأملاح المعدنية ١٥٠٠ ملليجرام في اللتر. ولعلنا نعرف من جداول التحليل، أن بمياه زمزم من الأملاح المعدنية، ما يصل إلى ٢٠٠٠ ملليجرام في اللتر الواحد، بينما لا تزيد كمية الأملاح في مياه بئر الصفا القريب من زمزم على ٢٦٠ ملليجراماً، ليس غير. وكأنما أراد المولى - عز وجل - أن يخص ماء زمزم بعناصر ومكونات تختلف كل الاختلاف في كمياتها، وفي خواصها عن غيرها، حتى ولو كانت المياه صادرة من ينابيع انفجرت في المنطقة نفسها.



المسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ وتظهر في الصورة غرفة زمزم (٥)

ووفقاً لتصنيف العالم كلارك للمياه المعدنية، يمكن القول: إن مياه زمزم تقع ضمن المجموعة الرئيسة للمياه المعدنية، وهي التي تحتوي - بصفة أساسية - على أملاح البيكربونات، والكلوريدات، والكبريتات؛ ولذا فإنها تختلف - من الناحية التركيبية - عن أنواع المياه المعدنية الأخرى، مثل المياه الحامضية، والسيليسية أو السيليكية، والنترانية، والكبريتيدية، والفوسفاتية، وغيرها.

ومعروف أن لكل نوع من المياه المعدنية تميزاً من حيث كمية المواد الصلبة الذائبة التي تشمل المعادن والعناصر المختلفة، فالمياه الكبريتية - على سبيل المثال - قد يصل محتواها من المواد الذائبة إلى نحو ٦٠٥٨٤ ملليجراماً في اللتر، بينما تحتوي المياه الكربونية على ١٦٦٨ مللجم/لتر، وفي المياه الفوسفاتية نحو ٤٩٠ مللجم/لتر، والمياه السيليكية ٤٧٣ مللجم/لتر. ولعلنا نذكر أن بمياه زمزم من المعادن والأملاح الذائبة ما يصل إلى ١٩٨٠ - ٢٠٠٠ مللجم/لتر، منها ٥١ مللجم مغنسيوم، ١٢٠ مللجم بوتاسيوم، ١٨٨ مللجم كالسيوم، ٢٥٣ مللجم صوديوم، ومنها كذلك ٣٤٠ مللجم كلور، و ٣٧٢ ملللجم/ نيترات، ومثلها من الكبريتات. بالإضافة إلى ٣٦٦ مللجم من أملاح البيكربونات ذات الأهمية الصحية.

ولعلنا نلاحظ أن كمية البيكربونات - على وجه الخصوص - تعد أوفر في مياه زمزم، موازنة بكميتها في المياه الفرنسية الشهيرة.. مياه إيفيان المعدنية، التي تبلغ نحو ٣٥٧ مللجم في اللتر.

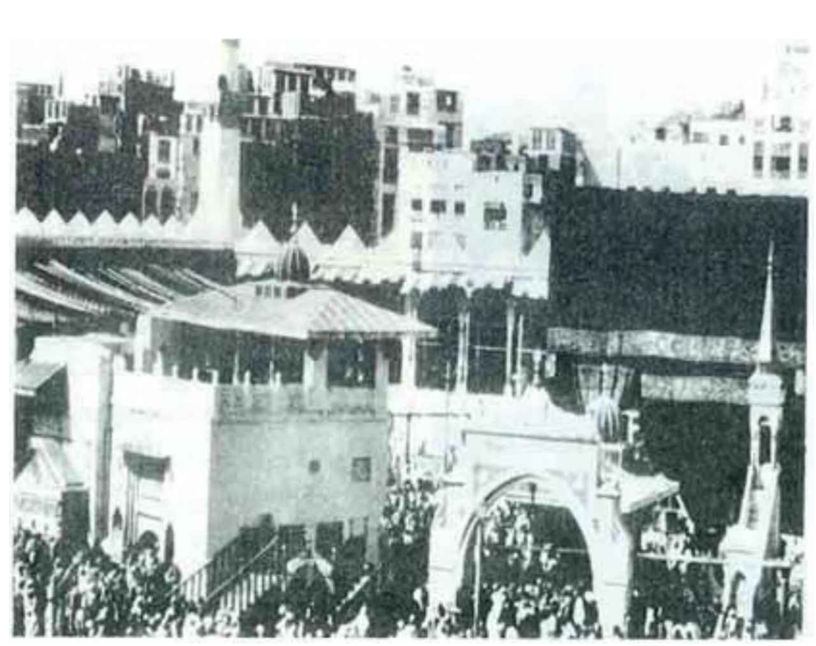
وثمة صفة مهمة في مياه زمزم، تتمثل في تشبعها بغاز ثاني أكسيد الكربون، الذي يتحول إلى حامض كربونيك، يكسب المياه طعماً محبباً إلى الشاربين، كما يساهم في زيادة قابلية المياه للإذابة.

ومما يستطاب ذكره، أن المياه تحت السطحية عادة تتشبع بغاز ثاني أكسيد الكربون، لدى

مرورها على رواسب من مواد عضوية متحللة في باطن الأرض، فتزيد بالتبعية قابلية المياه لتكسير المواد، وإعادة تكوين مركبات جديدة تماماً قوامها البيكربونات والكبريتات والكلوريدات للصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم وغيرها.

والمياه التي تتشبع بغاز ثاني أكسيد الكربون، هي مياه غازية، أو هي أقرب إلى أن تكون كذلك. فمن وجهة نظر تقانة (تكنولوجيا) الأغذية، إن المياه الغازية لا بد أن تحتوي - بصفة أساسية - على غاز ثاني أكسيد الكربون. وفي الصناعة يعرف المنتج المحضر بإذابة ثاني أكسيد الكربون في الماء باسم «ماء الصودا» Soda water. وتتوقف كمية الغاز الممتصة على مقدار الضغط، وعلى درجة الحرارة. فالماء يمتص تحت الضغط الجوي العادي (٧٦٠ ملليمتر زئبق)، وعند درجة ٦٠ْ فهرنهيت، كمية من الغاز تعدل وحدة حجوم Volume واحدة، ولكنه يمتص حجوماً أكثر كلما زاد الضغط، وانخفضت درجة الحرارة.

وهذا ما يحدث في صناعة المياه الغازية التي تحتوي - في العادة - على ٣ إلى ٤.٥ أحجام من ثاني أكسيد الكربون، مما يكسبها صفات غذائية وصحية مهمة. وتلك حقيقة توصل إليها الباحثون منذ وقت مبكر. ففي عام ١٧٧٢م نشر العالم الكيماوي الشهير



المسجد الحرام عام ١٩٠٨م وتظهر في الصورة غرفة زمزم (٦)

بريستلي Priestley بحثاً رائداً حول الخواص الصحية للمياه المشبعة بالغاز تحت عنوان: Impregnating water with fixed air، كما كتب الكيماوي السويدي برجمان Bergmann الكثير عن تلك المياه، وعن المياه المعدنية الطبيعية أيضاً، وكذلك استعمل المعالجون الأمريكيون، في عام ١٧٨٥م، تلك المياه في علاج المرضى، ولاسيما في حالات عسر الهضم. وهذا مما يعرفه الكثيرون أيضاً عن مياه زمزم المعدنية المباركة.

في مواجهة العطش

تبدو مياه زمزم هي الأمثل في مواجهة حالات العطش الشديدة المصحوبة بنقص غذائي في عناصر مهمة، كالصوديوم، والكلور، والكالسيوم على وجه الخصوص. إننا لو نظرنا في جداول التحليل الكيماوي لمياه زمزم لوجدنا أن عنصري ملح الطعام: الكلور، والصوديوم يوجدان بكميات جيدة تبلغ نحو ٣٤٠ مللجم/لتر، و٢٥٣ مللجم /لتر، على التوالي. وتلك ميزة لها قيمتها الصحية للناس كافة، ولمن يقيم في هذه البيئة الحارة خاصة.

إن الشخص الذي لا يعرق كثيراً، يحتاج في البيئة المعتدلة الحرارة، إلى كمية من كلوريد الصوديوم تراوح بين ١.٥ و ٣.٥ جرامات يومياً، ولكنه يحتاج في البيئة الشديدة الحرارة - وحينما يفقد الكثير من العرق - إلى كمية أكبر، قد تصل إلى عشرة جرامات. والعرق - كما نعرف - هو ملح وماء. وإذن لا بد لمن يعرق كثيراً، من تعويض ما فقده من الملح والماء معاً، وإلا اضطربت وظائف جسمه..

فالماء، الذي يكون ٧٥٪ من وزن الجسم، يعد حيوياً جداً لكل أنسجة الجسم، كما أنه الوسيط الذي يحمل الدم في أثناء سريانه في الشرايين والأوردة. والملح كذلك، مكون حيوي من مكونات الجسم، وهو الذي يقوي عملية النشوز الأسموزي الذي عن طريقه تدخل المياه إلى الأنسجة والغدد والأعضاء الحيوية.

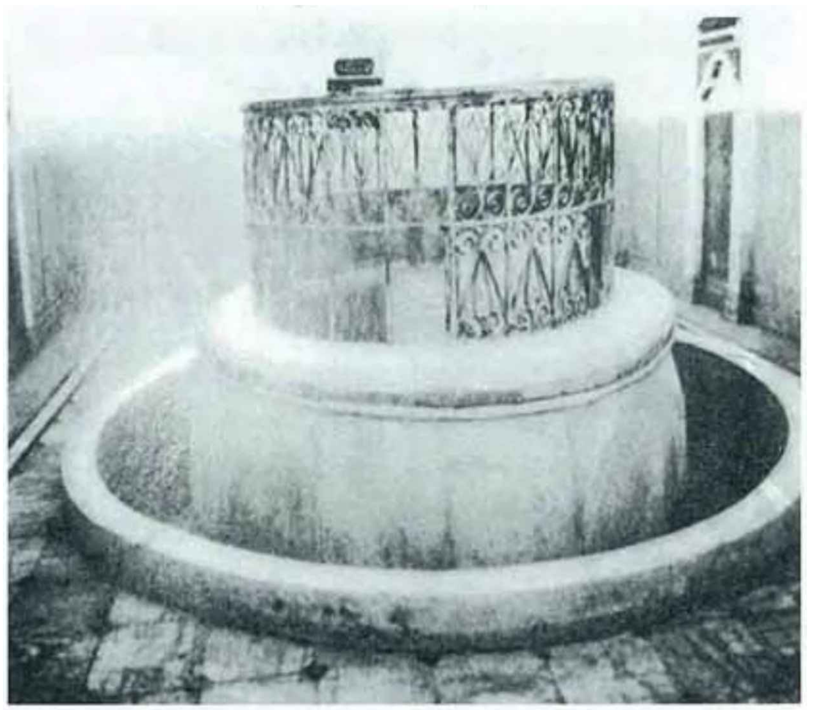
فإذا عرفنا أن مقدار الماء المفقود في صورة عرق في الأجواء الحارة، قد يصل إلى لترين في الساعة، لأمكننا تخيل حجم الضرر الذي قد يصيب وظائف الجسم المختلفة. خذ - على سبيل المثال - حالة نقص الملح التي تؤدي إلى حدوث تقلصات في العضلات، ولا سيما العضلات الرئيسة التي يستخدمها الإنسان، كما تؤدي إلى تعب عام وصداع، وإلى شعور بالغثيان.

وبإيجاز نقول: إن شرب كميات كبيرة من الماء وتعويض الفاقد من الملح، هو الإجراء السريع الذي يتوجب فعله في مثل هذه الأجواء. فليس الماء وحده - كما يظن الكثيرون - يحل المشكلة، بل لعل شرب كميات كبيرة من الماء العذب (الخالي من ملح الصوديوم)، يوجد في الجسم وضعاً شاذاً .. فالمعدة تمتلئ بالماء.. هذا حق، ولكن الأنسجة والغدد الحيوية لا تمتص منه شيئاً، على الرغم من حاجتنا الشديدة إليه.

ونعود فنقول: إن التوازن المنحي المائي هو الذي يدعم الأداء الأسموزي، وعن طريقه يدخل الماء إلى الأنسجة، وبسببه تستمر الوظائف (الأتوماتيكية) للجسم، التي تغذي وتؤازر الحياة.

عند هذا الموضع لابد أن يقفز إلى أذهاننا مشهد هاجر، بعد أن نفد مالديها من ماء وطعام حتى جف الحليب في صدرها، وهي تهرول ساعية بين الصفا والمروة، وقد تصبب منها عرق كثير، ومع العرق فقدت من ماء جسمها ومن ملحه قدراً عظيماً، بحيث لم يعد الماء العذب العادي يروي ظمأها، أو ينفع بدنها الواهن المكدود. أجل، لا بد لها من نوع خاص من الماء.. ماء يعيد إلى بدنها توازنه الكيماوي المفقود.. ما يستعيض، بالإضافة إلى المياه المفقودة، الأملاح المفقودة في العرق، والأملاح الناقصة أيضاً، بسبب قلة التغذية، وبسبب حالة الإرضاع.

وكانت مياه زمزم المعدنية.. وكان ثراؤها، لا في عنصري ملح الطعام: الكلور والصوديوم فحسب، بل في عنصر الكالسيوم أيضاً. وهو العنصر الذي لا غنى عنه لمن يعيش في البيئات الحارة والصحراوية عامة، ولمن بلغ عطشه إلى حد الجفاف، على وجه الخصوص. فما ظنك بأم مرضع في هذا الحال!



صورة قديمة لبئر زمزم (٧)

والمدهش أن نقرأ أن الباحثين وجدوا، بالتحليل، أن مياه زمزم هي من أغنى أنواع المياه المعدنية في عنصر الكالسيوم. وهذا حق، فإذا كانت المياه المعدنية توصف بأنها غنية في الكالسيوم، إذا تجاوز محتواها منه ١٥٠ ملليجرام/لتر،

فإن في مياه زمزم ١٨٨ ملليجراماً منه. وإنها لفوائد جمة لشاربي هذه المياه، ولا سيما لمن يتعرض لفقد الكثير من ماء جسمه، ومن الأملاح، ولمن يصيبه الجفاف. إن مصدر الخطورة هنا أن الجفاف يأخذ طريقه إلى الجسم بطريقة ماكرة؛ لأن أعراضه لا تظهر على الإنسان في مراحله الأولى، بل يظل يعمل تدريجياً في الخفاء، إلى أن يختل التوازن الملحي فجأة، وعندها يتأثر الجسم كله.. فالعضلات يصيبها تعب عام، فضلاً عما يجتاحها من تشنج وتقلص (توتر عضلي حاد). وهو ما يشير إلى حدوث تغيرين مهمين يتمثلان في تراكم حامض اللاكتيك بالعضلات، وفي حدوث نقص فاحش في عنصر الكالسيوم بالجسم.

إن نقص الكالسيوم قد يؤدي إلى كسر العظام، وإلى خلع المفاصل، ولذا يوصي الأطباء راغبي القيام برحلة في الصحراء، بتناول جرعة اضافية من الكالسيوم، لما تحتاج إليه بيئة الصحراء الحارة من بذل مجهود عضلي.

وهكذا نرى أن ثراء مياه زمزم في الكالسيوم، إنما هو لحكمة بالغة. ولكن هاجر لم تكن بحاجة إلى هذا العنصر الحيوي، لهذا السبب فحسب، بل لأنها كذلك أم مرضع.

والأم المرضع - كما نعلم اليوم - تحتاج إلى مضاعفة احتياجاتها اليومية من الكالسيوم، يوماً بعد آخر، تبعاً لنمو الطفل السريع المطرد، لئلا يسطو الطفل على الكالسيوم الموجود في عظامها، فيصيبها الضعف والوهن.

وإني لمقتنع تماماً بأن ثراء ماء زمزم في عناصر معدنية معينة دون غيرها، إنما هو لحكمة جليلة؛ وهذا مثير للعجب، ولكن أن يصبح ماء زمزم طعاماً للجائعين، فهذا هو الأكثر عجباً!

نبع زمزم القادم من اتجاه الكعبة (٨)

وفي زمزم طعام الطعم

عجيبة، ولا شك، مياه زمزم التي لا تروي الظامئ فحسب، بل وتشبع الجائع أيضاً.. وإلا فكيف كانت تعيش هاجر وولدها الرضيع في هذا الوادي، الذي وصفه الله بقول: «غير ذي زرع» أليس هذا سراً من أسرار الله أودعه في هذه المياه المباركة؟!

وإنه لسر عظيم تعجز مختبرات الباحثين عن تفسيره! فالباحثون يقولون بأن الأم المرضع تحتاج إلى مضاعفة الاحتياجات الغذائية باستمرار، وفقاً لعمر رضيعها ونموه المطرد. فالرضيع البالغ من العمر شهراً واحداً يحتاج إلى أوقيتين وثلث من حليب أمه، لكل رطل من وزنه.

وإذن، فالذي يزن ١٢ رطلاً يحتاج في اليوم الواحد إلى كمية من الحليب تبلغ نحو ٢٨ أوقية.

ومعروف أيضاً أن الاحتياجات الإضافية لإرضاع الطفل تتزايد باستمرار.. فالرطل الواحد من وزن الطفل يحتاج إلى ٦٠ سعراً حرارياً في الأشهر الثلاثة الأولى من عمره، وإلى ٥٠ سعراً في الأشهر الثلاثة الثانية، وإلى ٤٥ - ٥٠ سعراً في الثلاثة الثالثة.

وبتعبير آخر نقول: إن المرضع

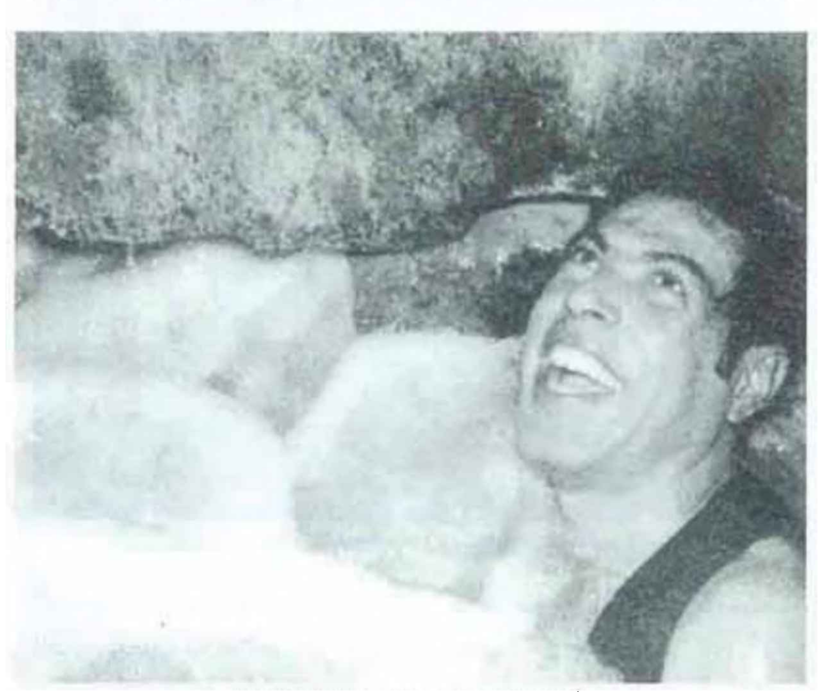
المعتدلة الوزن تحتاج إلى نحو ٣٠٠٠ سعر في اليوم إذا كانت قليلة المجهود، وإلى ٥٠٠٠ سعر إذا كانت تبذل مجهودا أكبر. وهي لا تحتاج إلى طاقة زائدة فحسب، بل إن عملية تكوين الحليب تستلزم عناصر غذائية أخرى كثيرة كالبروتينات والدهنيات، والأملاح المعدنية، ولا سيما الكالسيوم والفوسفور، كما تحتاج إلى المزيد من الفيتامينات.

ولا ريب أن حياة المرضع وحياة رضيعها تغدوان مهددتين إذا لم يتوافر لديها الكثير من عناصر الغذاء. فماذا إذن كانت تصنع هاجر، وهي تقيم في واد غير ذي زرع، أياما طويلة بعد أن نفد ما لديها من طعام ومن تمر كانت تتقوت به قبل أن تتفجر عين زمزم؟ لم يكن لديها غير المياه التي يقول عنها النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي ورد في الصحيحين: «إنها مباركة، إنها طعام طُعم، وشفاء سقم». فالشارب يشبع من مائها إذا شربه، كما يشبع من الطعام إذا أكله.

وهاهي ذي أم أيمن تتحدث عن بعض دلائل هذه المعجزة فتقول: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا جوعا قط، ولا عطشا، كان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضت عليه الطعام فيقول: لا، أنا شبعان». وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كنا نسميها شُباعة - يعني زمزم - وكنا نجدها نعم العون على العيال» أخرجه عبدالرزاق في مصنفه.

و «شُباعة»: أي أن ماء زمزم يروي ويشبع من يشربه، كما يرويه الماء ويشبعه الطعام.. فكأنه بذلك قد جمع بين خاصيتي الإرواء والإشباع.

وإننا لنقرأ أن الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري قد شرب من ماء زمزم ثلاثين يوما، وليس له طعام غيره، وأنه سمن، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «إنها مباركة، إنها طعام طُعم» صحيح مسلم. ويقول ابن القيم عن ماء زمزم: «شاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد، قريبا من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعا، ويطوف مع الناس كأحدهم».



أحد الغواصين يقوم بفحص منابع زمزم (٩)

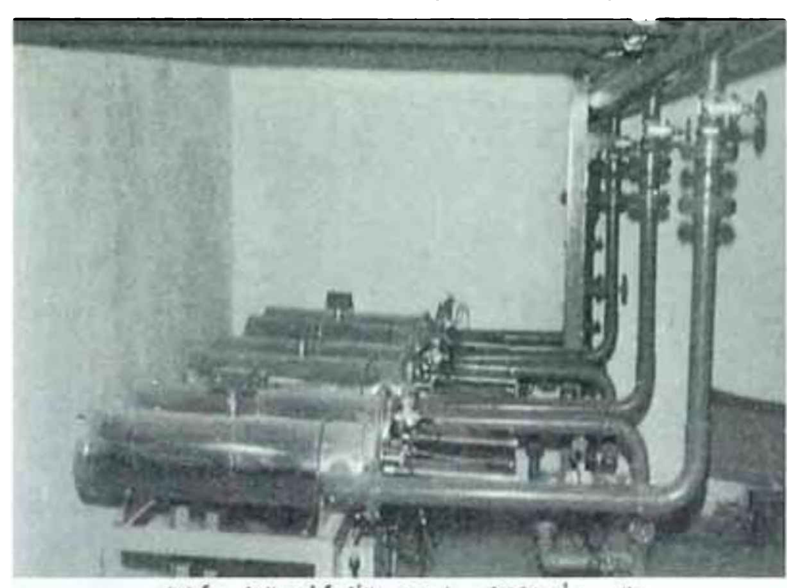
وتلك خاصية فريدة من خواص مياه زمزم، وسر من أسرارها الكثيرة التي لا تكاد تنتهي.

وفيها شفاء السقم

تناقل الناس، على مدى مئات السنين، ما لا يحصيه العد من الأخبار والشواهد، التي تشير - بالإضافة إلى فوائد مياه زمزم الغذائية - إلى خصائصها الشفائية أيضا. ونستطيع القول: إن القوة الشفائية لمياه زمزم ذات شقين: أولهما يتعلق بطبيعة تركيبها الكيماوي الفذ، الذي تشير إليه نتائج معامل التحليل. ويتصل الشق الثاني بحقيقة بركتها التي يشير إليها الكثير من صحاح الأحاديث.

إن مياه زمزم - كما عرفنا - مياه معدنية، ذات تركيب كيماوي فريد.. وأجسامنا - كما لا يخفى -

تظل في حاجة إلى العناصر المعدنية بصفة مستمرة، بحيث لا تقوى على العيش دونها، فلو حصل المرء على كل ما يحتاج إليه من بروتينات ونشويات ودهنيات وفيتامينات، وحرم كل ما يحتاج إليه من المعادن، لما بقي على قيد الحياة شهراً أو شهرين.. فمنها ما يعد ضرورياً للدخول في تركيب العظام والغضاريف، وفي التركيب البنائي



جانب من أجهزة تعقيم مياه زمزم بالأشعة فوق البنفسجية (١٠)

للخلايا، ومنها ما يدخل في التركيب البنائي للإنزيمات علاوة على القيام بتنشيطها، ومنها ما يذيب نواتج التمثيل الغذائي الضارة، ومن ثم يتيسر خروجها من الجسم، ومنها ما يحفظ توازن الماء داخل الخلايا والسوائل التي بينها، ومنها ما يحفظ على العضلات وظائفها الحركية بصورة مثالية، من حيث الانقباض والانبساط، كما تساهم بعض أنواعها في عملية التحكم في عمل خلايا الجهاز العصبي، وفي نقل السيالات العصبية من خلية عصبية إلى أخرى، ووظائف أخرى شتى لا غنى لانتظام الحياة عنها. يؤدي أي نقص في هذه المعادن إلى اضطراب في عمل أعضاء الجسم، وإلى الإصابة بعلة ما.

وفي المقابل، فإن تزويد الجسم بمياه معدنية ثرية في محتواها المعدني يساعد على تجنب الكثير من هذه الاضطرابات وشفائها، وفقاً لنوعية المعادن وكميتها.. فمنها:

ـ مياه معدنية مدرة للبول بنسبة ١:٢ بمعنى أن شاربها يمكن أن يدر بمقدار كأسين إذا هو تعاطى منها كأساً واحدة فقط.

ـ مياه معدنية هاضمة ومضادة لعسر الهضم يشرب منها من يعانون من عسر الهضم، فيكون لهم فيها شفاء وعن المصنّع من الأدوية غناء.

ـ مياه معدنية تفيد في تخفيف متاعب الجهاز الهضمي بعامة، وفي علاج زيادة حموضة المعدة على وجه الخصوص.

ـ مياه معدنية تفيد في اضطرابات الكبد، وتحسن في وظائف الغدد الصماء.

ـ مياه معدنية لعلاج التهابات المعدة والأمعاء والقولون، ولحالات الإسهال المزمن.

ـ مياه معدنية تفيد في تفتيت حصى الكلى، وإزالة التهاب الكليتين.

ـ مياه معدنية تساهم في تفتيت حصى المرارة والقنوات المرارية، وفي إزالة التهاب المرارة.

تلكم هي بعض فوائد شرب المياه المعدنية، أما الاغتسال بها فيفيد في علاج سطح الجسم والأطراف جميعها، وفي علاج الروماتيزم والتهاب العضلات، وفي التخفيف من حدة الالتهابات الجلدية ومضاعفات الحساسية وبعض الآلام العصبية.

ولعلنا نشير إلى أن الاتجاه الحديث اليوم في علاج الآلام الروماتيزمية ومتاعب المفاصل يرى أهمية العلاج الطبيعي بالدرجة الأولى، وهو اتجاه يؤيده في واقع الأمر «اتحاد المياه المعدنية الدولي».

لم يعد خافياً الآن ما تتميز به المياه المعدنية ـ وفي الطليعة منها مياه زمزم المعدنية ـ من خصائص شفائية وعلاجية مبهرة.

طيب الدعاء لدى شرب الماء

لم يكد خليل الله، وأبو الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، ينصرف ويترك هاجر وولدها الرضيع، حتى رفع يديه إلى السماء يدعو

الله أن يجعل: أفئدة من الناس تهوي إليهم.

استخدم الخليل تعبيراً مشتقاً من الهوى.. والهوى في اللغة: انحدار لا يقاوم نحو شيء. وإنك لو نظرت في عيون الملايين من حجاج بيت الله ومن المعتمرين، وهم يتجهون إلى الكعبة المشرفة، فلن تجد تفسيراً غير دعوة إبراهيم.. ففي العيون دموع المحبين، وفي الأفئدة هوى العاشقين.

ولا ريب عندي، أنك - أخي الحاج - تجد الآن في عينيك من الدمع ما لا تقدر على دفعه، وتجد في قلبك من الهوى ما يعجز لسانك عن وصفه.

ألم تسأل نفسك - أخي الحاج - عن سر هذا الوجد الذي يملؤك في تلك البقعة الطاهرة.. البقعة التي كانت ذات يوم «غير ذات زرع»، والتي شهدت أروع مشاهد الروعة والخلود، حينما تفجر نبع زمزم بين يدي الرضيع، إيذاناً بتفجر الحياة وازدهارها.

هل تريد أن تشرب من ماء النبع المبارك؟ اتجه إذن إلى القبلة.. اتجه إلى الكعبة.. واشرب من الماء على ثلاثة أنفاس، وتضلع، وادع.. فعن ابن أبي مليكة قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فجاء رجل فجلس إلى جنبه فقال له ابن عباس: من أين جئت؟ قال: شربت من ماء زمزم؟ قال: شربتها كما ينبغي. قال: وكيف ينبغي يا ابن عباس؟ قال: تستقبل القبلة، وتسمي الله، ثم تشرب.. وتتنفس ثلاث مرات، فإذا فرغت حمدت الله تعالى، وتتضلع منها (أي تشرب حتى يمتلئ جنبك وأضلاعك)، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم» رواه ابن ماجة في سننه.

لقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يدعو كلما شرب منه بقوله: «اللهم إني أشربه لظمأ يوم القيامة». وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - إذا شرب منه دعا الله بقول: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء».

المراجع

١. أبوزيد، مبروك: قطرات السلسبيل على طريق أم إسماعيل. يونيه ١٩٩٢م. القاهرة.

٢. أبوزيد، أحمد: بئر زمزم وعمارته عبر العصور. المجلة العربية. ٢٣٩. إبريل/نيسان ١٩٩٧م. الرياض.

٣. أبوعامر، أحمد: قراءة في كتاب «فلا تنس الله». المجلة العربية. ١٤٧. نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٩. الرياض.

٤. أبوكريمة، إبراهيم: ماء زمزم. الرابطة. ٣٥٥. أكتوبر/نوفمبر (تشرين الأول/تشرين الثاني) ١٩٩٤م. الرياض.

٥. أحمد، محمد وإبراهيم، مجدي: معجزات الشفاء بماء زمزم. مكتبة القرآن للطبع والنشر. ١٩٩١م. القاهرة.

٦. الجندي، محمد ممتاز: الصناعات الغذائية. الجزء الثالث. دار المعارف. ١٩٨١م. القاهرة.

٧. الجندي، محمد ممتاز: الصناعات الغذائية. الجزء الخامس. دار المعارف. ١٩٨٥م. القاهرة.

٨. الطوبي، محمد، وجعلنا من الماء كل شيء حي. دار المعارف. ١٩٩٢م. القاهرة.

٩. المسند، عبدالعزيز: زمزم.. الماء المعجز. الرابطة. ٣٠٢. إبريل/نيسان ١٩٩٠م. الرياض.

١٠. باشا، حسان: ماء زمزم وأسراره الطبية. الوعي الإسلامي. ٣٧٠. أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٦م. الكويت.

١١. حته، محمد: نيلك. دار المعارف. ١٩٦٥م. القاهرة.

١٢. خالد، أحمد: العلاج الطبيعي.. لماذا؟. مركز الأهرام للترجمة والنشر. ١٩٩٠م. القاهرة.

١٣. سابق، السيد: فقه السنة. الجزء الأول. الطبعة الثانية. دار الفتح للإعلام العربي. ١٩٩٠م. القاهرة.

١٤. شحاته، مصطفى: حقيقة الاستشفاء بالمياه المعدنية. العلم. العدد ١٠٣. أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا. سبتمبر/أيلول ١٩٨٤م. القاهرة.

١٥. عبدالحافظ، حسني: زمزم.. رحلة في الزمان والمكان. منار الإسلام. العدد ١٢. السنة ١٧. يونيه ١٩٩٢م. أبوظبي.

١٦. علي، أحمد: زمزم على مر العصور. الأزهر. إبريل/نيسان ١٩٩٧م. القاهرة.

١٧. عوض الله، محمد: الماء. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٩م. القاهرة.

١٨. فهيم، إبراهيم: عالج نفسك بالغذاء. الطبعة الثانية. دار المعارف. ١٩٧٦م. القاهرة.

١٩. كوشك، يحيى حمزة: زمزم.. طعام وشفاء سقم. ١٤٠٣هـ.

٢٠. مانهوز، وليام: ماهي الجيولوجيا؟. ترجمة مختار ناشد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٥م. القاهرة.

٢١. يونس، عبدالحميد: زمزم.. الماء والدواء. أكتوبر/تشرين الأول. ٩١٩. دار المعارف. يونيه/حزيران ١٩٩٤م. القاهرة.

22- Robenson, D.S. 1987. Food: Biochemistry and Nutritional Value. Longman Sci. Tech., New York.

23- Who (World helath organization). 1973. Trace Elements in human Nutrition. Tech. Rept. Ser. No 532

مصادر الصور:

١. أرشيف المجلة.

٢، ٣، ٧، ٨، ٩، ١٠. زمزم: طعام طعم وشفاء سقم. يحيى حمزة كوشك. ط ١. ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٤، ٥، ٦. زمزم والزمازمة. فيصل محمد عبيد. دار القبلة للثقافة الإسلامية. ١٤١٥هـ.

رشدي راشد:
تحقيق التراث مهنة لا يجيدها كل المحققين

حوار أجراه: ثابت عيد
باريس - فرنسا

نال مؤخراً الأستاذ الدكتور رشدي راشد جائزة الكويت للتقدم العلمي، وجائزة اليونسكو لخدمة العلم، وذلك لما قام به من خدمة للتراث العلمي في الحضارة الإسلامية.

وهذا العالم المصري الذي كان قد أعد رسالة الدكتوراه حول تطبيق الرياضيات في العلوم الاجتماعية والصعوبات المعرفية والتقنية والرياضية التي تقابل تطبيق الرياضيات في هذا المجال، قضى نحو أربعين عاماً في التنقيب عن التراث العلمي الإسلامي، مما قاده إلى تعلم اللاتينية واليونانية، واكتشاف كثير من كنوز ذلك التراث.

وفي هذا الحوار يكشف رشدي راشد عن بعض جوانب شخصيته العلمية، ويلامس بعض القضايا المتعلقة بالتراث العلمي في الحضارة الإسلامية.

• المجلة التي تشرف على إصدارها. مجلة Arabic sciences and philosophy - A historical Journal. هل يمكن أن تعطينا فكرة عامة عنها، وعن قرائها في شتى دول العالم؟

- أسست هذه المجلة سنة ١٩٩١م، وتصدرها دار نشر جامعة كامبريدج Combridge University Press. وهي مجلة مستقلة عن كل الاتجاهات، بمعنى أن هذه المجلة لا يمولها أحد، وإنما تعتمد على التوزيع، ويقوم المركز القومي الفرنسي للبحوث CNRS بالمساعدة بمبلغ ضئيل بعد أن وجد المستوى الرفيع للمجلة واستشعر أهميتها، ومشتركوها الأساسيون في أوربا وأمريكا واليابان، بينما عدد المشتركين في البلاد العربية قليل جداً، فمثلاً عدد المشتركين في مصر ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة بالكثير. وعدد المشتركين في سورية واحد، أو اثنان، منهما المعهد الفرنسي، إلخ. أما في منطقة الشرق الأوسط، فمعظم المشتركين من الجامعات الإسرائيلية!!

والمجلة متخصصة في مجالين أساسيين: أولهما رئيسي، والثاني فرعي. أما الأول: فهو الدراسات العربية، والثاني: هو الدراسات التي أثرت في العربية مثل اليونانية والسنسكريتية، أو ما أثرت العربية فيها فيما بعد، مثل اللاتينية والعبرية. بمعنى أن لا ينشر في المجلة، إلا الأشياء الأساسية التي تكون في العربية، أو ما جاء إلى العربية، أو خرج منها، بشرط أن نظل على أعلى مستوى علمي ممكن.

• موسوعة تاريخ العلوم العربية التي أشرفت على إصدارها، وصدرت ترجمتها العربية من مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت مؤخرا. ما دوافعك للإقدام على هذا المشروع؟

- الدافع العلمي الأساسي هو أنه لم يكن هناك أي محاولة لكتابة شمولية عميقة لتاريخ العلوم العربية، فبدا لي أن الوقت قد حان لخوض هذه التجربة، بمعنى الكتابة بهدف تصحيح الصورة، وخدمة لتاريخ العلوم، وخدمة أيضاً للحضارة العربية، لأن هذا جزءٌ من تاريخها. في ذلك الوقت اتصلت بنحو ثلاثين من الزملاء الذين يعملون في هذا المجال في العالم، وطلبت من كل واحد منهم - بعد أن وضعت تصوري المفصل للكتاب - أن يكتب كل في مجال تخصصه. وقد قبل معظمهم المشاركة. وجاء الكتاب في أكثر من ١٢٠٠ صفحة، على ما أعتقد. وكانت فترة النشر هي الأصعب، لأن نشر مثل هذه الكتب، التي لا تباع كثيرا، يحتاج إلى مساعدات من المؤسسات والدول. وبعد تعقيدات ضخمة، ومحاولات عدة فشل أغلبها، أو كلها، وفي الفترة الأخيرة - على سبيل المصادفة - اتصلت بإحدى دور النشر الفرنسية الكبيرة، وعرضت عليهم هذه الفكرة، أي: نشر الكتاب، فطلبوا مساعدة من المجلس الأعلى للآداب في فرنسا، فساعدهم بعض الشيء، بنحو خمس التكاليف. فقد كان هناك كثير من الفصول قد كتبت بلغات أخرى غير الفرنسية، كان يجب ترجمتها. ثم طبع الكتاب في ثلاثة أجزاء، من

١٢٠٠ صفحة. ونجحت التجربة في فرنسا. أما بالنسبة إلى إنجلترا، فكانت بعض الجهات العربية قد وعدت بالمساعدة، دون أن تنجز وعدها. وأخيراً وبعد محاولات طويلة، قبلت إحدى دور النشر الإنجليزية نشر هذه الموسوعة. ونشرت بالفعل، ونجحت أيضاً في إنجلترا، ثم نشر مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، الترجمة العربية بمساعدة مؤسسة شومان. وطبعاً تنازلنا عن كل حقوق التأليف بالنسبة إلى الترجمة العربية. والآن هناك ترجمة إلى الفارسية تحت الطبع، وترجمة بولندية طلب منا الإذن فيها، وهم يترجمونها الآن.

• بالنسبة إلى هذا المشروع، أعتقد أنه تجاوز العمل الذي قام به المستشرق شاخت وزملاؤه في الكتاب الذي نعرفه بالعربية تحت عنوان «تراث الإسلام»، المنشور في سلسلة «عالم المعرفة» بالكويت في ثلاثة أجزاء؟!

ـ هذا طبعاً يتجاوزه بكثير؛ لأن هذه هي أحدث البحوث في هذا الميدان، وكتبها من يقومون بالبحث أنفسهم، وأيضاً كتبها متخصصون في مختلف المجالات. والفصول التي لم يكن لها متخصصون على المستوى المطلوب، لم نكتب فيها.

أما المحاولة الثانية فنقوم بها الآن، وذلك مع مؤسسة إيطالية، وهي الانسكلوبيديا (الموسوعة) الإيطالية. وسيكون هذا العمل بالمستوى الرفيع نفسه الذي أصدرنا به العمل الأول، مع الاهتمام بالشكل الاجتماعي للعلوم. والاتفاق هو أن يكون الكتاب في حدود ٢٤٠٠ صفحة تقريباً، وسيترجم رأساً إلى الإنجليزية، وهناك مشروع آخر لترجمته إلى اللغة العربية.

• ولكن ما الفارق بين هذا المشروع ومشروع الموسوعة التي تحدثنا عنها؟

ـ المشروع الأول كان التركيز الأساسي فيه على تاريخ كل فرع من فروع العلوم، ووضع هذا الفرع في وضعه التاريخي الدقيق. بمعنى مثلاً أن نرى ماذا تم في اليونانية، وفي غير اليونانية، قبل الحضارة الإسلامية، ثم ما أثر العلم العربي في اللاتينية، وفي العبرية. فيما بعد. والتركيز على ما تم في العلم العربي في ميادين الفلك والرياضيات، وفي بعض العلوم الأخرى، مثل التقانة (التكنولوجيا) والطب، إلخ. في المرحلة الثانية، في هذا الكتاب الجديد، نحاول تعميق هذا، مع محاولة بحث مكانة العلم العربي في المجتمع الإسلامي، وهو المجتمع الذي نشأ فيه هذا العلم. بمعنى الاهتمام بعلاقة هذا العلم بعلم الكلام، وبالفلسفة، وبالفقه، وعلوم اللغة، وبكل هذه العلوم التي كانت تشكل وحدة في ذلك الوقت.

• بالنسبة إلى كتاب «تراث الإسلام» الذي ذكرناه من قبل، ما تقويمك له؟



رشدي راشد (إلى اليسار) وإلى جانبه ثابت عيد

ـ هذه محاولات انتهت، وكان يجب أن تنتهي، فقد قامت بدورها في وقتها، بأفكارها وإيديولوجيتها، وأحكامها، إلخ. والآن هناك محاولة موضوعية ـ محاولة لوضع الأمور في إطارها الصحيح، وبدقة، من غير النظر إليها بعين مصابة بالحول!!

• من إسهاماتك المتميزة نفض التراب عن تراث عمر الخيام الرياضي. فهل يمكن أن تحدثنا عن هذا العالم الكبير، والفارق بين صورته الخيالية والحقيقية؟

ـ في الحقيقة سؤالك هذا يتضمن عدة أسئلة في آن واحد. فهناك سؤال خاص عن عمر الخيام رياضياً وفيلسوفاً (ت:٥١٥هـ/١١٢١م)، وهناك سؤال عام هو: من هو عمر الخيام؟ ولا يمكن الرد على السؤال الأخير بذكر عمر الخيام فقط. فليس هناك عمالقة على أكتاف أقزام. عادة يكون العمالقة على أكتاف عمالقة، يعني ما أقصده بهذا هو أننا يجب ألا نفكر أن هؤلاء العلماء كانوا علماء أفذاذاً، بمعزل عن تقليد عريق. فظهور هذه الفئة من العلماء جاء نتيجة لعمل استمر قروناً طويلة، ونتج أيضاً عن وجود مدارس، ومؤسسات، ومجتمع متطور في وقته، كان بوسعه أن ينجب مثل هؤلاء العمالقة.

عمر الخيام رياضي متميز، بدأ فرعاً جديداً في الرياضيات. أعني سبقه الآخرون في العمل، ثم وضع هو بصماته لنهاية اتجاه، وبداية اتجاه جديد. يعني أنه كان نقطة تحول من اتجاه إلى اتجاه جديد. فقبل عمر الخيام كان هناك تقليد Tradition كبير في علم الجبر. وكان هذا التقليد لتطوير الجبر قد بدأ منذ أيام الخوارزمي (ت:بعد ٢٣٢هـ/بعد ٨٤٧م)، أي منذ أوائل القرن التاسع الميلادي. قبل عمر الخيام كان بعض كبار علماء الرياضيات، مثل أبي بكر الكرخي (ت: نحو ٤١٠هـ/نحو ١٠٢٠م)، وغيره، قد بدؤوا في تطوير نوع من الجبر، هو ما نسميه الجبر الحسابي. وأيضاً قبل عمر الخيام بدأ بعض كبار الرياضيين، والأسماء كثيرة يمكن أن تعدد، في ترجمة مسائل هندسية إلى الجبر. ثم جاء عمر الخيام، فقام بأول محاولة لترجمة مسائل هندسية إلى الجبر، بشكل منظم، وبشكل نظري مؤسس. ومن ناحية أخرى حل مسائل جبرية مستعصية في ذلك الوقت، وهي معادلات الدرجة الثالثة الجبرية. حلها باستخدام الوسائل الهندسية، أعني باستخدام القطوع المخروطية. نتج عن ذلك تأسيس فرع جديد، هو ما يسمى بالهندسة الجبرية. وهو فرع استمر بعد الخيام. ثم تلقى ديكارت مشروع الخيام، وسار في الطريق نفسه فترة طويلة، ثم طور هذا المشروع في ميدان آخر. يعني: من هو

وريث عمر الخيام؟ أحد ورثة عمر الخيام المهمين هو ديكارت نفسه في هذا الميدان الذي أسميه (الهندسة الجبرية).

بعد عمر الخيام كان هناك من العلماء المسلمين أيضاً من ذهبوا شوطاً كبيراً في تطوير عمل عمر الخيام نفسه، مثل: شرف الدين الطوسي، وهو من تلامذة عمر الخيام رأساً. أعني بهذا أن هذا التقليد Tradition استمر وتطور. عمر الخيام لم يقم بهذا فقط، ولكنه قام أيضاً بإسهامات أخرى، من أهمها، وباختصار شديد، مناقشته لنظرية (المتوازنات) عند إقليدس، ومحاولة البرهان على ما يسمى بـ (المصادرة الخامسة). وهذا يعني أنه كان أحد أفراد مهمين في تيار كبير، وهو ما سمي فيما بعد بـ (الهندسة اللاإقليديسية). وعمل عمر الخيام هذا عرف واستخدم في القرن السابع عشر على يدي أحد كبار الرياضيين الإنجليز، وهو واليس Wallis في أواخر القرن السابع عشر. ثم استعمله أيضاً رياضي آخر في هذا الميدان، وهو ذاكيري الذي استخدم نظرية عمر الخيام الخاصة بفرضية الموازيات. كذلك فقد دخل عمر الخيام ميداناً جديداً، وهو أول صياغة جديدة لنظرية التناسب الإقليديسية. ولن أدخل هنا في التفاصيل. ولكن هذا أيضاً أحد أعماله المهمة وكل هذا قمت أنا مؤخراً بتحقيقه، ونشره، وترجمته إلى الفرنسية، كما أنني قمت بالتحليل الرياضي واللغوي والتاريخي لهذا العمل، وصدر قبل حوالي ثلاثة أشهر، وسيصدر بالإنجليزية قريباً.

وهناك النص العربي المحقّق - ولكن التحليلات والتعليقات ينبغي أن يقوم أحد بترجمتها من الفرنسية إلى العربية.

• يعني هل يمكن أن يصدر هذا العمل ضمن سلسلة تاريخ العلوم الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت؟

- هذا ممكن؛ كان هذا بالنسبة إلى أعمال عمر الخيام الجبرية والهندسية. ولكن في الوقت نفسه كان عمر الخيام فيلسوفاً. كان من ورثة ابن سينا، ولكنه لم يقف عند حدود ابن سينا، بل تجاوزه، نتيجة لقوته وإتقانه للعلوم الرياضية. فاستخدامه للرياضيات في التفكير في مشكلات أساسية في الفلسفة، أنتج نوعاً من الفلسفة الرياضية التي لم يتم بها الاهتمام اللائق بعد. فعند نقاشه للفرضية الخامسة، عالج موضوعات مهمة في فلسفة الرياضيات. ولكن مؤرخي الفلسفة لم يهتموا بهذا الجانب من الفلسفة؛ لأنهم في العادة لا يهتمون بهذه الفروع، والشيء نفسه ينطبق على مؤرخي الرياضيات، لأن أغلبهم لا يهتم بفلسفة الرياضيات.

• بأي لغة كتب عمر الخيام أعماله العلمية: بالفارسية، أم بالعربية؟

- أعماله العلمية المهمة كانت بالعربية.

• ولكنه كتب رباعياته بالفارسية..

- لو كان هو مؤلف الرباعيات، فقد كتبها بالفارسية. بيد أن هذه مسألة مختلف عليها.

• ولكن الصورة المشوهة الشائعة عن عمر الخيام تصوّره مجرد شاعر كبير، ألف الرباعيات، وأبدع فيها، دون أي ذكر لإسهاماته العلمية المتميزة؟

- لأن أعماله الرياضية والفلسفية لم تكن قد ظهرت، أو دُرست بالشكل الكافي أو اللائق بعد؛ إذ لا يكفي - كما قام البعض من قبل - أخذ المخطوطة، ومعارضة مخطوطتين، ثم القول بأن هذا تحقيق! التحقيق لا يمكن أن يتم، إلا بفهم النص، وكل تفاصيل النص من الناحية العلمية. عندئذ يكون التحقيق.

• هذا يعني أنك من مدرسة التحقيق، بمعنى شرح النص والتعليق عليه..

- لا، ولكن بمعنى أن إقامة النص لها أصول وقواعد. فأنا لا يمكنني أن أقيم نصاً لا أفهم كل تفاصيله ومضمونه. إذ لا أدري كيف أقيمه؟ لا أدري أين أضع الفاصلات والنقاط، إن لم أكن أفهم النص؟ ولا أدري إذا كانت العبارة مستقيمة أم غير مستقيمة، حتى ولو بدت مستقيمة لغوياً. من ذلك مثلاً أن قام أحدهم بأخذ مخطوطات عمر الخيام في مجال الهندسة، وهو لا يدري ماذا هناك، فكان نشرها بهذه الصورة فضيحة كبيرة. وقام آخر فارسي الأصل بترجمة هذا النص إلى الإنجليزية، فكانت فضيحة ثانية. فهناك معايير وأصول وقواعد لتحقيق النصوص، يجب احترامها.

عمر الخيام رياضي متميز، بدأ فرعًا جديدًا في الرياضيات كان نقطة تحول من اتجاه إلى اتجاه جديد

ومن أهم ما ترجم من تراث عمر الخيام هناك ثلاثة أعمال أساسية، هي: كتاب له في الجبر، وكتاب له فيما يسمى بـ «ربع الدائرة»، وهو أيضاً في الجبر، وكتاب له خاص بـ «ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس»، في فرضية الموازيات، وفي نظرية التناسب. هذه هي أعمال عمر الخيام الرياضية. وبقيت الآن أعماله الفلسفية التي طُبعت في مطبعة (الكردي) في أوائل هذا القرن في القاهرة في مجلد واحد، ولم تحقق إلى اليوم.

• معهد تاريخ العلوم والفلسفات العربية والعصر الوسيط الذي ترأسه، وهو جزء من CNRS ما إسهاماته في مجال تأليف المراجع العلمية ونشرها؟

- هذا المركز هو جزء من المركز القومي للبحوث العلمية في فرنسا. وهو مكون من ستة عشر أستاذاً من المركز القومي للبحوث، ومثل هذا العدد من الجامعة الفرنسية. هذا المركز يهتم بعدة أشياء منها، الدراسات العربية بالطبع، ولكنه يهتم أيضاً بالدراسات العلمية والفلسفية في العصر الوسيط. فالجزء العربي هو جزء منه، ولكن ليس كله، بالنسبة إلى الجزء العربي، فهو ينقسم قسمين: قسم في تاريخ العلوم، وهو الأغلبية. فمن الأعمال الكاملة التي نشرت للعلماء المسلمين أعمال عمر

الخيام، وأعمال شرف الدين الطوسي، وأيضاً أعمال ابن الهيثم، حيث إني في سبيلي لإتمام نشر أعماله الرياضية الكاملة في مؤسسة الفرقان. ومن ذلك أيضاً أعمال إبراهيم بن سنان التي ستطبع في (بريل) Brill - في هولندا.

وفي ميدان الفلك نشرت أعمال ثابت بن قرة في الفلك - الأعمال الكاملة - منذ أكثر من عشر سنوات. كل هذا تم. وكما ترى نحن مهتمون بالمضمون، يعني بالأعمال نفسها، وبالتأريخ لها، وتحليلها، ولكننا لم نقم - حتى الآن على الأقل - بنشر مصادر من نوع كتب الطبقات، أو الببليوغرافيا كما يقولون. الآن. وذلك لأن هذه المشروعات تحتاج إلى مؤسسات وتمويلات لا نملكها. نحن نقدم الخدمة العلمية فقط، ولا يمكن أن نقدم أكثر من هذا. وهناك جهود لإخراج أعمال ابن سينا وابن رشد.

أنا أتكلم هنا فقط عن الدراسات العربية. هناك أيضاً اهتمام باليوناني - العربي، أو النصوص المترجمة من اليونانية إلى العربية.

• بالنسبة إلى رسائل الكندي، هل تقومون بإعادة تحقيق ما نشره الدكتور أبو ريدة من قبل؟

- هناك شيئان: ظهر كتاب من نحو ٨٠٠ صفحة، يتناول أعمال الكندي في المناظر، وهي تطبع بالعربية أول مرة. كانت ترجمتها اللاتينية قد طبعت من قبل، فأعدنا تحقيقها من جديد على نصوص لاتينية جديدة. وهذا جزء صغير من العمل. الجزء الأكبر يتمثل باكتشافات مخطوطية جديدة، صعبة المنال والتحليل. تم بفضل الله الانتهاء من تحقيقها وترجمتها وتحليلها وتأريخها، إلخ.

وأقوم بالاشتراك مع أحد زملائي الفرنسيين (جيوليفيه) - بنشر بعض الرسائل الفلسفية للكندي، كان أستاذه المرحوم محمد عبدالهادي أبو ريدة قد نشرها من قبل. ولكن الوسائل التقنية الجديدة، والاهتمام بالمخطوطات، ومعرفة أعمال الكندي الأخرى، ولا سيما أعماله العلمية، ساعدت على إضافة بعض التحسينات لطبعة أستاذي المرحوم أبي ريدة.

وقد ظهرت في بريل Brill - في هولندا، العام الماضي... وهناك أيضاً مشروعان في طور التحقيق الآن. أولهما هو عمل قاموس تاريخي للغة الرياضيات العربية باللغتين العربية والفرنسية، مع الأصول اليونانية، ومع الترجمة اللاتينية والإنجليزية والألمانية.

والمشروع الثاني هو عمل قاموس للعلماء والفلاسفة العرب والمسلمين، حتى القرن الخامس الهجري، وهذا مشروع سنقوم به بمساعدة المدينة العلمية نفسها في باريس. وسنبدأ فيه العام المقبل بإذن الله.

• نريد أن نتعرف إسهامات العالم رشدي راشد في إعادة كتابة تاريخ الرياضيات؟

- من الصعب أن يتحدث المرء عن نفسه. ولكن بوسعي أن أخبرك عن انطباعي عن هذه الإسهامات، وقد يختلف بعض الناس معي في هذا. فالإسهام الأول، على ما أعتقد، هو إعادة كتابة تاريخ الجبر. فحتى هذا الوقت كان تاريخ الجبر يكتب كحوادث عن أبطال الجبر ومعاركهم. يعني مثلا فقرة عن الخوارزمي، وأخرى عن أبي كامل، وثالثة عن فلان، ثم ينتهي الأمر. عندما بدأت عملي في هذا المجال، قمت بإعادة الصياغة النظرية لهذا. بمعنى: ما القوانين التي طورت الجبر؟ وما فروع الجبر المختلفة؟ فبينت ما أسميته بـ (حسبنة الجبر)، وهي مدرسة مستقلة كان فيها الكرخي والسموأل، وآخرون. فظهرت بهذا الإسهام أشياء جديدة. أولها أنني بينت أنه كان في الجبر العربي أعمال مهمة في حساب التوافيق والتباديل، يعني Combinatorial analysis. كان هذا الموضوع لا يعرف عنه شيء. وبينت أيضاً أن أساس هذا الحساب - وهو مثلث باسكال - كان موجوداً عند الكرخي. فمن خلال فهمي لما أسميته بحسبنة الجبر، بينت هذا النوع من الإسهامات. منها إذن حساب التباديل والتوافيق، ومنها أيضاً الدراسة الجبرية للمقادير الصم، وكيف كانت هذه الدراسة أساسية في تطور الجبر. ثم بينت فيما بعد الجبر الهندسي، وكيف تم الجبر الهندسي. فهذا كان معروفاً عن الخيام. ولكن لم يكن معروفاً أي شيء عن شرف الدين الطوسي، واستعمال شرف الدين الطوسي لمفهوم ينسب إلى القرن السابع عشر، وهو مفهوم الـ Maxi-mum - أي: النهاية القصوى، أو كما كان يسميه: العدد الأعظم. فبينت أنه استخدم أول مرة في العربية مفهوم (المشتق)، و(حساب المشتق) على يدي شرف الدين الطوسي. ولم يكن يعرف عن شرف الدين الطوسي شيء قبل هذا.

إذن إعادة كتابة تاريخ الجبر، باكتشاف فروع جديدة داخل الجبر، وكذلك باكتشاف جبريين لم يكونوا يذكرون كجبريين لهم إسهامات بهذه الضخامة في الجبر. هذه هي النقطة الأولى. النقطة الثانية تتمثل في أنني بينت أيضاً أن المؤرخين الغربيين كانوا يقولون: نعم إن العرب عملوا في الجبر. ولكن ليس لهم شيء في نظرية الأعداد. فبينت وجود نظرية كاملة في الأعداد عند العلماء العرب، وأن بعض النظريات الأساسية داخل هذه النظرية الكاملة كان ينسب خطأ إلى فرما Fer-mat، وإلى ديكارت، أو إلى مؤلفين من القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد، وخاصة حسابات الوظائف الحسابية الأولية. ولن أدخل في التفاصيل، لأنها تفاصيل تقنية بعض الشيء. هذا هو الجزء الثاني.

فقليلاً قليلاً بينت وجود فرع كامل هو

بنت الشاطئ

نظرية الأعداد، وبينت أن نظرية الأعداد عند العلماء العرب والمسلمين كانت تحتوي على فصول متعددة، منها ما يسمى بالتحليل الديوفنطوسي. وهذا التحليل الديوفنطوسي بدأ عندما وفقني الله إلى اكتشاف الترجمة العربية لكتاب ديوفنطوس، حيث حققته ونشرته. وابتداء من هذا، وحتى أفهم أثر هذا الكتاب استطعت أن أبين أن هناك من العلماء العرب من القرن العاشر الميلادي من طوروا هذا التحليل الديوفنطوسي تطويراً جيداً، ووصلوا إلى ما يسمى بـ (مبرهنة فرما للقوى الأربع الأولى) - وهذا مهم جداً في نظرية الأعداد. هذا هو ما تم، وتمت أشياء أخرى متعددة في علم المناظر، وفي علوم أخرى.

ومنذ أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا أعمل على الهندسة. وقد نشرت في مؤسسة الفرقان حتى الآن جزأين من أكثر من ألفي صفحة في حساب التحليل الرياضي عند العلماء العرب. وهناك بينت أيضاً أن بعض النتائج التي تنسب إلى كيبلر وإلى كافاليري؛ وهو من علماء أواخر القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر، وصل إليها العلماء العرب من قبل. ولم تكن مجرد نتائج، بل كانت عملاً وإقامة نظرية كاملة في التحليل الرياضي، ولا سيما فيما يسمى بـ (الرياضيات اللامتناهيات في الصغار)، وهذا ما قمت به في الجزأين الأول والثاني. وأحاول الآن أن أبين من جديد كيف أن الهندسة التي كان المؤرخون الغربيون يعتقدون أنها الابن الفقير في عائلة الرياضيات العربية، لم تكن إطلاقاً الابن الفقير، بل بالعكس من ذلك.لقد كنت أشاركهم هذا الاعتقاد منذ نحو ربع قرن، ولكن بعد توصلي إلى النتائج المذكورة بدأت أسأل من جديد: كيف تكون الهندسة هي الابن الفقير، مع كل هذه الإنجازات، والأبحاث الرياضية في المجالات الأخرى؟ بعد إعادة هذا السؤال على نفسي، استطعت أن أبرهن - وهذا ما ينشر الآن - على وجود فروع في الهندسة، وأبحاث عما يسمى بـ (التحويلات الأفينية والإسقاطات الهندسية) التي تنسب إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد كانت هذه الأعمال مما حقق في الهندسة العربية من قبل، ولكن هذه قصة طويلة، وسأحكيها في أكثر من ألفي صفحة تمثل الجزأين الثالث والرابع، وهما الآن تحت الطبع في مؤسسة الفرقان.

التراث العربي العلمي

• بروفيسور رشدي، ينظر بعض العرب المحدثين إلى التراث العربي نظرة استخفاف، ويطلق بعضهم مصطلح (الكتب الصفراء) على تراث الأمة الإسلامية. فماذا تقول لهم؟

- أولاً: التراث هو جزء من تاريخ الأمة العربية - الإسلامية ينبغي أن يكتب، ويعرف، ويدرس بإتقان وموضوعية. ثانياً: هذا الجزء من التاريخ يستفاد منه في عدة وجوه، منها الوعي بالذات، والمكاسب المعرفية، وتطوير معارف مازالت قائمة، وستظل قائمة «مثل المعرفة الأدبية، وكثير من المعارف الفنية كالبناء والرسم والزخرفة، مثلاً»، وأيضاً كثير من المعارف الحياتية من ملبس ومأكل، والنواحي الاجتماعية. وبصفة عامة التراث موجود، أردنا أم لم نرد. الأفضل أن يكون موجوداً مع معرفة وإتقان وتطوير، وأن يكون موجوداً بتفكير، وليس بتلقائية، أي بلا تفكير وعدم إحكام واضطراب. والتعامل مع التراث ليس بدعة. ويجب أن يعرف الجميع أن علوم القرآن جزء من التراث، ولكن التراث ليس كله علوم قرآن. يوجد في مصر أكثر من تراث تفاعل وأثر كل واحد في الآخر، مثل التراث. ودراسة التراث العلمي يمكن أن تساعدنا في تمثل العلوم وتعريبها، ومن ثم المساعدة في تدريس العلوم بالعربية. وأنا ممن يعتقدون أنه لا يمكن تدريس العلوم بلغة أخرى غير العربية، إذا أردنا من الطالب أن يكون قادراً على الفهم العميق، ومواصلة البحث فيما بعد. أعتقد أن التلميذ أو الطالب الجامعي لا يمكنه فهم المفاهيم العلمية أو تمثلها بلغة أجنبية.

> **دراسة التراث العلمي يمكن أن تساعدنا في تمثل العلوم وتعريبها، ومن ثم المساعدة في تدريس العلوم بالعربية**

ودراسة تراثنا العلمي هي إحدى الوسائل الأساسية لنشر المعرفة العلمية، ولا سيما العقلية العلمية، والوعي العلمي.

• ماذا تعني بالضبط من هذه الملاحظة؟

- أعني أن هناك تصوراً ظهر حديثاً في البلدان العربية يقوم على نفعية العلم، أي إنه تصور عملي للعلوم، ومن ثم إهمال البعد النظري للعلم، وهذا خطأ جسيم. فمثلا عندما أسس مركز البحوث العلمية في مصر، بني على أساس تطبيقي صرف. وأنا أعتقد أن هذا كان تصوراً غير سليم للعلم، وتطوير العلم.

باختصار: لا يمكن أن يوجد المهندس الجيد، إن لم يوجد الباحث الرياضي الممتاز. ولا يمكن أن يوجد الطبيب المتميز، دون الأبحاث البيولوجية المتقدمة. وهكذا يمكن أن يخرج واحد أو اثنان متميزين، ولكن لا يمكن أن نبني تقليداً Tradition - فالعلم قديماً وحديثاً هو مدينة علمية متكاملة. فإن لم يوجد هذا التقليد، فلن يكون هناك تقدم علمي مستمر. ببساطة شديدة: العلم هو مجتمع العلماء بكل الأبعاد النظرية. فإن لم يكن هناك بناء لمجتمع العلماء، فسنكون مستوردين للعلم، ولسنا المبدعين له. والدليل أن أغلب من نتشرف بهم من العرب يعيشون في الغرب!!

• ما رأيك في التخبط الحاصل في مجال نشر المخطوطات العربية؟

- مما لا شك فيه أن هناك الكثير من النوايا الطيبة، والكثير من المشروعات والاستثمارات. ولكن ما ينقص هذا هو أنه

لا يوجد في العالم العربي - الإسلامي حتى يومنا هذا مركز لتحقيق تراثنا العلمي وتحليله وتأريخه. هذا المركز أو المعهد ينبغي أن يكون مرتبطاً بالتدريس الجامعي. وأنا شخصياً أعتقد أن هذا المركز ينبغي أن يكون، حتى يكتب له النجاح، في أحد المراكز العربية - الإسلامية، مثل القاهرة، أو بيروت، أو طهران. والمسألة ليست مجرد وجود مبنى، ولكن وجود مكتبة ونظام تدريسي كفء وأعمال بحثية متقنة، حتى يتم فرض معايير الجودة والإتقان في العمل.

• بعض فروع العلوم العربية لم يبدأ البحث فيه بعد. المخطوطات ما زالت في ظلمات المكتبات. العرب لا يعرفون شيئاً عنها. والغرب إن عرف شيئاً، فهو يريد تجاهل مثل هذه الإنجازات الباهرة. فهل يمكن أن تعطينا فكرة عن هذه العلوم المجهولة؟

- أحب أولاً أن أعلق على ملاحظتك الأخيرة، وهي أن الغرب، إن عرف شيئاً، فهو يتجاهله. أنا لا أعتقد أن هذا موجود. يعني ليس هناك مؤامرة. الأشياء تتم بشكل طبيعي. بمعنى أن الغربيين يهتمون بتراثهم في المقام الأول. يقيناً تكونت إيديولوجيا منذ القرن التاسع عشر، تمنع أحياناً من الرؤية، وتمنع من الاهتمام. ولكن في الغرب يجب أيضاً أن نفرق بين أنواع كثيرة من الناس. فهناك جزء عنده حسن النية، ولكنه لا يعرف. وجزء آخر يعرف، ولكن ليس عنده حسن النية. وجزء ثالث لا يعرف، وليس عنده حسن النية. وجزء أخير يريد أن يعرف، دون أن تكون لديه الوسائل اللازمة للمعرفة. فعندما نتكلم عن الغرب في هذا الموضوع، علينا أن نفرق بين التيارات المختلفة الموجودة فيه، ولا نأخذه كوحدة متجانسة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى علينا أن ننظر إلى أنفسنا - نحن العرب والمسلمين -: ماذا قدمنا نحن للتعريف الجاد بهذه العلوم؟ - نحن لم نقدم شيئاً - أو قدمنا حتى الآن القليل. فعلينا أولاً أن نقدم شيئاً، قبل أن نحاسب الآخرين. ولكن لا يمكن بداية أن نحاسبهم، ونحن أقل مساهمة من كثير من المستشرقين في هذا الموضوع. أو على الأقل كانت الأمور كذلك حتى منتصف القرن العشرين. هذه ملاحظة جانبية، لتوضيح الأمور.

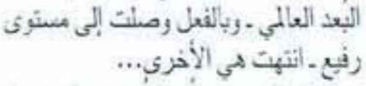
أما سؤالك عن المجهول من تراثنا العلمي، فهناك نوعان منه: الأول هو المجهول المجهول، والثاني هو المجهول الذي نعرف عنه القليل. أما المجهول المجهول، فهناك بعض الفروع العلمية التي نمت وتطورت بداية من القرن الثاني وحتى القرن الخامس الهجري، وفيما بعد - هذه الفروع لم تدرس إطلاقاً. فمثلاً على سبيل المثال لا الحصر، طورت العرب والمسلمون علماً يسمى (علم المساحة). وعندما تأخذ مثلا كتابا مثل كتاب الفارابي «إحصاء العلوم»، ستجده يتكلم بكل وضوح وصراحة عن هذا العلم. هناك عدد من المخطوطات، وعدد من أسماء العلماء العرب الذين عملوا وتخصصوا في علم المساحة. على سبيل المثال لا الحصر، الخوارزمي نفسه، وأبو كامل شجاع بن أسلم، وهو أحد عمالقة الجبر، وعاش في عصر الدولة الطولونية، والقبيصي أحد علماء القرن العاشر، عمل أيضاً في علم المساحة وكتب فيه. وتطور علم المساحة، حتى وصلت الأمور إلى أن ابن الهيثم، المتوفى بعد سنة ١٠٤٠م، كتب كتاباً كاملاً، قمت بتحقيقه، وسينشر قريباً، موجه أساساً إلى المساحين، لإرساء مهنة (المساحة) على أساس هندسية متينة وسليمة، وإرساء وسائلهم لقياس المساحات والارتفاعات على أسس هندسية سليمة، بحيث يصبح هذا الفن فناً علمياً. فليس هناك أي دراسة جادة عن هذا العلم. وما نشر من مخطوطات هذا العلم لا يزيد على نصف أصابع اليد الواحدة. هذا أحد الأمثلة.


أرنست رينان

نأخذ علوماً أخرى، مثل علم خطوط الساعات، أو علم المزوال. هذا العلم أيضاً ألف فيه العلماء العرب عدداً من الكتب التي لم تدرس بعد. فقط قام أحد تلامذتي في فرنسا بتحقيق كتاب ثابت بن قرة في هذا الموضوع. وقد انتهيت أنا في السنوات الأخيرة من تحقيق كتابين، هما قيد النشر الآن: أولهما لحفيد ثابت بن قرة: إبراهيم بن سنان، والثاني لابن الهيثم - ولكن هذا العلم كان أرضاً مجهولة، ولم يهتم به أحد. وهناك عدد من الأعمال التي يجب أن تتم، قبل أن نبدأ في كتابة تاريخ جدي لهذا الفرع من المعرفة، وهناك أيضاً علم الخرائط الرياضية.

• وماذا عن الأعمال التي نشرها معهد التراث العربي في حلب؟

- .. في الواقع كانت هناك إمكانية ضخمة في حلب عندما أسس هذا المعهد، ويرجع الفضل في ذلك إلى الأستاذ أحمد يوسف الحسن الذي تعاوناً معه جميعاً لتأسيس معهد حلب. ولكن بعد انتهاء فترة أحمد يوسف الحسن، كمدير لجامعة حلب، انتهت الأمور. حتى المجلة التي كان ينشرها هذا المعهد، والتي ساعدنا جميعاً في نشرها وإعطائها



البعد العالمي - وبالفعل وصلت إلى مستوى رفيع - انتهت هي الأخرى...

وعلم الشفرة. أو ما يسمى بالعربية (المعميات). توجد مكتبة كاملة في هذا العلم، حقق منها بعض الكتب، بفضل الزملاء الذين يعملون في مجلس البحث العلمي في دمشق. وهو مجهود مشكور وجيد. ولكن هذه بداية يجب أن تستمر. أيضاً كل فروع الجغرافيا العربية: هناك مثلاً علم البحار، هذا العلم حقق فيه عدة كتب: لابن ماجد، والمهري. ولكن هناك ميداناً واسعاً وفسيحاً للدراسة والتحقيق في هذا العلم، بيد أن هذا لم يتم بعد. خذ مثلا علم السيمياء.

• **ما تعريف السيمياء؟**

ـ هو علم ما قبل الكيمياء. هذا العلم وتطبيقاته، مثل علم كيمياء العطور، لم يبدأ البحث فيه بعد. ولهذا أقول نحن ما زلنا على شاطئ البحر، ولم ندخل في البحر بعد. هذه العلوم هي ما يسمى بـ (المجهول المجهول). وهناك المجهول الذي يبدو معلوماً. وهو بقية فروع العلم. يعني في أغلب فروع العلم الباقية هناك محاولات، وهناك أعمال، وهناك تقدم - ولكن هذا لا يكفي لملء الفراغ الموجود. فعلى سبيل المثال علم المناظر، وهو أكثر العلوم دراسة وتقدماً، بفضل المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة، ومصطفى نظيف وكتابه ذي الجزأين عن ابن الهيثم وبحوثه البصرية: حتى يومنا هذا لم يتم تحقيق (مناظر ابن الهيثم). فكل ما حقق من مناظر ابن الهيثم الكتب الثلاثة الأولى، بينما الكتب الأربعة الأخيرة، وهي أهم الكتب، لم تحقق بعد. وكذلك لم يتم تحقيق بقية أعمال ابن الهيثم في المناظر. ولم يتم تحقيق أعمال كمال الدين الفارسي في المناظر. ولم يتم تحقيق تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي، وهو من أهم ما كُتب.

• **أريد أن أعرف ما الذي اكتشفناه حتى الآن من تراثنا العلمي؟**

ـ سبق أن أوضحت بعض العناصر الأساسية مما أكتشف من تراثنا العلمي في الرياضيات، مثل أعمال الطوسي، وغيره. وممكن أن أتحدث طويلاً. ولكن مهما تحدثت، فنحن ما زلنا على شاطئ البحر، ولم ندخل في البحر بعد. فهناك ميادين عامة وكبيرة في تراثنا العلمي لم يطرق باب البحث فيها بعد.

• **وماذا عن كيمياء العطر؟**

ـ بالنسبة إلى كيمياء العطر، والكيمياء بمعناها الحقيقي، وعلاقة الكيمياء بالصيدنة، أو الصيدلة، هذا أيضاً علم مازلنا في بدايات البحث فيه. عندنا في المعهد في باريس أحد الباحثين في هذا الموضوع، وهو بايولوجي الأصل، يعني كان باحثاً في البايولوجيا، قبل أن يبدأ البحث في هذا الموضوع. ولكن هذا مجرد باحث واحد في هذا الميدان المهم. نحن لم ننشر حتى الآن واحداً في المائة من المخطوطات العربية في هذا العلم. يعني ما أحب أن ألفت النظر إليه، وأكرره وأعيده، أننا مازلنا في بداية البداية.

• **ذكرت في مقدمة كتابك «تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب» التي تناولت فهم العلم العربي على أنه جزء من تاريخ العلم، تُعد على أصابع اليد الواحدة. فماذا تقصد؟ وما هذه الأعمال؟**

ـ أقصد أن تاريخ العلم العربي لم يهتم به الاهتمام الذي يستحقه هذا العلم بعد. ليس لأنني أضع هذا العلم فوق مستواه الحقيقي، ولكن إحقاقاً للحق. وذلك لأسباب عديدة، منها أسباب سياسية معروفة، ومنها أسباب إيديولوجية أيضاً معروفة. ولا داعي للتركيز عليها، حتى لا نكون كمن قتل الحصان الميت!! ولكن تدخل فيها أيضاً أسباب طبيعية، بمعنى أن الناس هنا في أوروبا وأمريكا يهتمون بتاريخ ما أنجز عندهم. فعندما يقومون بالبحث مشكورين في تاريخ العلم العربي، يجب أن نعترف لهم بالجميل في هذا. ولكن لا نستطيع أن نطلب منهم أن يقوموا هم بكل الدراسات.

الخلفيات العنصرية لدعوى غربية العلم لا يمكن فهمها إلا بعناصر متعددة؛ منها الحروب الصليبية، والفترة الاستعمارية والقوميات

وعندما ننظر إلى ما تمّ في العلوم العربية، وتاريخ العلم العربي، سنجد بالطبع علماء عرباً فضلاء، مثل المرحوم الدكتور مصطفى نظيف الذي كتب كتاباً مهماً عن «أبحاث ابن الهيثم في المناظر». ويؤسفني أن أقول: إنه لا يوجد أحد في المنطقة العربية بأسرها في عصرنا هذا يستطيع أن يكتب مثل هذا الكتاب الآن.

أحلام وآمال

• **ذكرت المرحومة بنت الشاطئ في أحد كتبها ملاحظة مهمة جداً، وهي أن طلبة الجامعات المصرية ينفرون ويتهربون من تحقيق المخطوطات؛ لأن التحقيق في رأيهم هو عمل علمي شاق جداً، يحتاج إلى كثير من الصبر والاجتهاد والعمل وإتقان موضوع البحث، إلخ... أنا شخصياً أحلم: أحلم بأن نقوم بتقسيم كعكة التراث، بحيث تأخذ كل كلية، أو كل معهد علمي، الجزء الخاص به. ويتم هذا كله في نطاق مشروع قومي، وتتاح للطلبة فرص تحقيق المخطوطات، والحصول على الشهادة الجامعية بنتيجة هذا التحقيق، بل نقدم لهم كل دعم وتشجيع ومعاونة ما رأيك؟**

ـ هذا بالطبع حلم جميل! ولكني لا أحلم بهذا! أنا أكثر تواضعاً!! أنا أحلم بهذا لسبب بسيط، هو أن تحقيق التراث مهنة، ويجب أن تظل مهنة، وإلا سنصل إلى نتائج خطيرة لا أحبها. أنا عندي بعض التعديلات على هذا الحلم، إلى حلم آخر. الحلم الآخر هو أن نقوم بإنشاء معهد متخصص لهذا الموضوع، لا يقبل فيه، إلا للدراسات العليا فقط. بحيث يتلقى الطلبة تعليمهم الجامعي الأساسي أولاً في الطب، والرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والفقه، وأصول الدين، والفلسفة، مع بقية فروع العلم المختلفة. وبعد إنهاء هذه الدراسة الأساسية، بإتقان وتفوق، وكذلك بعد دراسة بعض اللغات اللازمة، يلتحق الطلبة بهذا المعهد، ليبدأ تكوين جديد لهم في تعريف التراث، وتحقيقه، ووسائل التحقيق، والمواد اللازمة لهذا التحقيق، ودراسة التاريخ، وفلسفة العلوم، كل الدراسات اللازمة لهذا. ففي داخل هذا المعهد يتم هذا التكوين، وتبدأ مشاريع التحقيق.

ما طموح هذا المعهد؟ هذا يعتمد على القوى السياسية. ما إمكانات هذا المعهد؟ هذا أيضاً يعتمد على القوى السياسية، وعلى قدرتها على فهم أهمية هذا

الموضوع، كموضوع علمي، ووطني، وتاريخي، وحيوي للكيان العربي. واتخاذ قرار تأسيس هذا المعهد ليس من اختصاصي، فبصفتي متخصصاً في تاريخ التراث العلمي العربي، ليس بوسعي أكثر من لفت نظر المسؤولين إلى أهمية الاهتمام بتراثنا العلمي.

• حلم آخر: أحلم باستعادة العربية عرشها المفقود، كلغة للعلم. نحن لدينا عدة مجامع للغة العربية، ولكن لغتنا تحتضر حقًا. ماذا نفعل؟

ـ قوة اللغة تنبع من عدة أشياء، أولها البحث العلمي الذي تقوم به هذه اللغة، وثانيها قوة الاقتصاد الذي يدعم هذه اللغة، وثالثها الوجود السياسي الذي يحبذ هذه اللغة، ورابعها قوة الثقافة التي تتكلم عنها هذه اللغة.

وهناك أيضاً قوة الاقتصاد التي تجذب الآخرين لتعلم اللغة، للتعامل معك. والوجود السياسي: فلماذا تكلف نفسك تعلم لغة أمة لا وجود سياسياً لها؟ فمن يتعلم اليوم العربية؛ فبسبب ازدهار الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، وليس بسبب الحاضر.

• نريد أو نحلم برؤية مُختصَرة - أعني مرجعًا مختصراً - لتاريخ الرياضيات من العصور القديمة حتى القرن العشرين الميلادي. هل يمكن تحقيق ذلك؟

ـ مرجع مختصر من العصور القديمة حتى الآن - أعتقد أن هذا شبه مستحيل، أولاً لتعدد فروع الرياضيات، وثانياً لطبيعة العلم نفسه، يعني حتى نستطيع أن نفهم، لا بد من بعض الشروح من وقت إلى آخر، وإلا سيصبح الأمر مجرد ذكر أسماء، وعناوين كتب. وعندما ندخل في الشروح، فلا بد أن يطول الأمر. هناك محاولات فشلت بالإنجليزية والفرنسية. وأعتقد أنه ينبغي علينا أن نعيد تقسيم فترات التاريخ لأنها قسمت حسب التاريخ السياسي، وليس حسب تاريخ العلوم.

تخلف التعليم في عالمنا العربي

• في ظل ظروف تخلف التعليم في عالمنا العربي، يحدث تجاهل شبه تام لإنجازات العالم رشدي راشد، فيما يخص تصحيح أخطاء المؤرخين الغربيين. هل يمكن أن نتخيل حدوث إصلاح تعليمي في عالمنا العربي، بحيث نرى مؤلفات أمثالكم تُدرس في الجامعات العربية؟

ـ طبعاً الإصلاح التعليمي سيفرض نفسه بصورة، أو بأخرى، نتيجة لتطور التعليم في العالم، وأيضاً نتيجة لتطور تدريس العلوم في العالم. فالفجوة بيننا وبينهم تزداد اتساعاً في المجالات كافة. هذا بصرف النظر عن كتب من تدرس، وكتب من لا تدرس. فمستوى البحث والتعليم لا يمكن أن يظل على المستوى الحالي في أي بلد من البلاد العربية، إلا إذا حكمت الناس على نفسها بالإعدام.

> إذا لم يكن هناك بناء لمجتمع العلماء، فسنكون مستوردين للعلم، ولسنا المبدعين

نرجع إلى مسألة تعليم تاريخ العلوم، أو تعليم مثل هذه الفروع. أنا أعتقد أن هذا أصبح الآن ضرورة، على أساس أن مقارنة بسيطة مع الدول المجاورة، توضح لنا الأمور. يعني من المواد التي يهتمون بها في الجامعات الإسرائيلية مادة تاريخ العلوم، وتُدرس في أكثر من ست جامعات إسرائيلية اليوم. أنا لا أقول إنه ينبغي تقليد هؤلاء أو أولئك في هذا الميدان أو ذاك. ما أقوله هو: لو كان لدينا التزام علمي، ورغبة حقيقية في إدخال المعايير العلمية، فلا مفر من إصلاح التعليم عندنا.

الترجمة

• تحدثنا عن عشوائية نشر التراث محققًا. فلنتحدث الآن عن الترجمة. أعني الترجمة إلى العربية. ما رأيك في غياب المشروع العربي القومي للترجمة؟

ـ في الحقيقة: الترجمة تثير الكثير من المشكلات، والكثير من التساؤلات. أولا هناك أنواع من الترجمة: فهناك الترجمة من أجل البحث، وهناك الترجمة من أجل نشر الثقافة، وهناك الترجمة من أجل التسلية. هذه الأخيرة موجودة فيما أعتقد. والترجمة من أجل نشر الثقافة، موجودة أيضاً نسبياً. أما الترجمة من أجل البحث، فهذه هي المشكلة. لأن الترجمة من أجل البحث تثير إشكالية وجود البحث نفسه. فعندما يتقدم البحث - والبحث يستدعي الترجمة ويحتاج إليها - فلا بد أن تنشط الترجمة وتزدهر. هذا لو كان البحث ليس مقصوراً على فئات صغيرة تنشر أعمالها في الخارج، ولا يكون لبحثها أثر في التعليم داخل القطر. وهذا للأسف ما يحدث الآن في عالمنا العربي، وهو يتسبب في قطيعة حضارية خطيرة جداً. بعبارة أخرى: ليس هناك باحث لا يجيد عدة لغات. وليس هناك باحث لا يعرف الإنجليزية والفرنسية والألمانية، حتى يستطيع الرجوع إلى أكثر المراجع، والدخول فيها، دون انتظار الترجمة. فالخطورة لا تكمن هنا، الخطورة تكمن عندما تريد أن يعم البحث فئات أكثر عدداً، وعندما تريد أن يكون للبحث دور داخلي سريع في التعليم. فليس هناك تعليم بلغة أجنبية. هذا غير معقول. ولن يحدث أبداً. التعليم بلغة أجنبية هو لإيجاد وسطاء في الثقافة، مثل وسطاء التجارة. وليس هناك ثقافة عن طريق الوسطاء. الثقافة هي أساساً خلق وإبداع وتعليم.

• بالنسبة إلى المراجع الأجنبية الخاصة بتاريخ الرياضيات، ما أهمها؟ ثم: متى سنراها مترجمة إلى العربية؟

ـ هناك العشرات من الكتب الجيدة، بل الممتازة أحياناً، لم يترجم منها شيء إلى العربية. فهناك مؤلفات: Heath, Tannery, Aeuthen, Neugebauer, Etc. في الرياضيات القديمة. وهناك مؤلفات Woepcke, Luckey, Youschke-vitch, Clagett, Ect. في رياضيات

العصر الوسيط، والرياضيات العربية. وهناك مؤلفات Itard, Whiteside وآخرين كثيرين في رياضيات القرن السابع عشر، وهكذا دواليك.

وهناك الموسوعات التقليدية في تاريخ الرياضيات، مثل Montucla, Cantor, Ect.

الفلسفة

◦ **ذكرت أن المرحوم أبا ريدة كان أحد أساتذتك في الفلسفة. هل يمكن أن تعطينا فكرة عامة عنه أولاً؟ ثم ما رأيك في وضع الفلسفة العربية وتدريسها في عصرنا هذا؟**

ـ المرحوم أبو ريدة، ككثير من زملائه في هذه الفترة كان لهم التكوين الجيد في مجال التخصص، وكانوا يتقنون لغات أجنبية، وملمين بتاريخ الفلسفة، كما كانوا يتجهون إلى الدقة في عملهم ـ على قدر طاقة كل إنسان. وكانوا في داخل التقليد Tradition المعروف في التاريخ للفلسفة ـ بمعنى دراسة النصوص، وفهمها، إلخ ـ كانوا فلاسفة تقنيين. وكانت الفلسفة بالنسبة إليهم مادة تخصص، وموضوعاً تقنيا، وكانوا يدرّسونها على هذا الأساس، أي على أنها مادة تخصص، وموضوع تقني، وليست مجرد آراء، وأحياناً أهواء. وكانت معركة مثل معركة القديم والجديد، أو الحداثة والمعاصرة، إلخ، من المعارك الموجودة من القرن الماضي. ولكنها كانت تدور عادة بين الأدباء، من أمثال طه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، والشيخ شاكر، إلخ. فكانت هذه الأمور موجودة ومثارة بين الأدباء. وكان هؤلاء الأدباء يُنتجون أدباً في الوقت نفسه. وكانوا يناقشون هذه المسائل مع إنتاجهم الأدبي القوي. ويكفي أن نشير إلى أن المشاركين في هذه المعارك كانوا قمما في تخصصاتهم: طه حسين في الأدب والقصة، وصادق الرافعي في المقالة، والشيخ شاكر في اللغة. لم تكن قيمتهم تقوم على هذه المناقشات، أو هذه الآراء. ولكن قيمتهم كانت مؤكدة في ميدان تخصصهم الأصلي. ما أود قوله إنك لا تستطيع تكوين الطالب التكوين السليم، إذا بدأت بالمناقشات الإيديولوجية، قبل التكوين التقني في تاريخ الفلسفة، وفروعها، واللغات اللازمة لفهمها.

عنصرية الغرب

◦ **تحدثت في كتابك «الجبر والحساب» عن الخلفيات العنصرية لدعوى غربية العلم. في الواقع من يقرأ سخافات رينان عن الآرية والسامية، يتعجب من جهالات قوم يدّعون العقلانية. لماذا كل هذا الإصرار البغيض على تعظيم اليونان، دون بذل أدنى محاولة للبحث في تأثير الحضارات الأخرى، وخاصة المصرية، في مفكري اليونان؟**

> قبل أن نحاكم الآخرين علينا أن نسأل أنفسنا ماذا قدمنا للتعريف بتراثنا العلمي؟

ـ لا يمكن فهم هذا، إلا بعناصر متعددة، منها الحروب الصليبية، والفترة الاستعمارية، والقوميات. فحتى نفهم هذا الوضع يجب ألا ننسى هذا. فالحروب الصليبية تركت في أوروبا، مع الإعجاب بالعلم العربي، والأخذ منه، إلخ ـ تركت كرهاً مغلفاً بنوع من الاحتقار، ونوع من الظلم، ككل كره. فالحروب الصليبية تركت هذا وخاصة في بلاد أوروبا الجنوبية: إيطاليا، وفرنسا، وأسبانيا وغيرها.

ولم ينته هذا، بسبب الفترة الاستعمارية. يعني هناك أحكام مسبقة متحيزة جاءت من فترة العصور الوسطى والحروب الصليبية. العنصر الثاني هو ظهور القوميات.

وظهور القوميات في أوروبا، قد صاحبه ظهور إيديولوجيات قومية تؤكد التسامي من ناحية، والاستقلال ـ وخاصة عمن تكرهه ـ من ناحية أخرى.

◦ **هل حدث هذا قبل رينان، أم بعده؟**

ـ قبله. فهذا أيضاً كان له دور قوي في هذا الموضوع. وأخيراً الفترة الاستعمارية. فأنت لا يمكن أن تحترم من تستعمره. ولا يمكن أن تدافع عن عقليته، وخصوصاً أنك تسوّغ هذا الاستعمار بالقول: إنك ذاهب لتحضيره. وعلى سبيل المثال كان في فرنسا دراسة للعلم العربي، وإعجاب به، حتى سنة ١٨٥٠م. والأكاديمية الفرنسية شجعت بعض العلماء، ومنهم الألماني فرانس فيبكه، لدراسة تاريخ العلوم العربية. ولكن بعد احتلال الجزائر رأساً، انتهى هذا. واتجه الاهتمام إلى دراسة العادات والتقاليد والقبائل لخدمة الاستعمار، وفي الوقت نفسه ظهرت اتجاهات فكرية (إيديولوجية) جديدة؛ ظهرت أولاً في فرنسا، ثم انتقلت إلى ألمانيا، ونضجت وتطورت هناك، وبخاصة الرومانسية الألمانية التي ظهرت على أساس أن كتابة التاريخ باللغات، تعني أن الأمم حددت بلغاتها. فهناك السامية، وهناك الآرية. فبدأت كتابة التاريخ باللغات، ثم صار يكتب في ضوء ما يعرف بعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) فيما بعد. فأصبح هناك الفوقي والتحتي.

ليس هذا فقط، بل كان الغربيون يحترمون العلم العربي. يعني عندما تقرأ مثلا فلاسفة القرن الثامن عشر، مثل كوندورسيه Condorcet، الذي كان يرى أن حملة العلم في القرون الوسطى كانوا هم العرب ـ فلم يكن هناك إنكار. وإن لم يكونوا يعرفون هذه العلوم العربية معرفة دقيقة. وانقلب الأمر في القرن الثامن عشر، فأصبح هناك هذا التفريق. وأعطي لهذا التفريق ذلك البُعد اللغوي، ثم البعد الأنثروبولوجي (التمييز بين الأجناس)، بعد ظهور المدرسة الرومانسية الألمانية.

النبات البري

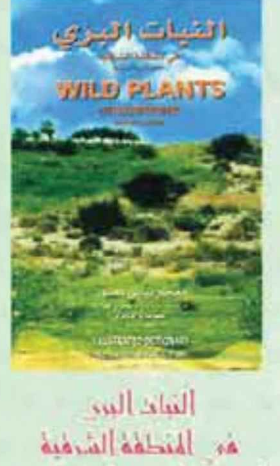
حميد مبارك الدوسري
مراجعة: عبدالرحمن الحبيب
الرياض ـ السعودية

أن تقوم مؤسسة علمية أو فريق بحثي بمحاولة حل أزمة اختلاف الأسماء العربية للنباتات، والبحث عن الأصل الفصيح، فتلك مهمة عسيرة يُشفقون منها، أما أن ينصب البحث على مسح ميداني للنباتات البرية في الصحراء، ومعرفة أسمائها الفصحى، فالمهمة تغدو ضرباً من المغامرة المحفوفة بالمهالك، وأشواك النباتات الحززة. فلا عجب أن يحرق هجير الشمس أوراقهم وجلودهم، وليس ببعيد أن تذرو الرياح السوافي رؤاهم، وحين تهب العواصف الرملية فقد يضيع الدرب، وقد تضيع الروح في إثرها. ولن يسلم الأمر من أن تتحرك الرمال مدثرة خطاهم، وربما أجسادهم.

إزاء مهمة وعرة من هذا القبيل نحن أمام باحث مغامر، امتهن الخطورة وألف التحدي؛ اسمه حميد مبارك الدوسري، بدوي خبر الصحراء مذ نشأته الأولى، ودرس فنون اللغة في ريعان شبابه بمدينة الرياض، ثم حاز على الماجستير في الإعلام من أمريكا. عشق الأعشاب، وهام بعبيرها، فشمَّر عن ساعديه، وأصدر الجزء الأول من كتابه «النبات البري» بعد رحلة دامت خمس سنوات جاس المؤلف خلالها القفار والأودية، متنقلاً بين الربع الخالي والدهناء، مروراً بالمفازات والمجاهل. كتاب لم يجد أي عون مادي من أية جهة عدا أنه مُوّل من الراتب الشهري للمؤلف نفسه!! ومازال المؤلف يجوس مناطق بحثه في الفيافي والقفار ذاتها محاولاً العثور على نبتة نادرة مهددة بالانقراض تتطلع نحو المجهول، أو نبتة ربما انقرضت إلى الأبد.

الأزمة المستديمة للأسماء

عند الحديث عن منافع نبات ما أو مضاره لابد من تسمية هذا النبات، ولابد أيضاً من الاتفاق على أن هذه التسمية تعني نباتاً بعينه، ذا صفات ومميزات محددة، وليس نباتاً آخر قد يشابهه أو قد لا يشابهه ألبتة، إنما صادف أن توافق معه اسماً لا حقيقة.



فمثلاً نجد أن نبات الحرمل يطلق في منطقتنا على عدة نباتات مختلفة، كذلك نجد في المحاصيل الحقلية أن ما يطلق عليها في المنطقة الوسطى في السعودية «ذرة الحبش» تدعى في مصر «الذرة الشامية»، وتسمى في الشام «الذرة المصرية»، وقد تعرف في غير منطقة باسم «الذرة الصفراء». ونجد أيضاً أن شجرة تسمى «الكافور» في مصر يطلق عليها بعضهم في دول الخليج «الكينا». وعلى هذا النحو نواجه مشكلة في أسماء بعض النباتات الاقتصادية، وفي كثير من أسماء النباتات البرية سواء بين البلدان العربية، أو

داخل كل قطر عربي، بل قد نجدها أيضًا داخل المنطقة الواحدة. وهذه الإشكالية قديمة قدم الإنسان نفسه، ونجدها في كثير من بلدان العالم الأخرى، المتقدمة والنامية على حد سواء. فنبات الفول البلدي يطلق عليه في الإنجليزية أسماء متعددة، من نحو: Faba bean أو Horse bean أو Cow bean أو Broad bean بل إنه قد يطلق عليه Beans كما يطلق على نبات الفاصوليا.

ولتجاوز أزمة الأسماء هذه بدأت بوادر تنظيم التسمية على أساس علمي مع ظهور الحركة العلمية الحديثة التي انطلقت في أوربا، إذ يذكر لورنس (١٩٥٩م) أن اسم النبات كان حتى منتصف القرن الثامن عشر يتألف من بضع كلمات لاتينية توجز أهم صفات النبات.

وفي سنة ١٧٥٣م ابتدع العالم السويدي لينيس نظام التسمية العلمية للنباتات؛ الذي هو اسم من كلمتين لاتينيتين؛ الكلمة الأولى تشير إلى الجنس الذي ينتمي إليه النبات، والجنس يضم الأنواع النباتية المتقاربة في صفاتها. والكلمة الثانية تشير إلى النوع، وهي النباتات المتشابهة في صفاتها الخضرية والزهرية والقادرة على التكاثر فيما بينها.


زهرة الأرطى

وبحلول سنة ١٨٥١م كان ستيودل قد أصدر كتابه الذي حوى جميع النباتات الزهرية المعروفة في زمنه معتمدًا نظام التسمية الثنائي. وبنهاية القرن التاسع عشر ظهر الدليل النباتي الأشهر المسمى دليل كيوي من جامعة أكسفورد، الذي يعدّ مرجعًا لا غنى عنه حتى يومنا هذا لمن أراد البحث في الأسماء النباتية. فالأنواع كما ذكرنا تنضوي تحت مجموعة أكبر هي الجنس، أما الأجناس المتشابهة فإنها تشكل مجموعة أضخم تسمى العائلة أو الفصيلة (والفصائل المتقاربة تشكل الرتبة، والرتب تشكل الصف ..إلخ). فالتسمية، والأمر كذلك، تتبع نظامًا دقيقًا ومحددًا، والأساس الذي يستند إليه العلماء هو صفات الأزهار وتركيبها في النبات. ومع أن التسمية العلمية بالكلمات اللاتينية تعدّ حلاً عمليًا عالميًا لمشكلة تشابه الأسماء لأنواع مختلفة أو تخالفها للنوع نفسه، فإن بعض اللغويين العرب يفضلون وضع أسماء علمية عربية، ويقترح بعضهم أن تتم ترجمة الاسم اللاتيني إلى العربية. ولكن يبدو أننا سندخل في أزمة أخرى وهي صحة الترجمة، أو سندخل، على أقل تقدير، في مشكلة تفاوت الترجمة الصحيحة، وأكثر من ذلك أننا قد نواجه مشكلة عدم وجود مقابل عربي للاسم الأجنبي. ويرى بعض الناس أيضًا أن تكتب الأسماء العلمية الأجنبية بحروف عربية إذا لم يكن لها اسم عربي معروف، بينما يوصي مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتجنب كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية حفاظًا على الانتماء العربي. عمومًا فإن المشكلة قديمة ومتشعبة، ولكن الحل الأقل ضررًا الذي يفرضه الواقع الحالي هو وضع الاسم أو الأسماء العربية المتعارف عليها للنوع الواحد وبجانبها الاسم العلمي اللاتيني، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

أهداف الكتاب

كيف نعرف الاسم العربي الفصيح من بين الأسماء لكل نبات من مئات النباتات في بلادنا؟ سؤال يحاول كتاب «النبات البري» أن يجيب عنه؛ ذلك أنه في أغلب الحالات تتعدد الأسماء لنوع نباتي واحد حسب المنطقة، وعلى النقيض يطلق اسم واحد على أنواع نباتية مختلفة. قسم مؤلف الكتاب أهداف بحثه: أهدافًا مباشرة وأخرى غير مباشرة. فالمسح الميداني للنباتات الموجودة، ومعرفة الأسماء الفصيحة لها في منطقة البحث هما على رأس الأهداف

تعدد الأسماء لنوع نباتي واحد، وإطلاق اسم واحد على أنواع نباتية مختلفة من مشكلات دراسة النبات



الأرطى شجر أخضر اللون قاتم الخضرة

المباشرة. إضافة إلى أن الكتاب يرمي إلى تقديم خريطة نباتية تسهم في دراسة السلوك النباتي، وتحديد النباتات الوافدة والمهددة بالانقراض، والمنقرضة فعلاً. ومن الأهداف غير المباشرة للبحث: الإسهام في وضع حدٍّ للعزلة التي تزداد يوماً بعد يوم بين ماضينا وحاضرنا. يقول مؤلف الكتاب: «تخيل أن أحداً منا ذهب أيام الربيع إلى روضة غناء فيها عدد من أنواع النبات، ثم سأله أحد أبنائه قائلاً: أين الخزامى التي يتغنى بها الشعراء؟ أو أين الشيح والقيصوم؟ أريد أن أتمتع باستنشاق عبيره، أو ما اسم هذه النبتة أو تلك الشجرة؟ ماذا سيكون الجواب ياترى؟». كذلك يسهم هذا الكتاب في إقامة المعشبات النباتية؛ وذلك بتسمية النبات بأسمائه العربية الصحيحة. وفي ذلك يقول المؤلف: «إن استخدام الأسماء الأجنبية دون مبرر، أو غير الصحيحة، هو إساءة بالغة للغة العربية في عقر دارها». ويبدو - كما يتضح من سياقات أخرى - أن المؤلف قصد باستخدام الاسم الأجنبي دون مسوّغ الاسم غير العلمي (كالإنجليزي أو الفرنسي أو التركي)، أما الاسم العلمي اللاتيني فلا اعتراض على استخدامه، ولاسيما في المجالات العلمية؛ لأنه موحّد بين دول العالم قاطبة وفقاً لعلم التصنيف الحديث.

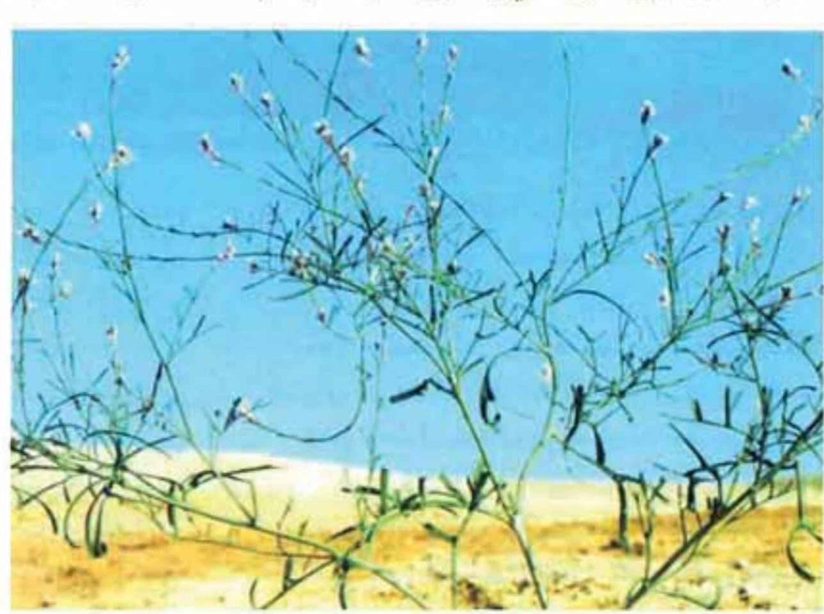
عملية البحث

منطقة البحث التي غطّاها الباحث شملت المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، حسب التقسيم الإداري المعمول به حالياً في خريطة التقسيم الإداري للمملكة.

قام الباحث بالتجوال في منطقة بحثه بمعاينة النباتات على الطبيعة، وأخذ القياسات والصور، وتذوق الطعم، وشم الرائحة، جاعلاً من حواسه مختبراً متنقلاً، كما حاور الباحث البدو، وسألهم عمّا لديهم من معلومات عن هذا النبات أو ذاك، وسجل ملاحظاته في البيئة الزمنية والمكانية والسلوك النباتي. وقد ثبّت خلالها ما يقرب من أربعمئة نبتة، وفي كتابه - القسم الأول - منها مئة نبتة واثنتان.

بعد ذلك بدأ مرحلة البحث عن الاسم العلمي (اللاتيني) لكل نبات، مع محاولة معرفة الفصيلة والجنس ثم النوع، حسب التصنيف العلمي الحديث، مستنداً إلى أمّات الكتب العلمية ذات العلاقة، ولاسيما ما صدر منها عن الأعشاب البرية في المملكة. أعقب

ذلك البحث عن الاسم العربي الفصيح لكل نبات؛ وذلك بالتنقيب في معجمات اللغة العربية، مثل: لسان العرب، وتاج العروس، والصحاح، وبالغوص في بعض دواوين الشعراء الذين عاشوا في منطقة البحث، مثل: ديوان ذي الرمة، وطرفة بن العبد، ورجز العجاج، وابنه رؤبة. وكانت الصور الفوتوغرافية التي التقطها في أغلبها ناجحة في إيضاح أشكال الزهور والنورات، وتفاصيل الهيئة الخارجية للنبات، مما كان له أكبر الأثر في تحديد النوع النباتي وتصنيفه، حيث سبق أن عمل الباحث مصوراً في وزارة الإعلام. ونجد في الكتاب وصفاً موجزاً للصفات الظاهرية للنبات، مع تحديد الموقع من خطوط العرض والطول الذي ينتشر به النبات. واهتم



الإسليح نبت غض طري كثير العصارة

المؤلف كذلك بالسلوك النباتي موضحاً وقت النمو والإزهار وسرعتهما على أساس تقريبي. كما ذكر مصادر التسمية، وبعض الشواهد، وأهم ما قيل عن ذلك النبات واستخدامه؛ وذلك بطريقة موجزة تجنباً للتكرار. ولم يذكر المؤلف الفوائد الطبية والاستعمالات العلاجية مكتفياً بالإشارة إلى أن للنبات استخداماً طبياً مع ذكر المراجع التي يمكن للقارئ الرجوع إليها إذا رغب الحصول على معلومات كافية. أما المعلومات التي لم يدون لها المؤلف مرجعاً فقد استقاها من معلوماته الخاصة، وربما استفاد من أنه كان يوماً ما راعي غنم؛ إذ يقول في ذلك: «المعلومات التي لم أذكر لها مصدراً فهي من معلوماتي الشخصية، وملاحظاتي، وبعض ما سمعت من الرعاة، وكبار السن، بالإضافة إلى معلومات قليلة ما أزال أذكرها خلال الفترات التي كنت فيها أرعى الغنم».

عقبات في دروب البحث

واجه المؤلف طريقاً وعرة شائكة كما هو متوقع لمثل هذا العمل، يقول في ذلك: «من العقبات التي أمكن تذليلها: تحديد مواقع النبات بدقة بالغة؛ وذلك من أجل متابعة النبات في مراحل نموه، أو التأكد من بعض المعلومات، أو الحصول على الصور في مراحل متعددة .. وقد أصبح ذلك سهلاً باستخدام أجهزة .G.P.S، ولم يكن ذلك متاحاً لي قبل سنة ١٤١٧هـ».

ويذكر المؤلف عقبات أخرى أمكن تذليلها، وهي: «تخزين المعلومات والصور وتصنيفها ومعالجتها بالاستعانة بالحاسب الآلي.. وقد أمكن التعامل مع آلاف الصور الفوتوغرافية، وكميات هائلة من المعلومات الأولية بطريقة أسهل».

ولم يتمكن المؤلف من تذليل جميع العقبات التي واجهته في بحثه؛ لعمله في إحدى الوظائف الحكومية وعدم تفرغه للبحث. كما واجه صعوبة في تغطية المنطقة الشرقية أكبر مناطق المملكة مساحة. كذلك فإن قلة الأمطار وعدم تغطيتها لجميع مناطق البحث خلال فترة المسح الميداني أخرا المؤلف عن إكمال بحثه، وأطالا مدة التغطية والتقصي. وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات فان العقبة الكأداء ظلت هي تمويل البحث، الذي تم من جيب المؤلف نفسه.

رحلة في الكتاب

يجمع الكتاب بين فائدة الموضوع العلمي ومتعة

النص اللغوي الأدبي، وإثارة الرأي الشخصي، والتي يرى فيها بعضهم أنها قد لا تستقيم منطقيا في الزمن الحاضر، عصر التخصص الدقيق. فدائما قبل بداية الحديث عن نبات ما نجد على رأس الصفحة الاسم العربي الفصيح، ومن أسفله الاسم العلمي واضعا اسم الفصيلة النباتية على جانب الصفحة من طرفيها الأيمن والأيسر. وبعد تثبيت الاسم يبدأ الحديث عن أنواع الجنس النباتي إن كان ثمة منها في منطقة البحث، كقوله عن الأقحوان: «هناك ثلاثة أنواع من هذا الجنس في منطقة البحث، واحد منها كثير الانتشار، أما الثالث فهو نادر ويسمى Anthemis scrobicularis yavin، وقد ذكره Mandaville، ولكني لم أعثر عليه حتى الآن». وبعد ذكره للنوعين المنتشرين يشير بلمحة موجزة إلى وقت نموه :«وينبت الأقحوان في الربيع ويموت مع بداية اشتداد الحر، وله رائحة طيبة مميزة ومنظر رائع بديع». ويلي ذلك مروره السريع على الأهمية الطبية للنبات من دون الدخول في أية تفاصيل كما سبق أن أشرنا، مكتفيا برصد المرجع، على نحو:«والأقحوان من النباتات الطبية، ذكره ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».ثم ينتقل المؤلف إلى التفصيل اللغوي لاسم النبات، موضحا إن كان ثمة أسماء أخرى مشهورة؟ موازنا بين الآراء، ومميزا الصحيح منها حسبما يرتئيه، ومن ذلك: «وقد ورد ذكر الأقحوان في المعاجم أيضا باسم البابونج والبابونك، والقراص؛ فأما البابونك والبابونج فهو فارسي استعمله العرب، نص على ذلك الأزهري في التهذيب، والمعروف أن البابونج نبات آخر، ومن المستبعد الخلط بينه وبين الأقحوان؛ لأن زهور البابونج ليس لها بتلات بيض، ولكن من السهل الخلط بين البابونج وبين القراص لقرب الشبه في الزهور وفي الورق أيضا. وأما القراص فقد ورد في المحكم واللسان والتهذيب، وهو أمر فيه نظر؛ لأن القراص



الأقحوان

نبات معروف مشهور عند العرب وهو غير الأقحوان، وقد ذكر صاحب اللسان أن القراص «هو نوْر الأقحوان إذا يبس»، وهذا قد يحل هذا الإشكال، ويفسر هذا التشابه؛ فزهرة الأقحوان بعد سقوط البتلات البيض عنها تبدو كأنها زهرة القراص، وحتى هيئة النبتة والورق فيها بعض الشبه الواضح، بالإضافة الى سرعة ذبول البتلات البيض من الأقحوان، وبقاء الجزء الأصفر مدة أطول».

كما أن المؤلف قد يجد تعارضاً بين المصادر فيما دوّن عن بعض النباتات وقد يرجح إحداها على الأخرى، وقد يكتفي برصد هذا التعارض مطالبا بالمزيد من البحث والتقصي، كما جاء في معرض قوله عن عشبة الإجرد، وفي التكملة: إجرد بكسر الهمزه وتشديد الدال وتخفيفها: بقلة تدل على الكمأة، لها حب كأنه الفلفل، وقال أبو زيد: الكفنة منتشرة النبتة على الأرض يقال لها ماكانت رطبة كفنة، فاذا يبست فهي الإجرد، وتميم تسميها الإجرد على كل حال، قال:

جنيتها من مجتنى عويص

من منبت الإجرد والقصيص

لمحا بعيني ضامر خميص

حيث يدوي الآل بالشخوص

وتسمية الكفنة إذا يبست بالإجرد مخالفة لما في

لسان العرب وتاج العروس؛ إذ جاء فيهما أن الكنفة إذا يبست تسمى كف الكلب، وقد نسب الصاغاني هذا الوصف إلى أبي زيد قال في المخصص: «هي عشبة منتشرة النبتة على الأرض، يقال لها مادامت رطبة كنفة، قال: وسمعت أنا عدة من العرب يقولون فإذا يبست فهي كف الكلب»، أما قوله: وتميم تسميها الإجرد على كل حال فهو يحتاج إلى مزيد من التقصي، فلم أعثر فيما اطلعت عليه من المراجع على ما يؤيد ذلك، وهو مخالف لما في المعجمات من ربط ذكر الإجرد بالكمأة، أما الكنفة فلم يذكر أحد أن لها علاقة بالكمأة في المعجمات أو من جناة الكمأة، وزيادة على ذلك ليس هناك شبه بين النبتتين مما يجعل الخلط في التسمية أمراً بعيد الاحتمال. ومع رصانة التقصي في شؤون اللغة والمسميات فإن الأمر قد لا يخلو من طرافة الأدب ومتعه، كما جاء في نهاية كلامه عن الاقحوان: ويجمع الأُقحوان على أقاحٍ، ويصغر على أُقيحات، وقد يقال له: (القَحْوان) بفتح القاف وسكون الحاء، جاء في العين: «وهو من نبات الربيع مفرض الورق، صغير دقيق العيدان، طيب الريح والنسيم، له نور أبيض منظوم حول برعومته، كأنه ثغر جارية، الواحدة أقحوانة، قال:

وتضحك عن غر الثنايا كأنه

ذرى أقحوان نبته لم يفلل

كما يشبه بياض الشيب في الرأس بالأقحوان فيقال: «بدا أقحوان الشيب.. قال:

رأتْ أقحوان الشيب فوق خطيطة

إذا مطرت لم يستكن صؤابها

أي إنه أصلع لايجد القمل مكاناً إليه، والأقحوان من مراعي الإبل والغنم، ومايزال معروفاً باسم (القحويان) لدى العامة، ويستخدم في العلاج الشعبي.

كما أن الباحث قد يمضي بنا في رحلة مسميات مع نباتاته الجميلات، ففي معرض كلامه عن نبات الأرطى، يقول: «.. فهدبُ الأرطى يسمى العَبَل، ويقولون: أعبل الأرطى، إذا طال هدبه، ويسمون هدبه أيضاً الدبيل، وهو ما انتشر من ورق الأرطى وجمعه دبل، ويقولون: ظفر الأرطى إذا خرج له مايشبه الأظفار؛ وذلك حين يخوص، أي في بداية الربيع، وإذا جفت فروعه وأطراف هدبه في القيظ قالوا: أحت الأرطى، وجاء في تفسير العندم أنه دم الغزال بلحاء الأرطى يطبخان جميعاً حتى ينعقدا فتخضب به الجواري، وجاء في تفسير المَظّ أنه عصارة عروق الأرطى، وقالوا عن القصفة: إنها رقة تخرج من أصل الأرطى وجمعها قصف، وللأرطى عروق حمر يشبّهون الإبل بحمرتها، قال في اللسان: «وفي الحديث: جيء بإبل كأنها عروق الأرطى».

يجمع الكتاب بين الفائدة العلمية ومتعة النص اللغوي الأدبي وإثارة الرأي الشخصي



للذؤنون حراشف تشبه الورق ملتصقة به

ويدلف الباحث في تفاصيل أكثر عما قاله الأولون، وعن ذكر الشعراء لهذا النبات، فيقول: وقد اقترن ذكر الأرطى بذكر الظباء وبقر الوحش، فهي تألفه، وتعيش فيه، تحفر فيه أكناساً تستظل فيها من الحر، وتشرب من عروقه فهي كثيرة العصارة، وفي الشتاء تستدفئ فيه وتستكن أيضاً من البرد والمطر، فهو ينبت في الرمل، والرمل سهل الحفر، وسريع الجفاف بعد المطر، وآمن من جرف السيول له من الطين والوحل، قال الشاعر يصف ثور وحش:

فضاف أراطي فاجتالها

له من ذوائبها كالحظر

وقال ذو الرمة:

فبات ضيفًا إلى أرطاة مرتكم

من الكثيب بها دفء ومحتجب

كما يسجل المؤلف الاشتقاقات اللغوية المرتبطة باسم النبات، كما جاء في ذكره للأرطى: «والأرطى شجر ترعاه الإبل ويقال للإبل التي تشتكي من كثرة أكل الأرطى «بعير مأروط» وبعير أرطوي وأرطاوي للإبل، التي تألف الأرطى». كذلك يدون استعمالاته: «وأكثر ما تستعمل الأرطى في دباغة الجلود خاصة القرب والأوطاب، حيث تبقى نكهة الأرطى في الجلد فترة طويلة، وتظهر تلك النكهة في الماء أو اللبن، ويكون لون الجلد المدبوغ قاني الحمرة، قال الأزهري في التهذيب: «يدبغ بورقها أساقي اللبن فيطيب طعم اللبن فيها». وللأرطى حطب يستعمل وقودًا، و لا بأس به، ولكنه ليس كحطب الغضى أو السَّمُر».

ويوضح المؤلف الاستخدام الحالي لهذا النبات: «وفي هذا الوقت مايزال الأرطى معروفًا باسمه، وباسم (العَبَل) ويستعمل في الدباغة إلى الآن، ويباع لدى محلات العطارة، وعروقه كثيرة العصارة، وقد يضطر الإنسان إلى أن يعتصرها، ويشرب ماءها، وماؤها فيه مرارة وبشاعة في الطعم، ولكنه قد ينقذ الإنسان من الموت عطشًا».

ولعلنا نتساءل هل جرّب الباحث طعم عصير الأرطى مكرهًا ظمأً أم ذاقه للتجربة والاختبار؟ وعمومًا يبدو أن الباحث لا يتردد في تذوق ما عنّ على خاطره من الأجزاء النباتية، يقول عن نبات الإسليح: «من النبات الذي تؤكل أوراقه، وقد أكلت منها وطعمها وريحها يشبهان طعم الجرجير وريحه، ولكنها بشعة الطعم وفيها بعض الحرارة والمرارة». وعن نبات الألاء (العاذر) يقول: «وقد أكلت منها، وهي طيبة تعطر الفم، وفيها بعض الحرارة في الحلق، وتترك في الفم مايشبه طعم الدهن، وتحس بحاجة متكررة إلى شرب الماء بعد أكلها، والإكثار منها يسهل البطن، أما الأوراق العسية فطعمها بشع مر، وفيها حرارة شديدة».

كذلك فإن الباحث قد يغلي بعض الأعشاب، ويشرب ماءها كالشاي؛ ليختبر صفة مذكورة، أو ليستدل على صفة يبحث عنها؛ وقد يجرب بالعشب بعض ما اشتهر به، ومن ذلك ما جربه بعشبة الشداء، يقول: «وقد كان الناس يفتلون منه الحبال، وقد فتلت منه حبلاً من القصب الحامل للسنابل، أما الورق فرديء جدًا لايمكن فتله، وحبله ليس بالقوي، وإذا لم يبلل بالماء وقت الاستعمال فإنه ينتقض فتله، ويتشعث بسهولة».



اهتمام المؤلف بفصاحة اللغة وبأصولها كان أحيانًا على حساب الدقة



زهور السلم

وكثيرًا ما يقوم الباحث بتحديد مكان النبات، وقد يذكر ذلك بجسارة تدلّ على ثقة بعملية مسحه الميداني، يقول عن شجرة التنضب: «ويوجد التنضب في المنطقة الشرقية في مكان واحد فقط حسب علمي، (حواير السوس) على خط عرض ٢٥،١١،٤٥ شمالا وخط طول ٤٨،٣٧،٥٠ درجة شرقًا. وبه قرابة ٤٠ شجرة وبعض السلم والعوسج والضال. وهو يبعد مسافة ٥ كم جنوبًا عن طريق الرياض- الدمام القديم».

وفي نهاية الكتاب نجد ثبتًا للمصطلحات الواردة في الكتاب، وفهرسًا بأسماء الأنواع والفصائل، إضافة إلى رصد النباتات التي ورد ذكرها عرضًا في الكتاب. ولعل المثير هنا هو أن كثيرًا من المصطلحات وتعريفاتها تنتمي إلى المفردات العربية القديمة. وبغض النظر عن الصحة اللغوية غير المشكوك فيها،

فإن استخدام مفردات موغلة في القدم قد يبعد كثيراً من القراء عن الفهم المطلوب. وقديماً قال النحاة: خطأ مشهور خير من صحيح مهجور، وفي ذلك نظر!! إضافة إلى ذلك فإن بعض التعريفات يفتقر إلى الدقة العلمية الحديثة. ولعل للباحث عذرين: الأول هو ولعه بفصاحة اللغة وبأصولها الأولى، والتي قد تأتي على حساب الدقة؛ والثاني هو أن الباحث لم يتتلمذ لأحدٍ في دراسة علم النبات أو أحد فروعها كالزراعة و البيئة الرعوية. وهذا العذر الثاني ليس انتقاصاً من سعة اطلاع الباحث التي لاشك فيها بقدر ما هو بعدم اعتياده وتآلفه مع المصطلحات الحديثة الدارجة علمياً وبتعريفاتها العلمية الصارمة الدقة. ومع ذلك فإن بعض المصطلحات وتعريفاتها تزخر بمنافع ثرية تغري القارئ الموضوعي المختص في أن يعدّل أو يصحح بعض ما اعتاد من المصطلحات غير الفصيحة أو الأجنبية.

ولاشك أنه من الأجدى أن نطرح بعض الأمثلة ونتحاور معها؛ فمن ذلك تعريف الباحث للبقول بأنها: «هي النباتات التي لا يبقى لها أرومة بعدما ترعى، ويمكن القول بأنها حولية». بينما المعتاد أن البقوليات هي النباتات التي تنتمي إلى العائلة البقولية. وجملة القول إنها: «ذات مدلول مطاط يندر استخدامه في تعريفات اللغة العلمية الدقيقة التحديد».ونجد في تعريف مصطلح (الشجر) بأنه: «من النبات ما قام وسما بنفسه دقّ أو جلّ، قاوم الشتاء أو عجز عنه». وهذا تركيب لغوي موغل في القدم!! وهو تعريف ينطبق على نباتات عشبية كثيرة كالقمح والبرسيم والفول، فهل نسمي تلك النباتات العشبية شجرا؟ ثم ما الفائدة العلمية المجتناة من قوله:«..قاوم الشتاء أو عجز عنه» ؟ وكذلك فقد عرَّف الباحث العشب، بأنه: «الرطب من البقول البرية ينبت في الربيع». هل يعني ذلك أن النبات العشبي الذي ينبت في فصل من السنة غير الربيع ليس عشباً؟ ثم ماذا توضح كلمة الرطب؟ ومن أمثلة ولع المؤلف بفصاحة المفردة ذكرُهُ مصطلح (ذكور البقول) معرفًا إياه بأنه:«الذي لا يصلح للأكل لمرارته وخشونته». وفي علوم المراعي نعرف أن النباتات من هذه الناحية تتدرج من عالية الاستساغة إلى غير مستساغة أو سامة ..إلخ، وهي مصطلحات عربية، وأقرب إلى الفهم في الوقت الحاضر.

الخزامى

وكما ألمحت سلفًا فهناك مصطلحات في الكتاب تمتلك الدقة في الوصف، وقد تبز المصطلح الحديث في ذلك أو تساويه، ولكنها تتفوق عليه فصاحة، ومنها: الأرومة، اللثأ، الهدب، العير، الشرس، السنفة. وبعض هذه المصطلحات نجد أن مقابلها في اللغة العلمية الحديثة مصطلح أجنبي أو مصطلح عربي ركيك، وهذا ينبهنا إلى أهمية البحث في أصول المفردات كي نقتطف منها ما نحتاج إليه.

في الختام يمكن القول: إن الكتاب شائق وماتع وذو فوائد جمة في مجاله، وهو أيضاً متفرد في موضوعه من حيث إنه يبحث في أمات الكتب، وفي الشعر الجاهلي عن الأصل الفصيح للاسم، ومن ثم يربط بين الأسماء الفصحى ومسمياتها بالوصف الظاهري الدقيق، والصور التوضيحية، مضافًا إليها الاسم العلمي.

الحضارة في المفهوم الإسلامي

تعقيباً على مقالة محمود عكام:

الإسلام والغرب والتلاقي الحضاري

في مقالة قيمة بعنوان: «الحضارة في المفهوم الإسلامي» للأستاذ محمود عكام نشرت في العدد (٢٧٩) من مجلة الفيصل الغراء، نرى أن الحضارة مصطلح جديد قديم، أو هي حضور ووجود من خلال ممارسة لمنهاج إنساني الموضوع، رباني المصدر، يستوعب الإنسان فرداً؛ عقلاً وقلباً وسلوكاً، والناس جماعة بتمام وكمال ومواءمة بين الزمان والمكان، وتوازن بين الفرد والجماعة، لتصبح الممارسة في غاية مناسبة على المسارين الدنيوي والأخروي.

ولعل معرفة الأستاذ العكام المباشرة بأوربا مع تعرّفه العلمي جوانب هذه الحضارة هي التي أنتجت أفكاراً لها حضورها على مستوى آفاق الحياة المعاصرة.

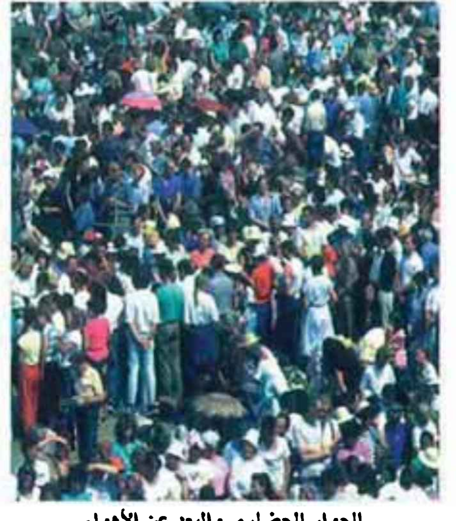
يذهب الأستاذ العكام إلى أن منهاج الإسلام غطى العقل بوظيفة العلم الذي يشكل القاعدة النظرية التأسيسية لكل فعل إنساني؛ ودعا المنهاج إلى إنشاء العمل الصالح الذي هو العنوان الكبير لطبيعة الحضارة.

ويمكن القول: إن من أسباب انهيار الأمة عدم دقتها في كلامها، وتضييعها عباراتها فيما لا يعود عليها بالتحضُر، فالأصل كلمة، وهي أهم معابر الحضارة.

ويتسم منهاج الإسلام بالتوازن العظيم بين الفرد والجماعة، فحق الفرد مصون دماً وعرضاً ومالاً؛ وأما الجماعة فتقوم على التعاون والإيثار والتنظيم بين المادة والمعنى.

وجاءت حضارة الإسلام لترسم للإنسان غاية هي العبادة والحضارات لا تتصارع، وإنما هي حضارة واحدة في النهاية..

وأضيف إلى ما ذكره الأستاذ العكام فأقول: إن الحضارة - بوصفها ثمرة تفاعل بين الإنسان والكون والحياة - تصلح أو تتردد بمقدار ما يكون ذلك التفاعل سديداً أو غير سديد، ومن مقومات الحضارة: كل مبدأ يكفل الضرورات المادية والروحية.



الحوار الحضاري والبعد عن الأهواء

وأوضح القرآن الكريم أن الميراث الحضاري هو لعباد الله الصالحين، كما أخبر أن حضارات سادت ثم بادت بسبب بُعدها عن قيم السماء.

ويُعدّ الجهل من أهم أسباب سقوط الحضارة، فعنه يولد الظلم.

كما أن المبادئ العلمانية التي هي من مفرزات الجدلية الماحكة (الدياليكتية) أدت إلى وقف نشاط الحضارة الإسلامية، وكذلك وجود الأفكار الإلحادية المبثوثة في كتب وصحف وشاشات معادية تشكل هدماً للحضارة الإسلامية.

وإذا كانت ثمة أفكار عن صدام الحضارات تلوح في الآفاق، فإنه يتعين علينا البحث عن حلول بديلة.. ولعل الحوار يعبِّر عن اتجاه سام بالمجتمعات الإنسانية بعيداً عن الأهواء، إلى جانب أنه من أرقى وسائل إقرار الحق والمساواة.

والإسلام من منطلق دعوته لم يضمر كيداً لأحد، وإنما أراد لعالميته أن تحافظ على مكانتها.. ولعل دعوة القرآن الكريم إلى عدّ إبراهيم عليه السلام رمزاً مشتركاً

لقضية الإيمان، من أعمق دلالات الرغبة الصادقة في البعد بالحوار الحضاري عن أجواء العصبية، وربنا عز وجل عندما نوّع الأجناس طلب منها أن تتآلف وصولاً إلى تحقيق تنمية حضارية عبر التفاعل المفيد بين بني البشر.

والقرآن الكريم يعد تمايز الناس - لوناً وعرقاً ولغة - آية من آيات الله، والأفكار لا تترسخ عن طريق الإكراه، من هنا يحث الإسلام أتباعه على التعامل مع بقية الأمم لبناء حضارة تسعى إلى تحرير الإنسان.

أخيرا أقول: إن مستقبل الحضارة الإسلامية رهين بقوة ثقافتها في العالم الذي يعاني من ضآلة المبادئ الأخلاقية، وإن تقدم المسلمين وقف على عودتهم إلى الدين ليكون بمقدورهم الثبات أمام التحديات، والمسلم لا يكون صاحب رسالة إلا عندما يعطي الصورة المشرقة لهذا الدين العظيم.

علاء الدين حسن
الحسكة - سورية.
ص.ب: ١٩٧

مختارات البارودي في طبعة البابطين الجديدة وبعض الملاحظات العلمية

قرأت في مجلة الفيصل الغراء في العدد (٢٦٩) الصادر في شهر ذي القعدة ١٤١٩هـ (مارس/آذار ١٩٩٩م) مقالاً ليوسف عزالدين بعنوان: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، وقد أعجبت بالملاحظات المنهجية التي أوردها الكاتب، وإن كانت هناك ملاحظة أخرى أود أن أضيفها هنا، وهي إغفال الموسوعة لعدد من أعلام الشعراء في الأدب العربي والإسلامي أمثال: عمر أبوريشة، وعمر بهاء الأميري، وعلي أحمد باكثير، مع شهرتهم، إضافة إلى وجود رابطة تعنى بالأدب الإسلامي في مدينة الرياض، ولها مجلة تصدر بهذا الخصوص وهي مجلة الأدب الإسلامي، فضلاً عن سلسلة شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث للأستاذين الجدع والجرار، ولقد أحسن الكاتب وأجاد، وقوّم أداء الموسوعة بأسلوب علمي، فجزاه الله خيراً.

وقد دفعني هذا إلى كتابة مقال حول مختارات البارودي في طبعتها الجديدة؛ لأن مؤسسة البابطين قد قامت بنشر مختارات البارودي بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، وذلك بعد أن عهدت إلى الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة بإصدار المختارات، ولا يسعنا إلا أن نشكر للمؤسسة جهدها المبارك في نشر الثقافة والتراث، ونتمنى أن تكثر مثل هذه المؤسسات في عالمنا العربي الكبير، كما أن الواجب يحتم علينا بصفتنا باحثين وقراء أن نقدم النصح فيما ينشر سعياً نحو الأفضل إن شاء الله.


محمود سامي البارودي

وأود في البداية أن أؤكد أن صلتي وتعلقي بمختارات البارودي كانا منذ دراستي في المرحلة الإعدادية، فقد كانت مفتاحي لمعرفة كنوز الشعر العربي، وصاحبني هذا الاهتمام بها حتى مرحلة الدكتوراه، حيث اخترت موضوعا لرسالتي في البلاغة والنقد له صلة بمختارات البارودي، وكان تحت عنوان: «التشبيه في مختارات البارودي دراسة تحليلية» وقد تفضل بالإشراف على رسالتي الدكتور عبداللطيف عبدالنبي خليف نائب مدير

جامعة الأزهر الشريف والأستاذ بجامعة أم القرى، وكان من ثمار دراستي أن تعمقت معرفتي بالبارودي ومختاراته أكثر فأكثر، وقد جمعت دواوين شعراء المختارات، وتعرفت كل بيت فيها. وكنت أرى أنها بحاجة إلى التحقيق من جديد، وذكرت ذلك في مقدمة رسالتي وخاتمتها.

أسباب النشر الجديد لمختارات البارودي ومنهج التحقيق

حول هذا الموضوع يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة - رحمه الله - في مقدمته لمختارات البارودي (٢٦/١-٢٧): «وحين طرح مجلس أمناء جائزة عبدالعزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعري فكرة الاحتفاء بالبارودي في الحفل السنوي الثالث لتوزيع الجائزة (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢م)، عهد إليّ المجلس القيام بإصدار هذا العمل الضخم، الذي يستغرق إنجازه سنوات طويلة، في مدى أشهر معدودة، فوضعت لذلك خطة عمل ترتكز على النواحي التالية:

أولاً: تحقيق كل شعر المختارات الذي يقارب أربعين ألف بيت بمقابلته على الدواوين التي حققت ونشرت، أو على المصادر الموثوق بها وإثبات كل ظواهر الحذف أو التغيير أو التعديل أو التقديم أو التأخير، ورصد كل الروايات التي تؤدي إلى تغيير كلي أو جزئي.

ثانيًا: ضبط كل النصوص ضبطًا تامًا وتحديد الاحتمالات فيها أو بحورها.

ثالثًا: تقويم النصوص بما ينفي عنها الخطأ في التأليف أو الطباعة وقد حاولنا ما وسعنا الجهد الحصول على مخطوطة المختارات دون جدوى، فاعتمدنا على النسخة المطبوعة.

رابعًا: تقديم ترجمة وافية لكل الشعراء الذين شملتهم المختارات وكانت تراجمهم شديدة الاختصار.

وقد عهدت إلى فريق من الباحثين من تلاميذي لإنجاز هذا المشروع الكبير، في الوقت المحدد اليسير، وهم الدكتور السيد إبراهيم محمد، والدكتور بدر أحمد ضيف، والدكتور حسن عباس، والسيدان أيمن عياد وجمال غباشي، وكنت معهم يدًا بيد في التحقيق ومراجعة كل ما تم».

وقد قام الأساتذة المحققون بتحقيق المختارات وفق الآتي:

ج١ حققه: د. السيد إبراهيم محمد، وتاريخ نشره ١٩٩٢م.

ج٢ حققه: د. السيد إبراهيم محمد، وتاريخ نشره ١٩٩٣م.

ج٣ حققه: د.بدر ضيف، أيمن عياد. وتاريخ نشره ١٩٩٤م.

ج٤ حققه: د. جمال غباشي غنيم، وتاريخ نشره ١٩٩٤م.

ولا شك أن الأساتذة المحققين قد بذلوا جهودهم في إخراج مختارات البارودي في أحسن صورة، وهم مشكورون على ما قاموا به، بيد أن هنالك بعض الملاحظات المنهجية حول عملية التحقيق ذاتها، نوجزها في الآتي:



محمد مصطفى هدارة

الملاحظة الأولى: اعتماد دواوين غير محققة في عملية التحقيق العلمي مع وجود المحقق، فقد ذكر الأستاذ محمد مصطفى هدارة في (ص٢٦) الحاشية (٢) ما يلي: «حاولنا قدر الطاقة أن نحصل على أفضل الدواوين المحققة، ولكن المكتبات العامة والخاصة لم تسعفنا ببعضها فتمت المقابلة أحيانًا على طبعات قديمة، أو على مصادر أخرى لم نظفر فيها بالديوان المطبوع أو على الديوان المخطوط نفسه، كما حدث في شعر ابن نباتة السعدي والغزي». ومثل هذا الكلام يثير التساؤلات التالية:

- كيف لا يظفر الدكتور هدارة بديوان ابن نباتة السعدي وهو مطبوع ومحقق، حققه عبدالأمير مهدي حبيب الطائي، ونشرته وزارة الإعلام

العراقية، ضمن سلسلة كتب التراث رقم ٥٦ بغداد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م. وهو أصلاً رسالة ماجستير للمحقق في إحدى الجامعات المصرية.

ـ ديوان التهامي ورد ذكره في مختارات البارودي (١/١٣٠) اعتمد طبعة غير محققة وهي مطبعة الأهرام بالإسكندرية ١٨٩٣م، علماً أن هنالك طبعة جديدة للديوان بتحقيق الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع، نشر مكتبة المعارف بالرياض الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. وهو رسالة دكتوراة للمحقق بجامعة الأزهر.

ـ ورد في مختارات البارودي (١/١٨٦) إحالة إلى ديوان ابن سنان الخفاجي طبعة المطبعة الأنسية بيروت، علماً أن ديوان ابن سنان طبع طبعة معاصرة محققة حققه الدكتور عبدالرزاق حسين ونشره المكتب الإسلامي، وصدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

ـ ورد في مختارات البارودي (١/٢١٣) إحالة إلى ديوان الأرجاني، صححه أحمد الأزهري، مطبعة جريدة بيروت. علماً أن هنالك طبعة جديدة بتحقيق محمد قاسم مصطفى ومنشورات وزارة الإعلام العراقية ضمن كتب التراث رقم (٧٨) عام ١٩٧٩م.

ـ ورد في مختارات البارودي (١/٣٣) إحالة إلى ديوان بشار بن برد، كما ورد في المختارات (١/٣٧) إحالة إلى ديوان أبي نواس، ولم يذكر المحقق أية بيانات عن ديوانيهما، علما أن هنالك أكثر من تحقيق لكلا الديوانين، وأكثر من طبعة.

ولا شك أن العودة إلى دواوين غير محققة مع وجود المحقق منها تعد خللاً منهجيا في عملية التحقيق العلمي؛ لأن الدواوين التي لم تحقق لا تخلو من أخطاء كثيرة من طباعة وتصحيف وتحريف وغير ذلك.

الملاحظة الثانية: لا توجد تراجم للممدوحين والأعلام ـ باستثناء الشعراء المختار لهم ـ مع أن التعريف بالغامض من الأعلام ضروري في عملية التحقيق العلمي، يقول الأستاذ عبدالسلام هارون: «ويقتضي التعليق أيضا: التعريف بالأعلام الغامضة أو المشتبهة»(١)، وقد تكون هنالك أخطاء في أسماء الأعلام فينبغي تصحيحها. ولكن المحققين أغفلوا ذلك.



عمر أبو ريشة

الملاحظة الثالثة: لا توجد فهارس علمية للمختارات تسهل العودة للباحثين والقراء للتعرف على ما يريدون من موضوعات تضمنتها المختارات. والفهارس العلمية لكتب التراث جزء من عملية التحقيق العلمي وعادة تتضمن: الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأمثال العربية وأسماء الأعلام والبلدان والقبائل، وموضوعات العلوم، وغير ذلك مما هو ضروري في هذا الإطار. وقد يغفل بعض المحققين بعض الفهارس، ويقومون بما هو ضروري منها، وكتاب مثل مختارات البارودي كان ينبغي على الأقل أن تكون فيه فهارس للأشعار؛ لأنها أساس المختارات وموضوعها، وأخرى للأعلام وذلك لكثرة ورودها في المختارات.

الملاحظة الرابعة: لا يوجد ذكر لمراكز التحقيق في آخر مختارات البارودي مع أن المحققين أحالوا إلى عدد من المصادر العلمية خلال تحقيقهم لمختارات البارودي.

آمل أن يتقبل الإخوة المحققون هذه الملاحظات المنهجية، وأن يستفيد منها المطلعون بقضايا التراث، فإن أبسط ما نقوم به إزاء تراثنا الأصيل أن نقدمه بصورة تتناسب مع ما وصل إليه عصرنا من تقدم في منهجية البحث العلمي عبر موضوعاته المختلفة، والله ولي التوفيق.

د. محمد رفعت زنجير

جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا ـ

كلية التربية ـ فرع أبوظبي

الملف الثقافي

متحف لتاريخ الحرمين الشريفين

إعلان أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية

إيقاف بيع «موسوعة الطفل» بمصر

سرقة كتاب عمره (٤٥٧) عامًا

رحيل الروائي هاني الراهب والشاعر حسين المحضار والصحفي جلال عيسى

اليونسكو تتبنى شعار «المرأة تصنع الإعلام»

احتفالات بذكرى ابن رشد وبريفير وتنسي وليامز



خاتمة المطاف:

أطباء ولكن أدباء

الأمير سلطان يتبنى إعادة تأثيث قصر شبرا



الأمير سلطان بن عبد العزيز

تكفل صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام بإعادة تأثيث قصر شبرا التاريخي بالطائف على نفقته الخاصة، وسيفتح القصر أبوابه للزوار صيف هذا العام بوصفه متحفاً تراثياً. ومن تاريخ هذا القصر أنه قد استغرق ثلاث سنوات في بنائه (١٣٢٣ ـ ١٣٢٦هـ)، وكان أول ساكنيه هو علي بن عبدالله بن عون باشا باني القصر الذي سكنه مدة عام واحد، ثم سكنه السلطان وحيد الدين محمد السادس، وسكنه الملك عبدالعزيز رحمه الله وولد له فيه عدد من أنجاله، واتخذه الملك فيصل رحمه الله مقراً لرئاسة مجلس الوزراء خلال الصيف.

ويتكون قصر شبرا من أربعة أدوار، وبه ١٥٢ غرفة، وهو مبني على الطراز المعماري الروماني، مزيناً بالرواشين والنوافذ الحجازية.

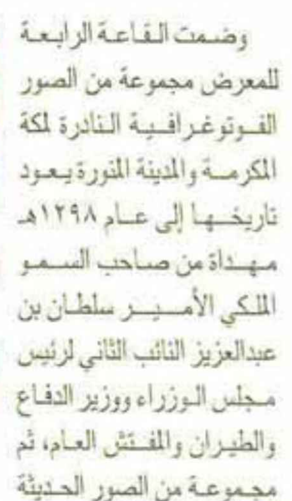
متحف سعودي لتاريخ الحرمين الشريفين

دشن صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة «متحف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة» الذي أنشأته الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام على مساحة بلغت ١٢٠٠ متر مربع.

ويضم المتحف سبع قاعات للعرض، تضم القاعة الأولى مجسماً حديثاً للمسجد الحرام وصوراً توضح مراحل أعمال التوسعة، التي شهدها الحرمان الشريفان خلال العهد السعودي وحجمها.

أما القاعة الثانية التي أطلق عليها اسم «قاعة المسجد الحرام» فتضم مجموعة من القطع الأثرية الثمينة والنقوش الكتابية، ومن أبرز مقتنياتها «سلم الكعبة» الذي يعود تاريخه إلى ١٨٠ سنة مضت، وهو مصنوع من خشب الساج المرصع بالنحاس المذهب.

ثم تأتي القاعة الثالثة واسمها «قاعة الكعبة المشرفة»، ومن أبرز مقتنياتها أحد أعمدة الكعبة المشرفة يرجع تاريخه لعمارة عبدالله بن الزبير في القرن الأول الهجري، وباب الكعبة المشرفة المصنوع في عهد الملك عبدالعزيز وهو مرصع بالذهب والفضة، وصنع في عام ١٩٤٤م.





الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز

وضمت القاعة الرابعة للمعرض مجموعة من الصور الفوتوغرافية النادرة لمكة المكرمة والمدينة المنورة يعود تاريخها إلى عام ١٢٩٨هـ مهداة من صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، ثم مجموعة من الصور الحديثة التي تبين أعمال التوسعة الجديدة للحرمين الشريفين في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله.

وخصصت القاعة الخامسة للمخطوطات القديمة والنادرة لمكتبتي الحرمين الشريفين، بينما حوت القاعة السادسة مجسماً حديثاً للمسجد النبوي الشريف وباباً لأحد مداخل المسجد النبوي الشريف من التوسعة السعودية الأولى، وباباً للمنبر صنع في عهد السلطان مراد خان في القرن العاشر الهجري وغير ذلك من المقتنيات.

وجاءت القاعة السابعة خاصة ببئر زمزم حيث تعرض رقبة لبئر زمزم صنعت من الحديد المشغول عام ١٩١٦م، ومجموعة من الأواني تشمل أباريق وأدلية وأدوات أخرى استخدمت في السقيا واستخراج ماء زمزم من البئر، إضافة إلى بعض النقوش الكتابية والصور القديمة والحديثة لبئر زمزم.

وقد روعي في تصميم هذا المتحف وتنفيذه تمكين الزائر من المرور على كل الأقسام بسهولة ويسر، كما وضعت لوحات كتب عليها وصف لكل المعروضات باللغتين العربية والإنجليزية وضعت بالقرب من المعروضات، كما أن اختيار موقع المتحف بالقرب من مصنع كسوة الكعبة المشرفة روعي فيه تسهيل زيارته لضيوف الرحمن من زوار ومعتمرين وحجاج.

إعلان أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية هذا العام

في حفل أقامته مؤسسة الملك فيصل الخيرية في مساء الثلاثاء ٩ ذي القعدة الماضي، ضم كثيراً من العلماء والمفكرين والمثقفين والإعلاميين، أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل المدير العام للمؤسسة ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية

أسماء الفائزين بالجائزة في فروعها الأربعة «الدراسات الإسلامية، والأدب العربي، والطب، والعلوم»، حيث سبق أن أعلن في شهر رمضان الماضي فوز الجامع الأزهر بجائزة خدمة الإسلام.

وقد قدم سموه الشكر إلى حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز لما توليه من اهتمام بالمؤسسة، ودعمها المتصل للعلم والعلماء، كما قدم تهنئته إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية في هذا العام.



الأمير خالد الفيصل

وتلا الدكتور عبدالله العثيمين أسماء الفائزين بالجائزة في الفروع الخمسة، وحيثيات حصولهم عليها، حيث نال جائزة الدراسات الإسلامية وموضوعها «الدراسات التي تناولت انتشار الإسلام في إقليم أو أكثر خارج العالم العربي وأثر ذلك الانتشار حضارياً» الأستاذ الدكتور محمد مهر علي البنغالي الجنسية، وذلك عن كتابه «تاريخ المسلمين في البنغال» المكون من أربعة أجزاء، والمكتوب باللغة الإنجليزية، وقد اتصفت دراسته بالأصالة والموضوعية واتباع المنهج العلمي السليم في النقد والتحليل، وناصف الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب السوداني الجنسية، والأستاذ عزالدين إسماعيل عبدالغني المصري الجنسية جائزة الأدب العربي وموضوعها «الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياه»، ومن حيثيات حصول الدكتور عبدالله الطيب على هذه الجائزة: «تقديراً لجهوده العلمية في مجال الجائزة خاصة، وإسهاماته الأدبية الكثيرة عامة، فهو محيط بالشعر العربي وتاريخه وقضاياه إحاطة قلّ أن تتوافر لكثير من الدارسين. وقد تميزت مؤلفاته بطابع أصيل بربطها بأمهات الكتب في الأدب العربي ونقده». بينما نالها الدكتور عزالدين إسماعيل لكونه «من أبرز النقاد المعاصرين، وأقدرهم على معالجة المستجد من النظريات النقدية وربطها بالموروث النقدي. وله في ذلك إسهامات متميزة وأثر واضح لدى المتابعين، كما أن آراءه النقدية تتصف بوسطية منهجية وفكرية متوازنة».

وتم منح جائزة الملك فيصل العالمية للطب وموضوعها «الشيخوخة» للأستاذة الدكتورة سينثيا جين كينيون الأمريكية الجنسية «لتميز بحوثها بالأصالة والغزارة حيث نجحت في التعرف إلى جينين لهما علاقة بالشيخوخة، وهما جين داف -٢، وجين داف -١٦، وهما من الجينات الخاصة بإيقاف النمو».

ونال جائزة العلوم وموضوعها «علم الحياة - البيولوجيا» مناصفة كل من الأستاذ الدكتور إدوارد أوزبورن ولسن، والدكتور جون كريغ فنتر، وهما أمريكيان، فللدكتور ولسن «اكتشافات عظيمة في أربعة ميادين: أولها جغرافية الجزر الحيوية المفسرة لعدد الأنواع التي تستطيع منطقة ما أن تحويها، وهذه النظرية من أسس طرائق الحفاظ على البيئة. وثانيها الكشف عن تطور السلوك الاجتماعي وإحداث علم جديد هو علم الحياة الاجتماعي الذي ينشد كشف الأسس الحيوية لسلوك الإنسان والحيوان. وثالثها ميدان التعددية الحيوية الذي يمكن من فهم تعدد الأنواع ووظيفتها في البيئة. ورابعها ميدان جمع العلوم الاجتماعية مع العلوم الطبيعية في كلٍ متناسق»، بينما أبدع الدكتور فنتر «طريقة جديدة في سلسلة المورثات أدت إلى إسراع عظيم في كشف العلماء للمورثات ومجموعات المورثات الوظيفية، كما أدت تحسيناته العلمية إلى طريقة آلية سريعة في قراءة سلسلة المورثات الإنسانية ومورثات الأنواع الأخرى. وقد أدى انتقاؤه لأحياء تجري سلسلة مورثاتها إلى فهم واسع للتطور الحيوي، وهي تعد بالحصول على أساليب جديدة في معالجة الأمراض».



عبدالله الطيب

وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده الأمير خالد الفيصل عقب إعلان أسماء الفائزين بالجائزة، ذكر سموه أن عدم اهتمام الإعلام الغربي بالجائزة بما يتناسب ومكانتها يعود إلى سببين الأول عدم اهتمام الغرب عموماً بالأعمال الكبيرة للأمة العربية، بينما يتم إبراز السلبيات وتضخيمها، والثاني عدم إتقان العرب والمسلمين فن نقل المعلومة، بينما استطاعت إسرائيل أن تتغلغل في الاقتصاد والإعلام في الغرب، وأن توجههما فيما يخدم أهدافها.

وعن مدلولات حصول بعض الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية على جائزة نوبل، قال الأمير خالد الفيصل: إن ذلك دليل على حيادية جائزة الملك فيصل، ونزاهة العلماء أعضاء لجان الاختيار، كما أنه دليل في الوقت نفسه على مصداقية جائزة نوبل.

ولم يستبعد سموه رفع القيمة المادية للجائزة إذا رأى مجلس الأمناء وهيئة الجائزة ذلك، مؤكداً أن الأهم هو قيمتها المعنوية، وذكر أن مركز الفيصل مشروع استثماري يرمي إلى مضاعفة ما

تنفقه مؤسسة الملك فيصل الخيرية في ميادين الخير.



سينثيا جين كينيون

وأشار إلى أن مؤسسة الملك فيصل الخيرية لا تشترط على الحاصلين على منحها الدراسية العودة إلى العمل بالمملكة، إذ إن ٩٠٪ منهم من الدول العربية والإسلامية الأخرى، وإنما هناك شرط هو أدبي وهو أن يعودوا إلى بلادهم الفقيرة علمياً وتقنياً ليساهموا في تقدمها.

ورحب سموه بأن يكون هناك جائزة للإعلام إذا وجد التصور المتكامل الذي يقتنع به مجلس الأمناء وهيئة الجائزة، وأشار إلى أنه ليس هناك ما يمنع أن تفوز هيئة أو مؤسسة بإحدى جوائز الملك فيصل العالمية، كما فاز الجامع الأزهر هذا العام بجائزة خدمة الإسلام.

وتحدد أن تكون موضوعات الجائزة للعام القادم «١٤٢١هـ/٢٠٠١م» كما يلي:

- الدراسات الإسلامية: «الدراسات التي عنيت بكتب الفتاوى والنوازل».
- الأدب العربي: الدراسات التي تناولت فنون النثر الأدبي الحديث.
- الطب: زراعة الأعضاء.
- العلوم: الفيزياء.

اختتام النشاط الثقافي للجنادرية بأمسية شعرية للأمير خالد الفيصل

اختتم صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل فعاليات النشاط الثقافي للمهرجان الوطني للتراث والثقافة «الجنادرية» في دورته الخامسة عشرة بأمسية شعرية شهدت حضوراً من المثقفين والمفكرين ضيوف المهرجان ومن محبي الشعر عموماً، وتم نقلها مباشرة من خلال عدد من القنوات الفضائية، وذلك في مساء السبت ٦ ذي القعدة الماضي.

وقد تعددت أغراض الشعر الذي ألقاه سموه، وكانت كما قال تجوالا في ذات الوطن وتحليقاً في وجدانه ووقوفاً على رموزه وصحرائه ومدنه وشطآنه.

واستهل الأمير خالد الفيصل أمسيته بتوجيه الشكر إلى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، فقال: «إن اختياري لأمسية الشعر في هذا المهرجان الثقافي الكبير من قبل عمي صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ما هو إلا وسام يضيفه سموه إلى وسام اختيار قصيدتي «أوبريت التوحيد» في مهرجان سابق.. فتكريم الإنسان باختياره من أجل الشعر والأدب والثقافة لا لرفعة منصب أو ثراء مال يبعث إحساساً رفيعاً بالنشوة لا يدركه إلا من كتب قصيدة فذاعت على كل لسان، أو من أصدر كتاباً فتناولته القلوب قبل الأيدي أو من رسم لوحة فتعلقت بها عيون الخلق إعجاباً».

وتنقل الأمير خالد الفيصل في ربوع الوطن، فتساءل بداية: ما هو الوطن؟ هل هو دين وعقيدة؟ أم أرض وحدود؟ أم أنه ذات أكبر من المكان وأبعد من الزمان؟ ثم مضى في تساؤلاته إلى أن يقول: أليس الوطن هو كل سعودي؟ وكل سعودي هو الوطن؟

وعن نجد وسمائها وترابها وليلها أورد أبياتاً كثيرة لاقت استحسان الحضور، ومن ذلك قوله:

تستاهل الحب نجديه
رفيعة الشان عجّابه
العين ياعين بحريه
لقلوب الأحباب نهّابه

وعن الساحل الشرقي وعلاقته به، أوضح سموه تأثره بخاله الأمير سعود بن جلوي الذي كانت تهتز له قلوب الرجال وجلاً، وكان حاكماً للمنطقة الشرقية، وأورد شعراً كان قد كتبه وهو يلبي دعوة صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز أمير المنطقة الشرقية لإلقاء كلمة في حفل جائزة سموه للتفوق العلمي.

وتذكر الأمير الشاعر ذكريات الصبا في الساحل الغربي الذي انتقل إليه وهو في سن السابعة، ثم أورد بعضاً مما قاله في هوى الطائف منذ زمان الصبا، واستمر سموه في تجواله في ربوع الوطن ليصل إلى تبوك في شمال الوطن، التي قال فيها شعراً، وقد جاء إليها بمناسبة حضور توزيع جائزة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز.

وتحدث سموه عن الملك عبدالعزيز - موحد الجزيرة -، وألقى قصيدة تناولت جهاده - يرحمه الله - لتوحيد البلاد واختتم الأمسية بكلمة مناسبة للمواطن ليكون رجل الأمن الأول وخير سفير لبلاده.

وكان في استقبال الأمير خالد الفيصل عند قدومه كل من صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالله بن عبدالعزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن متعب بن عبدالله، والدكتور عبدالرحمن السبيت.

ندوة «تاريخ الجزيرة العربية في العصر الأموي»

نظم قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب في جامعة الملك سعود الندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي حملت عنوان «الجزيرة العربية في العصر الأموي» وذلك في الفترة من ٧ إلى ٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ «١٣ إلى ١٥ فبراير/شباط ٢٠٠٠م».

وتضمنت الندوة التي افتتحها عميد كلية الآداب د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق وترأس لجنتها التحضيرية د. محمد بن سعيد الشعفي تسع جلسات شارك فيها عدد كبير من الباحثين، فقدم د. عبدالعزيز الهلابي بحثاً بعنوان «الأحوال العامة في الجزيرة العربية عند قيام الدولة الأموية» تطرق فيه إلى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية، وما أحدثته الدعوة الإسلامية فيها من تغييرات، وكان عنوان بحث الدكتور أكرم ضياء العمري «الفقهاء والسلطة: موقف فقهاء المدينة من الخلافة الأموية» تناول فيه دور الفقهاء من إرهاصات قيام الدولة الأموية مشيراً إلى أهمية دراسة دور النخبة المثقفة وتأثيرها في الرأي العام، وعن «علاقة الأمويين ببلاد الشام» جاء بحث د. محمد زيود الذي ناقش علاقة الأمويين ببلاد الشام قبل الإسلام وبعده، وتناول د. عبدالله الدوسري «الوضع السياسي في شرق الجزيرة العربية في العهد الأموي»، بينما تطرق د. عبدالله بن عثمان الخراشي إلى «خلافة معاوية بن يزيد وانعكاسها على بيعة ابن الزبير في الحجاز». وقدمت د. أمينة البيطار بحثاً عن «الأنصار في العهد الأموي»، معرفة الأنصار، متناولة ما جرى لهم في وقعة الحرة.

وألقى الدكتور إبراهيم بوتشيش الأضواء على «علاقات الجزيرة العربية بشبه القارة الهندية الناتجة عن الفتوحات الأموية»، بينما تناول د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي «جهود مهاجري الجزيرة العربية في فتوح المغرب والأندلس»، وتمحور بحث د. سعيد الغيلاني حول «علاقة عمان بالدولة الأموية».

وعن «مصادر التموين الغذائي لمكة خلال العصر الأموي» كان بحث الدكتور ضيف الله الزهراني، وتناول د. عبدالعزيز الهلابي «الأسواق في مكة حتى نهاية العهد الأموي»، وتركز بحث الدكتور صالح الوشمي - رحمه الله - الذي ألقاه ابنه عبدالله الوشمي حول نشأة بلدة ضرية في منطقة القصيم ووضعها في العصر الإسلامي وفي عهد الخلفاء الراشدين ثم في العهد الأموي، وتطرق الدكتور إبراهيم الجميح إلى «العطور وتجارتها في الحجاز في العصر الأموي»، وكان بحث الدكتور غيثان بن جريس عن «بلاد السراة في العصر الأموي» وهو دراسة عن بعض مظاهر الحضارة فيها، وأفرد د. عبدالله العسكر بحثه عن «سكان اليمامة في العصر الأموي»، وجاء بحث د. عبدالله الزيدان عن «آل عمرو بن العاص في الطائف» مقدماً نموذجاً من الهجرة العائدة.



أكرم ضياء العمري

وتناول د. نبيل قريسة «الدور التاريخي والحضاري للجزيرة العربية في أحداث العصر الأموي»، واستقرأ د. عبدالرحمن الشجاع «أحوال اليمن العلمية في عهد بني أمية»، بينما ناقش بحث د. حصة الجبر «دور العلماء العمانيين في الحياة العلمية في القرنين الأول والثاني الهجريين داخل عمان وخارجها»، وقدم د. سعد البشري «لمحات تاريخية من جنوب غرب المملكة خلال العصر الأموي».

وعن «علماء المدينة في العصر الأموي» جاء بحث د. عزالدين موسى، متخذاً طبقات خليفة بن خياط نموذجاً، وقدم د. عبدالعزيز العمري بحثاً عن «أمهات المؤمنين وأثرهن في المجتمع المدني في عهد معاوية»، وألقى د. ناصر الرشيد الضوء على «الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي»، وتناول د. أحمد الزيلعي «الشاعر أبا دهبل الجمحي في ميميته التهامية»، وألقى د. محمد الثنيان بحث د. سعد الراشد الذي يدور حول «الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية»، وتناولت د. إلهام البابطين «المنشآت المائية في مكة المكرمة في العصر الأموي»، وجاء بحث د. علي غبان عن «الفخار الأموي في شمال غرب المملكة»، وحمل بحث د. خليل المعيقل عنوان «حجر اليمامة» تناول فيه مصادر البحث في تاريخ حجر اليمامة، والوضع الإداري في العصر الأموي، وتتبع د. فرحات طاشكندي «توسعة المسجد النبوي في العصر الأموي».

وترأس جلسات هذه الندوة الدكاترة عبدالمحسن المدعج عضو مجلس الأمة الكويتي وعبدالله بن محمد السيف وعمر العقيلي وأحمد ابن عمر الزيلعي ومحمد بن فارس الجميل، وضيف الله الزهراني وسليمان الرحيلي وخليل المعيقل وإبراهيم الجميح.

وقد تقرر أن تعقد الندوة العالمية الخامسة لدراسة تاريخ الجزيرة العربية بعد عامين «في ذي القعدة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م»، وأن يكون موضوعها «الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي».

كما تقرر استمرار عقد ندوات حول تاريخ الجزيرة العربية بعد ذلك، فتتناول الندوة السادسة «١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م» «الجزيرة العربية من مطلع القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري»، بينما تتناول الندوة العالمية السابعة «١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م» «الجزيرة العربية في منتصف القرن السابع الهجري إلى مجيء العثمانيين».

«التنمية الحضرية في المدن العربية» في ندوة بالرياض

ينظم المعهد العربي لإنماء المدن بالتعاون مع وزارة الشؤون البلدية والقروية بالمملكة العربية السعودية، ندوة عربية متخصصة تتناول موضوع «إستراتيجيات التنمية الحضرية في المدن العربية»، وذلك في الفترة من ٩ إلى ١٢ أبريل/نيسان القادم بمدينة الرياض.

وتنبع أهمية الندوة من كونها ضرورة لتعرف طبيعة الصعوبات التي تواجه تنمية المدن العربية واستنباط أساليب معالجتها والاستفادة من التجارب الأخرى.

اختيار أفضل مئة رواية عربية خلال القرن العشرين



نجيب محفوظ

المشري

أجرى اتحاد الكتاب في مصر استفتاءً موسعاً لاختيار أفضل مئة رواية عربية خلال القرن العشرين.

وكان الاتحاد، الذي يرأسه الشاعر فاروق شوشة، قد كوّن لجنة لاستخلاص نتائج الاستفتاء مكونة من عدد من الأساتذة والأدباء منهم فؤاد قنديل ومحفوظ عبدالرحمن وعبدالتواب يوسف ود. مدحت الجبار.

واسفرت نتائج الاستفتاء عن فوز مصر بـ ٥١ رواية وجاء أبرز كتابها نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي، وعبدالرحمن الشرقاوي، ويوسف إدريس، وطه حسين، وفتحي غانم، وثروت أباظة، وجمال الغيطاني، وإبراهيم أصلان، وغيرهم من أدباء مصر.

وجاءت السعودية بثلاث روايات منها رواية الغيوم ومنابت الشعر للأديب عبدالعزيز مشري، واختارت اللجنة من السودان رواية واحدة هي «موسم الهجرة إلى الشمال» للروائي السوداني الطيب صالح، ثم فلسطين بثماني روايات، ولبنان بست روايات، وسورية بست روايات، والأردن بروايتين، والعراق بثلاث روايات، والكويت بروايتين، ورواية واحدة من البحرين، وهي «الحصار» للكاتبة فوزية رشيد، وروايتان لكل من اليمن وليبيا، وست روايات للجزائر، وروايتان لتونس، وخمس روايات للمغرب.

الفصحى والعامية في الإعلام في مؤتمر بالقاهرة

يقيم مجمع اللغة العربية مؤتمره السنوي بالقاهرة تحت مسمى «الفصحى والعامية في وسائل الإعلام» مدة ١٥ يوماً تبدأ من ٢٨ ذي الحجة الحالي ١٤٢٠هـ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م.

وقال إبراهيم الترزي الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، عن سبب اختيار العامية محوراً لدراسات هذا العام: «إن العامية تستشري وتستفحل وتغزو وسائل الإعلام، لذا قرر المجمع عقد هذا المؤتمر للبحث عن علاج لهذه القضايا التي تهم الوطن العربي وتشكل عناصر هويته».

الذكرى المئوية الثامنة لوفاة ابن رشد



صورة متخيلة لابن رشد

بمناسبة مرور ثمانمئة عام على وفاة الفيلسوف ابن رشد، أصدر المجمع الثقافي في أبوظبي بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مجلدين عن حياة هذا الفيلسوف، يقع المجلد الأول في ٥٢٨ صفحة والثاني في ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير.

تناول المجلد الأول فكر ابن رشد الفلسفي والديني والعلمي من الناحيتين النظرية والعلمية، بينما ناقش المجلد الثاني موضوعين رئيسين هما: ابن رشد قارئاً للإرث اليوناني والعربي، وموضوع الرشدية في العصر الوسيط، وذلك من خلال ٣٠ بحثاً يضمها هذا المجلد.

قام بمراجعة هذه المجلدات د. مقداد عرفة منسية «الجامعة التونسية».

إيقاف بيع (موسوعة الطفل) بمصر

أوقفت الهيئة المصرية العامة للكتاب بيع (موسوعة الطفل) المترجمة حرفيًا عن موسوعة وورلد بوك الأمريكية في اثني عشر مجلداً؛ وذلك بعد تعرضها لانتقادات شديدة من المثقفين المصريين، لما تضمنته من مغالطات وتزوير للتاريخ، فقد جاء في الصفحة ١٣٣ من المجلد الأول «أن القدس عاصمة لإسرائيل»!، وجاء القول أيضًا بأن السد العالي كارثة على مصر!؟.

وقال الروائي عزت القمحاوي: «إن العمل يشكل كارثة في تشكيل وعي الطفل المصري حيث تتنازل موسوعة رسمية بكل هذه البساطة عن ثوابت وطنية وقومية مثل اعتبار القدس عاصمة إسرائيل بينما يخوض المثقف العربي معركة لمقاومة تزييف تاريخ القدس».

وكان أول من نبه لهذه المغالطات والأخطاء الروائي فؤاد قنديل مدير إدارة الثقافة العامة في هيئة الثقافة الجماهيرية التابعة لهيئة قصور الثقافة في مقال له في أسبوعية «أخبار الأدب» تحت عنوان «فضائح موسوعة الطفل».

قاموس معلوماتي باللغة العربية

تستعد الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية لإصدار قاموس معلوماتي باللغة العربية يضم نحو سبعة آلاف مصطلح معلومات، ويتوقع نشره في شهر مارس/آذار الحالي.

مؤتمر عن تاريخ بلاد الشام

تنوي جامعة دمشق عقد مؤتمر حول بلاد الشام بالتنسيق مع عدد من الجامعات العربية.

وصرح الدكتور حسين عمران مدير العلاقات الدولية والثقافية في الجامعة السورية أنه «ستدعى للمشاركة في المؤتمر نخبة من الباحثين والمؤرخين العرب الذين تخصصوا في كتابة تاريخ بلاد الشام التي تضم سورية، والأردن، ولبنان، وفلسطين».

رحيل الروائي السوري هاني الراهب

توفي في الثامن من فبراير الماضي الروائي السوري هاني الراهب عن عمر يناهز ٦١ عامًا على أثر مرض عضال، وقد شيع جثمانه إلى مثواه الأخير في قرية «مشقينا» باللاذقية.


هاني الراهب

ولد الراهب في قرية مشقينا باللاذقية عام ١٩٣٩م، وتلقى تعليمه في مدارس اللاذقية، ثم درس الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية في بيروت وحصل على الدكتوراه من جامعات بريطانيا.

كتب هاني الراهب عدداً من الروايات، وكانت «المهزومون» هي أول إنتاجه الأدبي، وقد صدرت في عام ١٩٦١م، ولم يتجاوز عمره حينها اثنين وعشرون عامًا، ونالت هذه الرواية جائزة مجلة الآداب البيروتية في العام نفسه، ثم أصدر روايته الثانية بعد ذلك بتسعة أعوام، وكانت بعنوان «شرخ في تاريخ طويل»، ثم جاءت روايته «ألف ليلة وليلتان» في عام ١٩٧٧م، وتلتها روايته الرابعة «الوباء» في بداية الثمانينيات التي اختارها بعض النقاد واحدة من أهم مئة رواية عربية صدرت في القرن العشرين، وغير ذلك من الروايات.

وقد عرف عن الراهب أنه مترجم بارع، وناقد أكاديمي، ومتخصص في الأدب الصهيوني.

أثار الراهب كثيراً من المعارك السياسية، وجرّت عليه آراؤه الجريئة كثيراً من المشكلات التي ترتب عليها فصله من اتحاد الكتاب العرب في سورية، وكانت المعركة الأولى عام ١٩٦٩م عندما واجه الاتحاد متهمًا إياه بالتعالي والعجرفة ورفض النصوص الجيدة والطليعية، والثانية في عام ١٩٩٥م عندما وجهت له تهمة الدعوة إلى التطبيع الثقافي بين العرب واليهود في موضوع له بمجلة العربي تحت عنوان «لماذا نخشى الثقافة الإسرائيلية؟».

وفاة الصحافي المصري جلال عيسى

توفي في القاهرة في السابع من فبراير/شباط الماضي الصحافي المصري جلال عيسى رئيس مجلس إدارة مؤسسة «دار الشعب» ورئيس تحرير صحيفة «الرأي للشعب» عن عمر يناهز ٦٣ عاماً. والراحل عضو بالمجلس الأعلى للصحافة منذ العام ١٩٨٠م، وعُيِّن أمينًا عامًا للمجلس عدة سنوات، ويعد من أبرز مؤسسي الحزب الوطني.

وبدأ مشواره الصحافي في دار أخبار اليوم أواخر الخمسينيات وتدرج فيها حتى وصل إلى المنصب الذي يشغله منذ أبريل من عام ١٩٩٨م حتى وفاته.

رحيل الشاعر اليمني حسين المحضار

توفي في الخامس من فبراير الماضي الشاعر الغنائي حسين أبوبكر المحضار في مدينة الشحر بمحافظة حضرموت جنوب اليمن.

حسين المحضار

وكانت إذاعة المكلا قد أوقفت جلّ برامجها للحديث عن الشاعر الراحل الذي أغنى الساحة الغنائية في منطقة الجزيرة العربية والخليج زهاء أربعين عامًا، وتغنى بأشعاره عدد من الفنانين منهم نبيل شعيل، والفنان عبدالله رويشد، وكثير من فناني اليمن.

وقد شكّل الشاعر الراحل مع الفنان (أبوبكر سالم) ثنائيًا متميزًا ساهم في تطوير فن الدان الحضرمي والأغنية الحضرمية عمومًا، وقد تلمذ له كثير من شعراء الأغنية في اليمن.

أصدر أول دواوينه الشعرية عام ١٩٦٥م، وكان بعنوان «دموع العشاق»، كما صدرت له ثلاثة دواوين أخرى.

مؤتمر عن العمارة الطينية في حضرموت

عقد في جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا في الفترة من ١٠ إلى ١٢ فبراير/شباط الماضي المؤتمر العلمي الأول حول «العمارة الطينية على بوابة القرن الحادي والعشرين»، وذلك بمشاركة وفود أكاديمية من الجامعات اليمنية والعربية والأجنبية إضافة إلى ممثلين لعدد من المنظمات الدولية وعدد من الشخصيات المهتمة بالعمارة الطينية.

ويرمي المؤتمر، الذي يعد الأول من نوعه على المستوى العربي، إلى إظهار الخصائص المعمارية والفنية للمباني الطينية في وادي حضرموت ممثلة بمدينة شبام ـ حضرموت التاريخية، كما ناقش المؤتمر كيفية تطوير هذا النمط من العمارة من غير المساس بطابعها الأصيل الذي تهدده العمارة الحديثة، وذلك من خلال ٢٩ بحثًا وورقة قدمت من خلال المؤتمر.

وصرح الدكتور عوض سالم نائب رئيس الجامعة أن أعمال المؤتمر تمحورت حول: «كيفية الحفاظ على المباني الطينية ولا سيما التاريخية والأثرية منها وتأهيلها لمواكبة الواقع الراهن، وتكنولوجيا العمارة الطينية، والعمارة الطينية في وادي حضرموت، والخصائص البيئية للعمارة الطينية».

وصاحب المؤتمر معرض للصور الفوتوغرافية تضمن عرضًا لنماذج العمارة الطينية في حقب تاريخية مختلفة تبين خصائصها والتغيرات التي طرأت عليها.

متحف وطني للآثار والمتاحف اليمنية

بدأت الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات اليمنية في تنفيذ مشروع إنشاء مجمع المتحف الوطني للآثار والمتاحف اليمنية التراثية القديمة وهو أول مشروع من نوعه في اليمن.

وصرح الدكتور يوسف محمد عبدالله رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات اليمنية أن هذا المشروع يرمي إلى المحافظة على الموروث الثقافي وتقويه هوية الثقافة اليمنية، وأضاف أن المشروع يشمل المباني القديمة الكائنة بجوار جامع «قبة المتوكل» في صنعاء القديمة ابتداءً من قصر «الشكر» وانتهاء بمبنى وزارة المالية سابقًا، بما في ذلك الحمام والمرافق التابعة للمنطقة.

شبكة معلومات لتنمية المكتبات

تشهد بيروت فيما بين ٦و٨ مارس/آذار الحالي حلقة دراسية دولية حول: «شبكة المعلومات لتنمية المكتبات»، وتخاطب هذه الحلقة خبراء المكتبات الأكاديمية والوطنية والمتخصصة، وهي ترمي إلى تبادل المعلومات على النطاق الإقليمي القائم على الشبكات واستكشاف إمكانات بناء الشبكات الإقليمية في الشرق الأوسط وتحديد مصادر التعاون والخبرات.

آثار عراقية مسروقة

عرف العراق بكثرة الحضارات التي تعاقبت على أرضه، فلا توجد بقعة إلا وفيها أثر للتاريخ حتى بلغ عدد

المواقع الأثرية المسجلة رسمياً لدى دائرة الآثار والتراث نحو عشرة آلاف موقع، ولكن هذه الآثار النفيسة تعرضت للنهب والسرقة والتدمير حتى بلغ عدد القطع الأثرية المسروقة من المتاحف والمواقع الأثرية خلال الأعوام الأخيرة أكثر من أربعة آلاف قطعة تشمل لقى أثرية وألواحا طينية، وتماثيل من المرمر والفخار، ولم تعد من هذه الآثار إلا نحو ألف قطعة أثرية رجعت بمساعدة من السلطات الأردنية.


من القطع المسروقة

وعزا بعض خبراء الآثار هذه الظاهرة إلى وجود جهات أجنبية وراءها خاصة بعد سنة ١٩٩١م، بينما أرجعها بعضهم إلى التجاوزات التي تقع على المواقع الأثرية الكثيرة «عشرة آلاف موقع» التي تنتشر في أنحاء البلاد.

وقد قامت دائرة الآثار والتراث بعدة جهود من أجل إرجاع هذه الآثار المسروقة منها الاتصال بالمؤسسات العلمية المناظرة في مختلف أنحاء العالم، كما قامت بنشر أوصاف القطع الأثرية المسروقة في ثلاث دوريات عالمية.

دينار يساوي خمسة ملايين بالمتحف العراقي

دفع المتحف العراقي مبلغ خمسة ملايين دينار عراقي ثمناً لدينار عربي نادر اشتراه من أحد المواطنين.

وعزا مصدر في المتحف أهمية هذا الدينار إلى كونه يمثل المرحلة الأولى من حركة التعريب للنقود في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ)، وهو من الطراز البيزنطي الذي كان متداولاً آنذاك.

الجدير بالذكر أن هذا الدينار لا يوجد له نظير في العالم إلا في أربعة متاحف فقط في العالم هي متاحف باريس ولندن ونيويورك وإستانبول.

كتاب عن آثار عراقية باللغتين العربية والإنجليزية

تم الاتفاق بين دائرة الآثار العراقية ومتحف ماينز الألماني على طبع كتاب الآثاري العراقي الدكتور دوني جورج الذي يكشف عن الأعمال الآثارية في «تل العمارنة»، حيث اكتشف الدكتور دوني جورج سوراً بناه العراقيون يعود تاريخه إلى ٥٥٠٠ عام قبل الميلاد.

وسيطبع الكتاب باللغتين العربية والإنجليزية.

«الأرشيف في الألفية الجديدة ومجتمع المعلومات» في مؤتمر بإشبيلية

نشر مؤخراً برنامج المؤتمر العالمي الرابع عشر للمجلس الدولي للأرشيف حول: «الأرشيف في الألفية الجديدة ومجتمع المعلومات»، الذي سيعقد بإشبيلية في الفترة ما بين ٢١و٢٦ سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٠م.

وهذا المؤتمر يعقد دورياً كل أربع سنوات، وكان آخرها في بكين، حيث يجمع أهم الخبراء الدوليين في اختصاص علوم الأرشيف، وتشارك فيه أهم الجامعات والمنظمات والمؤسسات المهتمة مباشرة بالتطورات السريعة لعلوم الأرشيف، وسوف يدور خلال هذا المؤتمر عرض أهم الإنجازات والمشاريع في هذه التخصصات على الصعيد الدولي من طرف المنظمات والهيئات والفروع الدولية للمجلس الدولي للأرشيف ومناقشتها، ومن ضمنها الفرع الإقليمي العربي التابع للمجلس الدولي للأرشيف الذي أنشئ منذ عام ١٩٧١م في اجتماعي روما التاريخيين.

اكتشافات أحفورية في واد بالبرازيل

جذب كهف «توكا دو بوافيستا» البرازيلي، الذي يعد أطول كهوف العالم، اهتمام علماء الأحياء القديمة من الباحثين عن الأحافير، بعد أن كشفت بعثة أثرية مؤخراً عن وجود آلاف الأحافير الحيوانية لنحو ٣٠ أو ٤٠ نوعاً من الحيوانات الضخمة، أغلبها من الثدييات، التي كانت تعيش منذ التاريخ الجيولوجي القديم. وكان من ضمن الآثار التي عثر عليها جمجمة لقرد عنكبوتي يزن نحو ٣٠ كيلو جراماً، وهو ضعف وزن القرد العادي الذي يعيش اليوم، كما عثر أيضاً على هياكل عظمية لقطط ضخمة وحيوانات اللاما وهياكل وطاويط مبعثرة لم تشاهد على الأرض من قبل.


آثار أحفورية

وقد عزا العلماء غياب الهياكل البشرية في هذا الموقع إلى حدوث كارثة بيئية قضت على حياة كثير من الأحياء التي كانت تعيش في هذه المنطقة.

«ابن بطوطة: رحلات نهاية العالم ما بين عام ١٣٢٣ و١٣٥٣م»

هذا عنوان كتاب نشرته دار «اردمان - تينمان» في ألمانيا تأليف هانز لايشت، وهو أول كتاب بالألمانية عن ابن بطوطة، ويتناول أسلوب ابن بطوطة المشوق في تدوين أحداث رحلاته، ووصف المصاعب التي واجهها الرحالة العربي في أسفاره البعيدة، ولقاءاته مع الأمراء والحكام، وإعجابهم به علماً وثقافة ومعرفة بالشريعة الإسلامية.


صورة متخيلة لابن بطوطة

ويصف الكتاب ما كانت عليه ثقافتنا الإسلامية من نشاط في زمن كان يخيم فيه الجهل والظلام على الغرب.

افتتاح مجمع لعرض أعمال شكسبير في لندن

افتتح في لندن في الثالث من فبراير الماضي أضخم مجمع للفنون خصص لتقديم أعمال الأديب البريطاني وليم شكسبير.

وبلغت تكلفة المجمع، الذي يقع بالقرب من نهر التايمز، عشرة ملايين ونصف مليون دولار، وقامت بافتتاحه النجمة البريطانية جودي رنيس.

وقد زوِّد المركز بأحدث الوسائل التقنية لعرض الأعمال المسرحية بصورة مشوقة حتى يتمكن الزوّار، الذين قدر أن يصل عددهم إلى ألف زائر، من تسجيل أعمال شكسبير المسرحية، والقيام بأدوار البطولة في بعض المسرحيات عن طريق الحيل الإلكترونية.

برنامج التميمي للبحث العلمي والمعلومات خلال عام ٢٠٠٠م

تنظم مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات برنامجاً لمجموعة من المؤتمرات والندوات خلال عام ٢٠٠٠م على النحو التالي:

- ٢٢ - ٢٤ مارس/آذار عام ٢٠٠٠م: «المؤتمر العالمي الرابع للآثار العثمانية في العالم»، وذلك بحضور أكثر من خمسة وأربعين مشاركاً دولياً، وسوف ينظم خلاله حفل تكريم على شرف الأستاذ ماخيال كيل بمناسبة صدور الكتاب التقديري الذي أعدته ونشرته المؤسسة.
- ١٢ - ١٤ إبريل/نيسان عام ٢٠٠٠م: المؤتمر العالمي الخامس للبحث العلمي حول: «دور العلماء والباحثين العرب في منظومة التنمية الوطنية».
- ١٦ - ١٨ مايو/آيار عام ٢٠٠٠م: اللقاء العالمي الرابع حول «المسيحيون والمسلمون في عصر النهضة العربية».
- ١ - ٤ يونيو/حزيران عام ٢٠٠٠م: المائدة المستديرة العالمية الثانية للحوار العربي التركي حول «التحديث السياسي والعلمي والاقتصادي في الوطن العربي وتركيا».
- ٢٣ - ٢٦ سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٠م: المؤتمر العالمي التاسع للدراسات العثمانية حول «العائلة والمهمشون في العالم العثماني: النساء، والأطفال، والفقراء، والمعوقون».
- ٢٧ - ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٠م: المائدة المستديرة الثانية حول بورقيبة والبورقيبية: «التصورات وبناء الدولة الوطنية».
- ٢٢ - ٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠٠م: المؤتمر العالمي الأول «فرحات حشاد: الحركة العمالية والنضال الوطني: المبادئ والأبعاد».

وكانت مؤسسة التميمي قد بدأت نشاطها بتنظيم المؤتمر الثالث لمنتدى التاريخ المعاصر بالشراكة العلمية مع جامعة مكناس حول موضوع «التحديات الوطنية وتأثير التغيرات الدولية على المغرب العربي المعاصر»، وذلك بحضور أكثر من ٣٢ مشاركاً في الفترة من ١٧ - ٢١ فبراير عام ٢٠٠٠م.

فوز الإيرلندي شيموس هيني بجائزة «ويت برد» البريطانية

حصل الشاعر الإيرلندي المعاصر شيموس هيني، مرة ثانية، على جائزة «ويت برد» البريطانية الأدبية لأفضل كتاب هذا العام عن ترجمته ديواناً بعنوان «بيولف» Beowulf، وهو بطل أسطوري في القصيدة الإنجلوسكسونية التي كتبت في الفترة بين القرنين الثامن والعاشر، وقد استغرقت ترجمة هذا العمل خمسة عشر عاماً.

وكان النقاد يرشحون «جي.كي.رولينجز» للفوز

بالجائزة عن ثلاثيتها كتاب الأطفال «هاري بوتر سجين أزبكان» الذي نال شعبية كبيرة، وبيع منه أكثر من ٢٧ مليون نسخة في مختلف أرجاء العالم.

ولم يكن هيني، الذي سبق له الفوز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٥م، يتوقع الفوز بهذه الجائزة، وقد قال مقتبساً من الملحمة «بيولف» عند تسلمه الجائزة: «القدر يسير في طريقه المرسوم»، وأضاف: «إنني شاكر لكم باسمي واسم الكاتب المتمكن المجهول».

وكانت هنالك عدة أعمال قد رشحت لهذه الجائزة منها: رواية روز ترمين «الموسيقى والسمط»، ورواية «وايت سيتي بلو» لتيم لوت، والمجلد الثاني لسيرة الموسيقار بيرليوز الذي كتبه ديفيد كيرنز.

الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد بريفير

تحتفل فرنسا هذه الأيام بمرور مئة عام على ميلاد شاعرها جاك بريفير «١٩٠٠ - ١٩٧٧م» الذي كان معاصراً لجان بول سارتر «١٩٠٥ - ١٩٨٠م». وقد واكب هذه الاحتفالات صدور عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن حياة الشاعر وأدبه، وتجري الاحتفالات الرسمية في مارس الحالي (في أثناء طبع المجلة) خلال تظاهرة شعرية كبرى تنظمها وزارة الثقافة والإعلام الفرنسية تحت عنوان «ربيع الشعراء»، كما قدم مسرح موليير في باريس قراءات شعرية لبريفير، كما أقيم معرض ضم ملصقات للشاعر ووثائق نادرة وطبعات أصلية من كتبه. ومؤلفات بريفير من أكثر الأعمال مبيعاً لشاعر في القرن العشرين، فقد بلغ مبيع ديوانه «كلمات» الذي صدر أول مرة عام ١٩٤٦م، أكثر من مليوني نسخة.


جاك بريفير

تعامل جاك بريفير مع السينما، ووضع بعض الأفلام البارزة بالمشاركة مع المخرج مارسيل كارنيه، كما تعامل مع كبار المغنيين الذين جذبتهم أشعاره أمثال: جولييت غريكو، وماريان أوزوولد، ونات كينغ كول، وإيف مونتان الذي جعل من أغنية «الأوراق الميتة» أسطوانة ذهبية نشرت في كل أنحاء العالم وبيع منها ملايين النسخ.

تمثال لمايكل أنجلو في متحف اللوفر

عرض في متحف اللوفر في باريس في الأيام الماضية تمثال «كيوبيد منهاتن» الذي يؤكد عدد كبير من المؤرخين أنه للنحات الإيطالي مايكل أنجلو «١٤٧٥ - ١٥٦٤م»، والمنحوتة الوحيدة لهذا الفنان الإيطالي الموجودة في الولايات المتحدة إذ اكتشفت في عام ١٩٩٦م.


مايكل أنجلو

وسيعاد التمثال الذي عرض قبل ذلك في مدينة فلورنسا الإيطالية في معرض «شباب مايكل أنجلو» إلى القسم الثقافي في السفارة الفرنسية في نيويورك.

ويرى عدد كبير من المؤرخين والنقاد أن مايكل أنجلو قام بنحت هذا التمثال خلال إقامته الأولى في روما نحو عام ١٤٧٩م، وقد وهبه لمصرفي يدعى جاكوبو غاللي.

وكان هذا التمثال معروضاً من دون أن يلفت نظر أي من الزوار منذ ١٩٠٦م في مبنى «بايني ويتني» في الجادة الخامسة في نيويورك. وأصبح هذا المبنى الذي يعد أحد المعالم المعمارية في نيويورك، مقر القسم الثقافي الفرنسي في المدينة.

وفي عام ١٩٩٦م أعلنت كاتلين ويل غاريس برانت المتخصصة بالفن الإيطالي في عصر النهضة اكتشافاً مثيراً، إذ أكدت أن هذا التمثال المنحوت من الرخام، ويبلغ ارتفاعه متراً واحداً تقريباً، وقد كسرت ذراعه، وتحطم جزء من ركبته، لمايكل أنجلو.

المغني ولسان العرب على الإنترنت

أعلنت شركة صخر لبرامج الحاسب عن تطويرها لمعجمي المغني ولسان العرب ووضعهما على صفحة المعاجم الخاصة بها على الإنترنت على العنوان:

Http Lexicons.Sakhr.Com.

يعد معجم لسان العرب لابن منظور من أقدم المعاجم العربية وأضخمها، وهو أشبه بالموسوعة، حيث يشمل أشعار العرب واللهجات والقراءات القرآنية والنوادر وقواعد اللغة وغير ذلك من المعلومات.

أما معجم المغني للدكتور عبدالغني أبوالعزم فيعد من

المعاجم العربية الحديثة وهو يخدم شريحة كبرى من الدارسين تشمل طلاب التعليم الأساسي والثانوي خاصة والمثقفين ومستخدمي المعاجم العربية الحديثة عامة، وهو مرتب ألفبائياً ومشكّل تشكيلاً تاماً ويضم عدداً ضخماً من المصطلحات الأدبية والعلمية والتقنية وألفاظ الحضارة، كما يضم أيضاً عدداً كبيراً من الرسوم والصور والإيضاحات، ويبلغ عدد مواده زهاء ثلاثين ألف مادة، ويبلغ عدد مشتقاته ١٩٥,٠٠٠، وعدد كلماته ٢٠٠٠,٠٠٠ كلمة.

وهنالك عدة طرائق للبحث في صفحات هذه المعاجم الموجودة في موقع صخر على الإنترنت، والاستفادة من المعلومات التي تحويها.

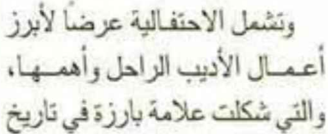
اعتماد البرتغالية لغة رسمية في تيمور الشرقية

أعلن زانانا غسماو «رئيس المجلس الوطني للمقاومة التيمورية» يوم الجمعة ١١ فبراير/شباط الماضي في ديلي أن البرتغالية ستعتمد لغة رسمية في تيمور الشرقية.

وقال غسماو: موقفنا واضح؛ اللغة الرسمية ستكون البرتغالية؛ لأنها جزء من تراثنا. وأضاف أنه سيتم تعليم الإنجليزية والأندونيسية كذلك في المدارس، وإن لم يكن في جميعها.

احتفالية فنية إحياءً لذكرى الأديب الأمريكي تنسي ويليامز

يقيم مركز تنسي ويليامز للفنون بمدينة كي وست بولاية فلوريدا الأمريكية، بمناسبة مرور عشرين عاماً على إنشائه، احتفالية فنية إحياء لذكرى الأديب الأمريكي الراحل تنسي ويليامز، وإلقاء الضوء على إبداعاته الأدبية.



تنسي ويليامز

وتشمل الاحتفالية عرضاً لأبرز أعمال الأديب الراحل وأهمها، والتي شكلت علامة بارزة في تاريخ الأدب الأمريكي الحديث، كما تشمل أيضاً عرضاً لبعض المشاهد من بعض الأفلام والمسرحيات المأخوذة من أعماله الأدبية. ومن المقرر أن تقيم شقيقة الأديب الراحل روز ويليامز حفلاً غنائياً تكريماً لذكرى شقيقها.

جونتر جراس يحذر من الإنترنت



جونتر جراس

حذر الروائي الألماني جونتر جراس، الحائز على جائزة نوبل للآداب العام الماضي، من الآثار السيئة لأجهزة الكومبيوتر وشبكات الإنترنت في الكتابة، وركز جراس على أهمية القلم والورق في حياته بوصفه كاتباً.

وقال جراس في مقابلة صحفية أجريت معه: «لست متحاملاً على الحواسيب. إن سكرتيرتي تستخدم واحداً، وهو مهم للمواعيد والتواريخ، وحفظ الأشياء الخاصة. لكنه ليس مفيداً لكتابة مخطوطة أولية؛ لأنه أسرع مما ينبغي، لعلني مخطئ في ذلك، لكن الكتب التي أتلقاها من الناشرين لكي أقرأها وأدلي برأيي في صلاحيتها للنشر، تكشف لي بعد ١٠ صفحات من القراءة أكان المؤلف قد كتبها بيده أم على الكمبيوتر؟».

وقال جراس خلال كلمة له في استوكهولم في أثناء تسلمه جائزة نوبل للآداب إن الأدب قد تراجع كثيراً في الآونة الأخيرة، كما هاجم جراس الأدباء الشباب الذين يستخدمون الإنترنت كساحة لعب، وأبدى تخوفه من أن يقلص عصر الإنترنت انخراط الكتّاب في أحداث العالم كما كان يحدث في الماضي.

سرقة كتاب عمره (٤٥٧) عاماً

في خبر بثته هيئة الإذاعة البريطانية أن السلطات في مدينة بطرسبورج الروسية أعلنت سرقة نسخة من كتاب «بالدورات» لمؤلفه الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكس الذي وضع فيه نظرية دوران الأرض حول الشمس مخالفاً بذلك المعتقدات الفلسفية والدينية التي كانت سائدة في العصور الوسطى.

ويعد هذا الكتاب، الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٥٤٣م، من أهم الكتب العلمية التي طبعت حتى الآن، وتمت طباعته في ألمانيا.

وكان المؤلف قد أرجأ نشر نظريته حول دوران الأرض حول الشمس زمناً طويلاً، حتى قيل: إنه لم ير النسخة الأولى من مؤلفه هذا إلا وهو على فراش الموت.

اعتداء على مقبرة إسلامية

تعرضت المقبرة الإسلامية التاريخية التي عثر عليها حديثًا في مدينة «أبيلا» الواقعة على مسافة نحو ١٥٠ كيلو مترًا غربي مدريد إلى التدمير من طرف جماعة من المجهولين.

وقالت صحيفة «دياريو دي أبيلا» التي تصدر في المدينة أن الهياكل العظمية الموجودة في هذه المقبرة تعرضت بدورها لأضرار بالغة.

وأضافت الصحيفة أن الاعتداء كان همجيًا، وأن العمال والفنيين عندما وصلوا إلى المقبرة وجدوا محتوياتها قد تبعثرت وجردت جثث أجداد المسلمين من الأغطية البلاستيكية التي كانت قد حفظت فيها، وتعرضت لأضرار جسيمة ناجمة عن تحطيمها المتعمد بالحجارة.

وأشارت الصحيفة إلى أن هذه المقبرة الإسلامية تعود إلى الفترة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلادي.

إعادة كتب نادرة إلى ألمانيا

تُجرى حاليا مفاوضات بين مسؤولين ألمان وبولنديين لاسترجاع ٣٢ كتابًا نادرًا يرجع تاريخها إلى القرون: السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر.

وكانت هذه الكتب قد سرقت من مكتبة بروسيا في عام ١٩٤١م، وتوجد حاليًا في إحدى المكتبات الخاصة في بولندا، وترمي هذه المفاوضات إلى إرجاعها إلى موطنها الأصلي في ألمانيا.

معرض للوحات براك التكعيبية

من المقرر أن يقام قريبا في متحف المتروبوليتان في نيويورك معرض للرسام الفرنسي براك يضم أشهر لوحاته التي استخدم فيها الأسلوب التكعيبي.

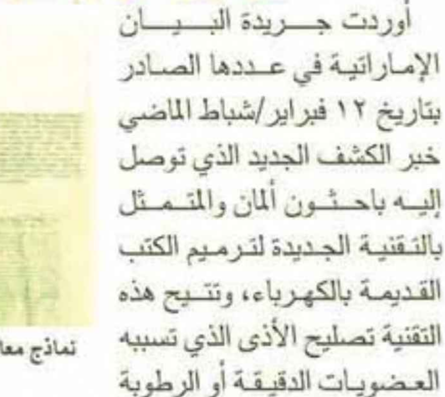
ولد براك عام ١٨٨٢م وتوفي عام ١٩٦٣م، وقد ساهم في تطوير الحركة التكعيبية في الرسم، كما عدّه النقاد أحد رواد الفن الحديث في الرسم ومن أشهر لوحاته «الرجل والجيتار».

معرض بوركار للصور في متحف بفرنسا

أقيم مؤخرًا في متحف جرونوبل بفرنسا معرض للمصور السويسري المعاصر بالتاسار بوركار المولود عام ١٩٤٤م.

ويضم المعرض مجموعة من الصور التي التقطها بوركار خلال زيارته لليابان في عام ١٩٨٧م، وتمثل مناظر طبيعية وحيوانات، كما يضم المعرض أيضًا صور بعض المدن الأمريكية، مثل لوس انجلوس ونيو مكسيكو، وكان المصور قد التقطها في أثناء تحليقه بطائرته الهيليكوبتر عند زيارته لأمريكا.

تقنية جديدة لترميم الكتب





نماذج معالجة بالكهرباء

أوردت جريدة البيان الإماراتية في عددها الصادر بتاريخ ١٢ فبراير/شباط الماضي خبر الكشف الجديد الذي توصل إليه باحثون ألمان والمتمثل بالتقنية الجديدة لترميم الكتب القديمة بالكهرباء، وتتيح هذه التقنية تصليح الأذى الذي تسببه العضويات الدقيقة أو الرطوبة لصفحات المؤلفات القديمة وأغلفتها، وتتم المعالجة بتسليط غاز مشحون كهربائيًا، على المؤلَّف المراد ترميمه، من أجل «تلزيق» آثار الأذيات على الورق أو الجلد، وبذلك يقضى على البكتريا والعفن وتتعزز قوة الورقة.

ويعتقد باحثو معهد «فراونهوفر» بإمكان استخدام البلازما في تكوين طبقة حامية على الصفحات الأكثر تأذيًا، ومن ثم تجنب تمزقها.

أول فيلم سينمائي في الفضاء

لم يتبق سوى التمويل المادي لتحقيق أول حدث فني عالمي لتصوير فيلم في الفضاء، هذا ما أكده مسؤول في وكالة الفضاء الروسية للصحافيين أخيرًا، حيث قال سيرجي جوربونوف «نحن ننتظر دفع الأموال وتقرير اللجنة الطبية الحكومية لاتخاذ قرار نهائي».

وكان قد أعلن في موسكو أخيرًا عن توقيع عقد بين شركة «انيرغيا» المكلفة استغلال محطة «مير» المدارية وشركة «فيدفكو» الأمريكية لإرسال الممثل الروسي

فلاديمير ستيكلوف «٥٠ عاماً» إلى المحطة «مير» لتصوير أول فيلم في الفضاء.

ومن جانبه قال ألكسندر سوروكين المسؤول عن الجانب الروسي للمشروع إن كلفة المشروع الروسي الأمريكي تبلغ ٢٠٦ ملايين دولار، مشيراً إلى أنه في حال مجيء الفحوصات مطمئنة للممثل ودفعت الشركة الأمريكية الأموال المطلوبة فإن ستيكلوف سينطلق إلى المحطة «مير» في ٣١ مارس/آذار الحالي مع الرائدين سيرجي زيلاتين وألكسندر كاليري.

واستوحى مخرج الفيلم يوري كارا القصة من رواية «نبوءة كاسندرا» للكاتب القرغيزستاني جنكيز ايتماتوف التي نشرت في عام ١٩٩٤م، وتتحدث عن عالم يهرب إلى الفضاء لتحذير الإنسانية من كارثة وشيكة وتلاحقه الأجهزة السرية.

روائع الهنود الحمر في معرض بفرنسا

أقيم معرض تحت عنوان «فنون الهنود الحمر» بمؤسسة موناپسمارك للفنون بالعاصمة الفرنسية باريس لنخبة رائعة من الأعمال الفنية التي تكشف ما للهنود الحمر من إنتاج فني متميز، كما تكشف عن مدى مشاركة الفنان الهندي بحمل هموم أمته ومكافحة المستعمر المغتصب لأرضه.

وقد تنوعت المعروضات ما بين: منتجات جلدية، وأقنعة، ومنسوجات يدوية، وسيراميك وغير ذلك.

متحف في الصين على غرار اللوفر الفرنسي

أفادت الصحف الصينية الرسمية أن الصين ترغب في بناء متحف وطني كبير على غرار متحف اللوفر الفرنسي بغية عرض آلاف التحف الفنية المحفوظة حالياً في الأقبية.

وأشارت صحيفة «الشعب» إلى أن وزارة الثقافة أدرجت هذا المشروع في الخطة الخمسية المقبلة «٢٠٠١ - ٢٠٠٥م»، التي تعمل الحكومة الحالية على إعدادها.

وقالت الصحيفة: إن «العديد من الخبراء يأملون أن يمثل المشروع النسخة الصينية لمتحف اللوفر في باريس» من دون أن تحدد مكان تشييده، وستعرض في المتحف الجديد قطع منقولة من متحف تاريخ الصين الواقع في ساحة تيان آن مين في بكين وقصر المدينة المحرمة الامبراطوري القديم الواقع وسط العاصمة.

وأقرت الصحيفة أن نحو ٩٠ في المئة من مجموعات القصر مخفية عن أنظار السياح، كما أن أجمل التحف الفنية في كنوز الأباطرة نقلها القوميون إلى تايوان أثر هزيمتهم عام ١٩٤٩م.

إطلاق شعار المرأة تصنع الإعلام


كويشيرو ماتسورا

أطلقت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) من مقرها في باريس حملة واسعة وضعت تحت شعار «٨ مارس: المرأة تصنع الإعلام» وذلك لمناسبة اليوم العالمي للمرأة. ودعت المنظمة جميع وسائل الإعلام العالمية إلى تولية المرأة رئاسة تحريرها في هذا اليوم.

وقال كويشيرو ماتسورا المدير العام لليونسكو في الدعوة التي وجهها إلى وسائل الإعلام: إن الحملة ترمي إلى تمكين النساء الصحافيات من ممارسة مهنة رئاسة التحرير في العالم كله يوم الثامن من مارس.

وأضاف «إذا ما توحد الصحافيون ووسائل الإعلام والمنظمات التي تمثلهم في توفير فرص النجاح لهذه الحملة فستكون هذه أول مرة تخرج فيها الصحف ونشرات الأخبار على مسؤولية النساء ومن بين أيديهن».

عرض ستين لوحة للفنان الفرنسي ديران

أقيم مؤخراً معرض بعنوان «ديران والتجريد» بمتحف تيت للفنون بالعاصمة البريطانية لندن، للفنان الفرنسي ديران أحد أبرز رواد الحركة الإبداعية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر.

واحتوى المعرض على قرابة ستين لوحة تعكس رؤية ديران الفنية للخصائص التجريدية. وقد ضم المعرض جناحاً لنماذج من منحوتاته من البرونز والنحاس.

ومن المقرر أن يقام المعرض مرة أخرى في المتاحف والمؤسسات الفنية في الولايات المتحدة الأمريكية.



السدحان، عبدالله بن ناصر/ رعاية المسنين في المملكة العربية السعودية (دراسة تاريخية وثائقية)ـ الرياض: وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ومؤسسة سلطان ابن عبدالعزيز آل سعود الخيرية، ١٤٢٠هـ، ١٦٤ص.

تتعالى النداءات في العالم اليوم مطالبة بضرورة اهتمام الدول برعاية المسنين، وقد أولى الإسلام منذ أربعة عشر قرناً عناية لهذا الموضوع الإنساني، فجعل رعاية المسنين والاهتمام بهم أحد مبادئه وصفة من صفات المجتمع المسلم.

ولم يأت هذا الكتاب لتأكيد هذه البديهية، بل جاء لتسليط الأضواء على ما يتعلق برعاية المسنين في المملكة منذ بدايات التأسيس حتى وقتنا الحاضر. ولم يُغفل المؤلف، الإشارة إلى التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي مرّ بها المجتمع السعودي، وما ترتب عليها من آثار وتغير في العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة، فتلاشى ما يسمى بـ «العائلة الممتدة» التي كانت تضم الجد والأب والأبناء وزوجاتهم وأبناءهم في منزل واحد، وظهر ما يُعرف بـ «الأسرة النووية» التي تعني استقلال الأبناء بزوجاتهم وأبنائهم في منازل مستقلة، فارتفعت نسبة الأسر النووية بين سكان مدينة الرياض من (٦٧٪) عام ١٤٠٧هـ إلى (٧٥٪) عام ١٤١٧هـ، وانخفضت نسبة الأسر الممتدة ـ في المقابل ـ من (٣٠٪) عام ١٤٠٧هـ إلى (٢٠٪) عام ١٤١٧هـ.

قسّم المؤلف كتابه ثلاثة فصول بعد المقدمة وبيان أهداف الدراسة وأهميتها وحدودها ومنهجها وأدواتها وتساؤلاتها، عقد فصله الأول (مقدمات أساسية) عن: «تعريف المُسِن»، و«المتغيرات التي تصاحب مرحلة الشيخوخة»، و«مظاهر رعاية المسنين في الإسلام»، ثم «وضع المسنين عالمياً».

وفي الفصل الثاني: «رعاية المسنين في المملكة العربية السعودية» تناول المؤلف «أسس هذه الرعاية»، و«إحصاءات عن المسنين في المملكة»، و«مظاهر هذه الرعاية: اقتصادياً عبر أنظمة التقاعد والتأمينات والضمان، والرعاية الاجتماعية المفتوحة للمسنين، والرعاية الإيوائية لهم حكومياً وأهلياً».

وفي الفصل الثالث والأخير انتقل المؤلف للحديث عن «الخصائص العامة للمسنين في المملكة العربية السعودية» من خلال إلقاء الضوء على ظروفهم: الأسرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والصحية وذلك من خلال استعراض الدراسات التي أجريت عليهم.



هوفمان، مراد فلفريد/ الطريق إلى مكة.ـ القاهرة: دار الشروق، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ١٧٤ص.

هذا هو الكتاب الثاني للمؤلف الذي يتناول القضايا الإسلامية، فقد سبقه عام ١٩٩٢م كتابه الأول «الإسلام كبديل» الذي حاول فيه المؤلف، وبمنهج عقلاني، «دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة واللامعقولة، المسبقة والضاربة بجذورها في أعماق الوجدان الألماني حيال الإسلام».

أما هذا الكتاب «الطريق إلى مكة» فهو يعنى بحقيقة الإيمان كما يعيشها ويعايشها المؤلف، ويحاول أن يساعد على إدراك القوة الدافعة التي يستمدها المؤمن من دينه، وكيف تستطيع أن تسمو به، وأن يساعد كذلك على تبيين الأفق الذي يمكن أن يصل إليه العالم الإسلامي عند تمسكه بهذا الدين في حياته اليومية؟.

لم يتبع المؤلف ـ كما يقول ـ نهجاً معيناً في تقسيمه فصول الكتاب وإن جاءت متبعة «لأركان الإسلام» ليجيء الفصل الثاني عن «الشهادة»، والثالث عن «الصلاة»، والرابع حول «الزكاة»، والخامس عن «الصيام»، وكان الفصل الأول عن «الحج».

وناقش الكاتب في بقية فصول الكتاب، التي بلغت اثني عشر فصلاً، عدداً من المسائل الفقهية مثل تحريم الخمر، والنهي عن تناول لحم الخنزير، والنحر، والأضحية، والإيمان بالقضاء والقدر، ونال موضوع الزواج في الإسلام نصيباً كبيراً من المناقشة.

وعلى الرغم من طابع السير الذاتية التي يتصف بها الكتاب، فإنه يصلح في المقام الأول، كما جاء في الخاتمة، دليلاً عملياً للطريق إلى الإسلام.





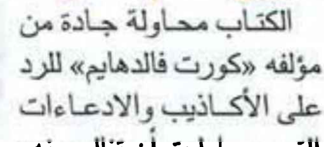
باشا، محمد صادق/ الرحلات الحجازية، تحرير: محمد همام فكري- بيروت: بدر للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ٤٤٠ص.

الكتاب إعداد وتحرير لمؤلفات محمد صادق باشا التي تتضمن روايته لرحلات الحج مرافقاً للمحمل المصري، وقد نشرت هذه المؤلفات من قبل تحت عدة عناوين.

عمل المحرر على تيسير قراءة هذه المؤلفات التي لم تحظ بالشهرة التي تستحقها على قيمة المعلومات التي تحويها حيث «تشكل في مجموعها رؤية شاهد عيان للواقع الجغرافي والاجتماعي للمناطق التي زارها في الأراضي الحجازية في أثناء تأدية فريضة الحج خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر».

صدّر المحرر هذه المؤلفات بترجمة موجزة للمؤلف محمد صادق باشا شملت مولده ونشأته وتكوينه الفكري.

وخُتم الكتاب بفهرس للأماكن وآخر للأشخاص جاءت مرتبة وفقاً لترتيب ورودها في صفحات المتن.



فالدهايم، كورت/ الرّد، ترجمة: عصام الخضراء ونبيل حيدري- القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م، ٢٣٥ص.

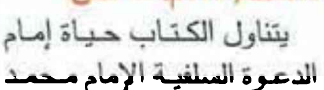
الكتاب محاولة جادة من مؤلفه «كورت فالدهايم» للرد على الأكاذيب والادعاءات التي حاولت أن تنال منه، ودحض التهم التي حاولت بعض الجهات إلصاقها به.

بدأ الكتاب بتصدير ومقدمتين: إحداهما للطبعة العربية، والأخرى للألمانية، وكتب التصدير مصطفى الفقي السفير المصري في فيينا، قدم فيه نبذة من حياة المؤلف، والمناصب التي تقلدها، وتعرض للمكاسب التي حققها العرب خلال فترة توليه منصب الأمين العام للأمم المتحدة، كما تطرق للأسباب التي جعلت بعض الجهات تعاديه على الرغم من أنه اشتهر خلال فترة شغله لهذا المنصب الدولي الكبير بدرجة عالية من الحياد والموضوعية.

وكتب «مقدمة الطبعة العربية» المؤلف نفسه فأوضح أن الكتاب يتيح للقراء العرب التعرف عن كثب إلى تجاربه وانطباعاته لفترة محددة من حياته استقطبت اهتماماً دولياً خاصاً وهي بالتحديد الفترة الواقعة بين عامي ١٩٨٦م و ١٩٩٢م.

وكتب «مقدمة الطبعة الألمانية» أيضاً مؤلف الكتاب قائلاً: إن الغرض من هذا الكتاب «ليس تصفية حساب مع الماضي، بقدر ما هو، في جوهره، جردة ختامية».

يحفل الكتاب بمجموعة من الصور التي جمعت المؤلف مع عدد كبير من الشخصيات الدولية المعروفة في مناسبات مختلفة، وختم بفهرس عام لمحتويات الكتاب.



السكاكر، محمد بن عبدالله/ الإمام محمد بن عبدالوهاب: حياته، آثاره، دعوته السلفية- الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٣٦٣ص.

يتناول الكتاب حياة إمام الدعوة السلفية الإمام محمد بن عبدالوهاب (١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣-١٧٩٢م) المصلح الكبير والمجدد الذي أعاد لعقيدة التوحيد صفاءها، وأزال ما علق بها من غبار البدع والخرافات والشرك، وناصره على ذلك الإمام محمد بن سعود الذي أقام دولته على هذا الأساس العقدي السليم.

يقع الكتاب في فصلين وتمهيد وخاتمة.

تناول المؤلف في التمهيد «الأحوال الدينية والسياسية التي كانت سائدة في نجد قبل قيام الدعوة السلفية، وقيام الدولة السعودية».

وجاء الفصل الأول في أربعة أبواب:

تناول الباب الأول حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وتناول الباب اثنني «الدعوة السلفية وانتشارها في نجد وما حولها».

وجاء الباب الثالث عن «ما أثير حول الدعوة

السلفية وصاحبها من شُبه وافتراءات.

والرابع عن «الدعوة السلفية وصاحبها في نظر العلماء والأدباء والكتّاب العرب والغربيين وآثارها في العالم الإسلامي».

ثم فصّل في الفصل الثاني «آثار الدعوة السلفية في أنحاء العالم الإسلام».

وختم باستعراض عام لما ورد في الكتاب.

دليل المكتبات ومراكز المعلومات السعودية/ مكتبة الملك فهد الوطنية.- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٥١٤ص.

صدر هذا الدليل بمناسبة مرور مئة عام على توحيد المملكة العربية السعودية على يد الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود - طيب الله ثراه - وتزامن صدوره مع صدور دليل آخر هو «المكتبيون السعوديون: سيرة ذاتية وببليوجرافية»، ليكشفا معًا عن جانب مهم من جوانب النهضة الفكرية والمعرفية في حقل المكتبات والمعلومات في المملكة العربية السعودية.

يرمي هذا الدليل إلى التعريف بالمكتبات ومراكز المعلومات السعودية، والكشف عن وضعها من حيث المقتنيات وعدد العاملين والمستفيدين والمساحة واستخدام التقنية الحديثة، كما أنه يلقي الضوء على مدى تطور المكتبات ومراكز المعلومات السعودية على مدى السنين الماضية وانتشارها وأنواعها، هذا بالإضافة إلى أن هذا الدليل يعد أداة مهمة تعين الباحثين والدارسين والمكتبات عند الرغبة في الاتصال بإحدى المكتبات ومراكز المعلومات الأخرى.

يحتوي الدليل على المتن الأساسي وكشافين، وقد رتبت فيه المكتبات وفقًا لأنواعها «المكتبات الوطنية، والمتخصصة، ومراكز المعلومات، والجامعية، والعامة، والمدرسية»، ثم رتبت تحت النوع هجائيًا حسب اسم المكتبة، وأعطيت كل مكتبة رقمًا مسلسلاً لربط متن الدليل بالكشافات.

كما ألحق بالمتن كشافان: الأول بأسماء المكتبات، والآخر بأسماء الأماكن التي تقع فيها هذه المكتبات.

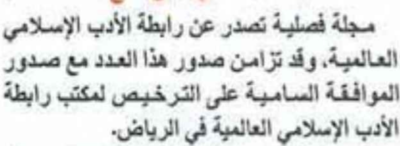
التعاون (س١٤، ع٥٠، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ/سبتمبر ١٩٩٩م)

مجلة فصلية فكرية شاملة محكمة تصدر عن الشؤون الإعلامية بالأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

صدر العدد الجديد من التعاون حافلاً بعدد من الموضوعات والدراسات تصدرتها الدراسة الرئيسة للدكتور فهد العسكر بعنوان «دور تقنيات الإنتاج في تطوير استخدام الصحف السعودية للعناصر المرئية»، وتلتها عدة دراسات مثل: «الإدارة البيئية - دراسة عن استهلاك الماء وفرص العمل التطوعي في إدارة المصادر المائية بمدينة جدة»، و«التفاوض كأداة لحل المنازعات - دراسة نظرية مع التطبيق على صلح الحديبية، صلح الرملة، اتفاقيات كامب ديفيد». و«منظمة التجارة العالمية وتأثيراتها على الأمن الغذائي العربي»، و«دور مؤسسة منحة الزواج وأثرها على الاستقرار النفسي الأسري في دولة الإمارات العربية المتحدة».

إضافة إلى الأبواب الثابتة وعرض لبعض الكتب.

الأدب الإسلامي (مج٦، ع٢٣، ١٤٢٠هـ)



مجلة فصلية تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وقد تزامن صدور هذا العدد مع صدور الموافقة السامية على الترخيص لمكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض.

تضمن العدد جملة من المقالات والبحوث منها: «أدبنا القديم.. ونظرية التلقي» للدكتور غازي طليمات، و«الرواية المضادة: دعوة للإباحية وطعن في الإسلام» للدكتور حلمي القاعود، و«محمد إقبال.. رائد التجديد» لعلاء الدين حسن، و«كيف يواجه الأدب الإسلامي.. تحديات العصر ومحاولات الغزو الفكري؟» لأحمد فؤاد حسن وقراءة أولى في ديوان: وردة في فم الحزن»، للدكتور محمدين محمدين يوسف، و«المنهاجية الخلقية للشاعر المسلم» لمحمد علي وهبة.

إضافة إلى أبواب المجلة الثابتة: الإبداع، وردود ومناقشات، وأخبار الأدب الإسلامي، وبريد الأدب الإسلامي.

المدرس (العدد الثالث، ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٩م)



مجلة للعلوم والتربية، تصدرها المدرسة العليا للأساتذة بفاس.

صدر العدد الجديد مشتملاً على ثمانية بحوث جاءت على التوالي: «التمثلات والاتجاهات: محاولات لتحديد المفاهيم» لكريمة حليم، و«الصور والبيداغوجيا» لكريستيان ميتز، و«إشكالية المنهج العلمي في تدريس العلوم الفيزيائية» لعبد الكريم الحجامي، و«الرياضيات في السنة الأولى من التعليم الثانوي: اقتراحات» للحسين أزرول ومحمد بوهو، و«ملف حول المسرح: المسرح والتعليم مرة أخرى...»، و«نحو كتابة درامية عربية معاصرة» لمونيكا رووكو، و«البريشتية في المسرح العربي» لخالد أمين، و«الدرس المسرحي في التعليم العالي بالمغرب» لسعيد الناجي.

كما ورد في العدد أيضاً عدد من الموضوعات باللغة الفرنسية.

أطباء ولكن أدباء

ياسر الفهد
دمشق - سورية

لعل خير ما يجمع العلم والأدب على مائدة واحدة عامرة ويصهرهما في بوتقة مشتركة جميلة أن يكون الطبيب أديباً، أو أن يكون الأديب طبيباً، فهذه ظاهرة طريفة تستحق التمعن والدراسة، وفيها يلتقي علم الطبيب بأدبه، أو أدب الأديب بعلمه، ويلتحمان في صورة فن علمي أدبي رائع. وقد يكون الطبيب الأديب في الأصل طبيباً لجأ إلى ممارسة الأدب، أو أديباً اختار دراسة الطب وممارسته. ولنبدأ أولاً بشرح ما نعنيه هنا بكلمة أدب أو كلمة «أديب»:

فمن المتعارف عليه عند بعضهم أن الأديب هو كل من ينتج قصة أو شعراً أو مسرحية، أو من يدبج نقداً أدبياً. ولكن للأدب في الحقيقة معنى أشمل من ذلك.

فبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً، فإن الأديب هو كل من يستطيع ممارسة فن الكتابة بأسلوب بديع مؤثر ولغة سليمة معبرة، سواء أكانت الكتابة علمية أم أدبية، نثرية أم شعرية. وهذا المعنى الشامل هو الذي ينطبق على مقالنا الحالي عن الطبيب الأديب الذي يشكل ظاهرة جديرة بالتأمل. فما الذي يدفع الطبيب الذي تكثر مشاغله وتغص مواعيده إلى سرقة الوقت والانصراف إلى كتابة القصة أو المقالة على حساب عمله الأصلي ومهنته التي يقتات منها؟ ما الذي يجعله، وهو الغارق في بحر التشخيص الطبي والمعالجة الدوائية أو الجراحية، يقرع باب الأدب بكل ما يستنزفه من جهد دائب ووقت لا حدود له؟ هل يمكن أن يكون المال هو الدافع وراء ذلك؟ الجواب حتماً بالنفي، لأن المردود المادي للكتابة هو في أغلب الحالات أضعف من مردود مهنة الطب. الدافع، إذن، لا بد أن يكون غير مادي. وهنا نجد أن أول ما يخطر في أذهاننا الدوافع العلمية والأدبية والإنسانية.



عبد السلام العجيلي

فالطبيب الذي يتحلى بموهبة إبداعية كتابية واستعداد فطري أدبي، لا يسعه إلا أن يمارس هوايته الأدبية ويعبر عن أفكاره العلمية، مهما ضاق وقته واتسعت مشاغله، فهذه تشكل فرصة أيضاً كي ينقل إلى القراء خلاصة تجاربه الطبية وخبراته المختلفة. إن هناك عدداً كبيراً من الأطباء أو الأدباء الذين يجمعون بين ممارسة الطب وممارسة الأدب، ويتحفون القراء بأعمال أدبية رائعة تكمن وراءها خلفية علمية متينة. وقد اخترنا هنا الحديث عن ثلاثة أطباء أدباء سوريين أتيحت لكاتب المقال فرصة معرفتهم عن كثب في ظروف مختلفة. أولهم الدكتور عبدالسلام العجيلي، وثانيهم المغفور له الدكتور صبري القباني، وثالثهم الدكتور غسان حتاحت، وجميعهم معروفون داخل سورية وخارجها: وعندما تعرفت إلى الدكتور عبدالسلام العجيلي، أول مرة، في إحدى المناسبات منذ أكثر من عقد، دهشت للمفارقة الطريفة التي تتجلى في بساطته الواضحة وتواضعه الجم، في مقابل علمه الغزير وثقافته الواسعة وحسه الأدبي العميق.

إنها بساطة الصدق والأخلاق الرفيعة وتواضع العالم العارف. وإذا تمعنا في السيرة الأدبية لطبيبنا الأديب، نجد أن إنسانيته وشعوره القومي ينعكسان على إنتاجه الذي يتخذ أشكالاً أدبية متعددة، منها القصة والحكاية والمقامة والمقالة، وبدرجة أقل القصيدة والمسرحية، ولكن القصة تشكل أهم أعماله. فهو رائد من روادها وفارس ماهر من فرسانها، ومن خلالها يعبر عن آرائه في العدالة والحرية والوحدة القومية وشرعية الكفاح.

ويعرف العجيلي نفسه القصة بأنها:

«رواية لحادثة أو لمجموعة صغيرة من حوادث مرتبطة فيما بينها بطريقة مشوقة قادرة على أن تترك في قارئها الأثر الذي يحمله الكاتب لتلك الرواية، جمالياً كان ذلك الأثر، أو إنسانياً، أو فكرياً».

ويرى سليمان فياض أن العجيلي خير من يمثل أدب النكسة، ولا سيما في قصته (فارس مدينة القنيطرة). أما يوسف اليوسف، فإنه يشبهه بإدجار آلان بو، من حيث بحثه عن اللامحسوس وعن الحقيقة الرابضة خلف المرئيات.

من أعماله القصصية مجموعات (ساعة الملازم) و(الخيل والنساء) و(قناديل إشبيلية). وفيها تظهر نزعته الليبرالية وحسه الوطني ورغبته في الإصلاح الاجتماعي. ويستوحي العجيلي إلهامه من بيئة الفرات نصف البدوية. وهو يكتب بأسلوب خاص مميز يتسم بفصاحة اللغة وجزالتها وعلميتها،



وبالقدرة على دمج الحقيقة بالخيال، والجمع بين بيئة الريف وبيئة المدينة، بينما نجده يستمد معظم قصصه من إلهامات الخيال، فإن حكاياته، خلافاً لذلك، تتضمن أحداثاً عاشها المؤلف على أرض الواقع، وهي - أي الحكايات - أشبه ما تكون بالسيرة الذاتية. ومن الأمثلة عليها مجموعة (حكايات من الرحلات) التي يصور فيها حياة الشباب العربي في المجتمعات الأوروبية. أما باقي فنون الأدب التي طرقها الدكتور العجيلي، فأهمها المقالة والمقامة والمحاضرة، وعلى نطاق ضيق جداً، المسرحية والقصيدة. وبالنسبة إلى المقامة، فإن أول واحدة منها كانت بعنوان (المقامة الطبية). وقد نشرت في عام ١٩٤١م في مجلة (الصباح) السورية لصاحبها الأديب عبدالغني العطري الذي كانت تربطه بالدكتور العجيلي علاقة أدبية وثيقة. وقد اقترح عليه الاستمرار في كتابة المقامات فتم نشر بعضها في مجلة الصباح وبعضها الآخر في مجلات أخرى.

وبعد ذلك قام الدكتور العجيلي بجمع المقامات المتفرقة ونشرها في كتاب باسم (المقامات).

وإذا أردت أن أقدم المزيد عن الطبيب الأديب عبدالسلام العجيلي، فإن الحديث سيطول كثيراً، لأن الرجل يمثل ظاهرة علمية وأدبية تستحق الاهتمام، ويستطيع كل من يروم المزيد أن يلتقي الدكتور العجيلي ويستمتع

بمناقشاته الأدبية من خلال الأمسيات التي تقيمها (مجلة دار الثقافة) في دمشق لصاحبها الأديب المعروف مدحت عكاش.

لقد اكتفيت بالقليل القليل الذي أوردته حتى أفسح المجال للحديث عن رجل كبير آخر هو الطبيب الأديب المغفور له الدكتور صبري القباني الذي عرفته منذ أكثر من سبعة وثلاثين عاماً، بوصفي مريضاً. كنت أذهب قاصداً عيادته الكائنة في شارع السنجقدار ألتمس منه التشخيص والعلاج لحالة مرضية غامضة ألمت بي. وقد دهشت عندما وجدته يناقشني في مرضي مناقشة الند للند، وكأني صديق حميم له، مع أن سني لم تكن قد تجاوزت التاسعة عشرة سنة، وكنت منذ صغري أشعر بميل شديد إلى المعرفة الطبية وتحليل الأعراض المرضية والبحث عن أسبابها، فجاءت نقاشات الدكتور القباني معي لتذكي جذوة هذا الميل وتغني معلوماتي الطبية. وبينما بدأت معرفتي بالطبيب الأديب من باب المرض، ولكوني مريضاً يبحث عن علاج لدى طبيب ماهر، فقد انتهت بعد سنوات إلى تعاون صحفي محدود نشرت بموجبه بعض المقالات الطبية المترجمة القليلة في مجلته (طبيبك). كان - رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه - طبيباً بارعاً وإنساناً رائعاً يتحلى بأخلاق رفيعة وسلوك نزيه بعيداً عن الجشع المادي. وقد انصب كل همه على نجاح العلاج لمرضاه، وذلك بالجمع بين العقار الطبي والعقار النفسي المتمثل ببث التفاؤل وزرع الأمل في نفوس مرضاه، والتأكيد لهم بقرب الشفاء، مما كان له أكبر الأثر في الإسراع بزوال عللهم.

وإذا انتقلنا من الجانب الطبي إلى السيرة الأدبية للطبيب المرحوم، لا بد لنا أن نشير إلى صداقته الحميمة مع الأديب الصحافي عبدالغني العطري صاحب مجلتي الدنيا والصباح السوريتين. فقد كان للأستاذ العطري الفضل في شق الطريق الأدبي وفتح باب الصحافة أمامه. وكانت البداية عندما اقترح عليه فكرة تحرير باب جديد بعنوان (عيادة القراء) ليرد فيه على أسئلة القراء الطبية في مجلة الدنيا. وكان هذا الباب جديداً على الصحافة السورية.

وعندما تم نشر الباب، أحرزت الفكرة الرائدة نجاحاً كبيراً، وجعلت مجلات أخرى تسير على المنوال نفسه، فانتشر باب (عيادة القراء) في الصحافة العربية. وبالطريقة نفسها انتقل المرحوم إلى تحرير باب مماثل بعنوان (طبيبك خلف المذياع) الذي كان يرد فيه من خلال الإذاعة السورية على استفسارات المستمعين الصحية. وبعد نجاح البابين نجاحاً ملحوظاً، أخذ المرحوم يفكر بإصدار مجلة طبية باسم (طبيبك).

ومن ثم استمر الأستاذ العطري في تشجيع الدكتور القباني على السير في الطريق الأدبي والطريق الصحفي إلى جانب الطريق الطبي، وصهرها جميعها في بوتقة واحدة. وأخيراً استغنى المرحوم عن عيادته الطبية وانصرف إلى التأليف الطبي والعمل الكتابي.

لقد كان - رحمه الله - يكتب بأسلوب أدبي بارع وكلمات ساحرة، ناهيك بقدرته على تبسيط الطب وتقديم المادة العلمية بطريقة سهلة جذابة لا تصعب على فهم القارئ العادي ولا تستعصي على مدارك إنسان، مهما بلغت ثقافته. لقد كان يشرح أدق التفصيلات العلمية بوضوح كامل، وبلغة أدبية غاية في الجمال. ومن كتبه المعروفة (طبيبك معك) و(الغذاء لا الدواء) و(جمالك سيدتي) و(أطفال تحت الطلب)، فضلاً عن رئاسته تحرير مجلتين مهمتين هما (طبيبك) و(الرياضة والشباب).

وفي كتابه (عبقريات شامية) تحدث الأستاذ العطري عن صداقته بالدكتور القباني، وأماط اللثام عن بعض الأمور المتصلة به. ومن ذلك أنه كان ينشر في مجلة الدنيا مذكرات سياسية مهمة بتوقيع مستعار. ولم يكن أحد من الناس يعرف من هو صاحب المذكرات الطريفة حتى كشف العطري في كتابه المذكور عن هوية كاتب المذكرات وهو الدكتور صبري القباني نفسه الذي كان يتعامل مع السياسة من بعيد وبحذر شديد، دون أن ينغمس في أي عمل سياسي فعلي.

وهكذا نكون قد قدمنا غيضاً من فيض حول طبيب أديب خاض غمار الطب والأدب بنجاح ملحوظ، وبث الأمل في نفوس الكثيرين من المرضى اليائسين، على الرغم من أنه هو نفسه عاش بكلية واحدة، وكان يعاني من المرض الأمرين. وقد تعرض لعدة نوبات من الذبحة الصدرية قبل أن يرحل في ربيع عام ١٩٧٣م. وهذه مناسبة كي أقر بأني أدين بمبادئ ثقافتي الطبية إلى الأجزاء الأربعة من كتاب (طبيبك) التي تتضمن كل ما يمكن أن يخطر على بال المرء من أمراض شائعة معروفة شرحها المؤلف بطريقة مفهومة ومبسطة تجعل القارئ يعرف (شيئاً ما) حول أي مرض يمكن أن ينشأ في منزله أو في بيئته.



صبري القباني



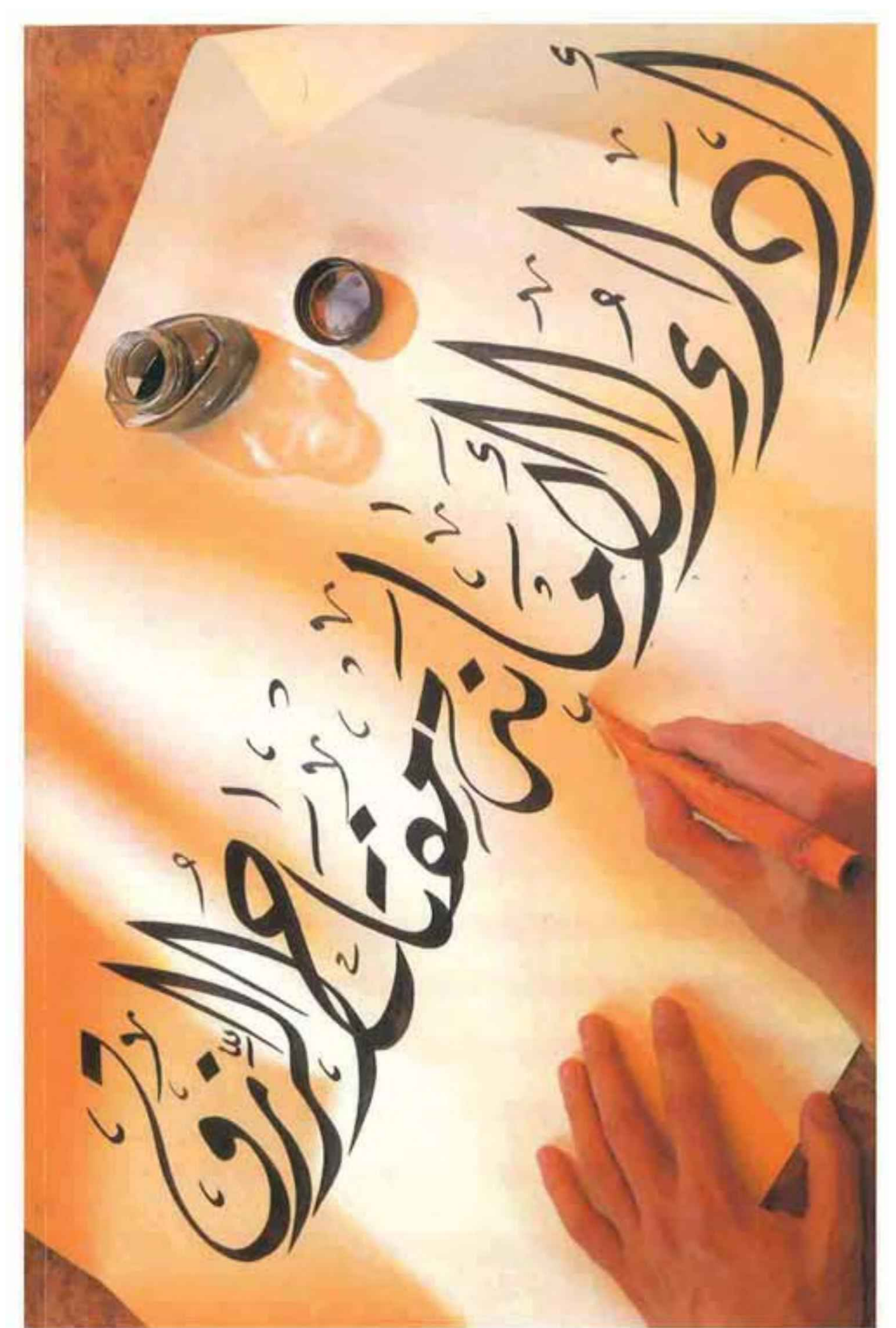
غسان حتاحت



والطبيب الأديب الثالث في مقالنا هذا، هو الدكتور غسان حتاحت الذي اعتدت على زيارته في عيادته الخاصة للتحدث معه في شؤون الصحافة والأدب. وهو أكثر اهتماماً بها من اهتمامه بمسائل الطب والمرض، بدليل أنه يصر دائماً على بقائي في غرفته المخصصة للمعالجة حتى يستمر نقاشنا الأدبي، أطول مدة ممكنة، غير عابئ بالكثرة من الزبائن الذين ينتظرون في الصالون.

والدكتور حتاحت رجل يفيض حيوية ونشاطاً ويشع ذكاء، وهو متحمس للكتابة إلى درجة أنه يعدها هدفه الأول في الحياة. ويتوزع إنتاجه في هذا المجال، والذي ينشره في مجلات متنوعة مثل الفيصل والعربي والجيل ومجلات متخصصة مثل طبيبك، بين المقالات والخواطر والحكايات الطبية الطريفة.

وفي الوطن العربي أطباء كثيرون يمارسون الطب بيد والأدب بيد. ولكني اخترت منهم ثلاثة أعرفهم معرفة شخصية. ولاشك أن القراء يسرون كثيراً عندما يقرؤون قصصاً يحكي فيها طبيب أحداثاً طبية عاشها مع مرضاه، فمثل هذه القصص تنطوي على فوائد طبية وأدبية وإنسانية في آن واحد، مما يجعل لكتابات الأطباء الأدباء التي ينشرونها في المجلات العربية المختلفة، أو في الكتب، رواجاً واضحاً.



قيم نبيلة سامية، وتقاليد عريقة راسخة

من نبع تراثنا الأصيل، كانت وماتزال المعين

الذي لا ينضب لمسيرة هذا الوطن.

استلهمنا منها أعمالنا واتخذناها منهاجاً

وعلى طريقها القويم تابعنا مسيرة النجاح.

اليوم وفي المستقبل، سنبقى أوفياء لقيمنا

الأصيلة متمسكين بها ملتزمين بنهجها

لتبقى دائماً الأساس المتين لنجاحنا المستمر.

نعتزّ بقيمنا

شركة الراجحي المصرفية للاستثمار

AL RAJHI BANKING & INVESTMENT CORP.